الحب يتنفس رصاص

رواية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

obeikan.com

طبعة ٢٠١٧

الهجين، أحمد فاروق.

الحب يتنفس رصاص: رواية /Love breathes Lead/ أحمد فاروق الهجين– .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٧ .

٣٤٠ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٠ ٥٢٧ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ - العنوان

٨١٣

obeikan.com

الحب يتنفس رصاص

رواية

تأليف

أحمد فاروق الهجين

o b e i k a n . c o m

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٧/٢١٩٠

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥٢٧-٠

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : الحب يتنفس رصاص

المؤلف : أحمد فاروق الهجين

الغلاف : إسلام البلاط

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

(١)

هنـاك علـى المـدى الغربـي تمـوت الشـمس، الليـل يزحـف بـكل ما فيه من وحشة وسكون، وراح كأخطبوط أسطوري يلف جنبات مدينة القاهرة بأطرافه الهلامية السوداء الهائلة، ويبسط صورة مقبضة في أعماق اللحظة التي لا مثيل لها؛ تلك اللحظة التي لم تأتِ بعد! ولكنها كانت تبتسم، وتتحدث بصوت هادئ رقيق من خلال هاتفها المحمول ذي الغطاء الوردي وهي تدهس بسيارتها الفاخرة أطراف ذيل تلك اللحظة الغامضة التي كانت في انتظارها كوحش كاسر فاغر فكه عن آخره؛ حتى يبتلعها بلا رحمة أو شفقة.

وغير بعيد من تلك اللحظة؛ ومن تلكم السيارة الفارهة التي تقودها فتاة حسناء تقطن مع عائلتها العريقة في قصر فاخر منيف يطل على نيل حي الزمالك الهادئ؛ من صرخ بذعر شديد في صوان أذن صاحبه سائق الدراجة النارية قائلاً:

- كمين.

وبغير وعي انحرف سيد أبلسه مستديرًا بمقدمة دراجته بغية الفرار من الشرطة، فمرَّ صدفة بالقرب من مؤخرة سيارة فتاة الزمالك، والتي كانت قد فتحت في اللحظة ذاتها حقيبتها الخلفية لرجال أمن الفندق الكبير الشاهق الارتفاع من أجل التفتيش، كان رجال الأمن يعرفون سما القاياتي حق المعرفة، مثلهم مثل الكثيرين في فنادق مصر والعالم العربي الكبرى، فلقد كانت سما القاياتي واحدة من أبرع مصممات المناسبات العامة والخاصة والخبيرة الشهيرة في المظهر والأناقة، ولكنها في تلك اللحظة النكد التي تلونت الحياة في وجهها بأبشع الألوان وأكثرها قتامة بدت كواحدة أخرى غير نفسها، وغير تلك الفتاة الساحرة التي يعرفها الجميع، وبدلاً من أن تلج من خلال نقطة التفتيش بسلام مثل كل مرة مع ابتسامات عريضة تصاحبها من رجال الأمن، وكلب بوليسي يهز لها ذيله بوداعة وحب شديدين، وقد شرعت تصعد الجسر المُؤَطَّر بسياج رخامي والمؤدي لمدخل الفندق مباشرة، فوجئت بوجوه عابسة متجهمة تصرخ في وجهها الشاحب كليمونة معصورة، وكلب أسود ضخم الجثة يتسلقها بمخالبه الوحشية، ويدني بأنفاسه الساخنة من أسفل ذقنها وهو يزووم ويكشر عن أنيابه ويكاد يمزقها إربًا إربًا، وعيون المارة التي تدفقت من كل ناحية متلهفة على اختلاس النظر إلى الفتاة الحسناء وهي تدفع من منكبيها بخشونة وفظاظة إلى قلب سيارة الشرطة من الخلف، ولم يكن

العجب فحسب في القبض على فتاة حسناء من أمام فندق كبير؛ وإنما كان العجب كله في كونها ابنة المستشار والنائب الشهير في البرلمان المصري حسين عبد المنعم القاياتي!

ولم يكن هذا هو كل ما احتملته في حشاياها تلك اللحظة المؤرقة التي كانت قبل طرفة عين من الآن، بل كانت لم تزل بعد تُخفي في سريرتها مالا يتصوره عقل، وربما كان من حسن طالع سيد أبلسه قائد الدراجة البخارية أن الأعين كلها قد انتبهت بعيدًا حيث الفتاة سما، حتى أعين رجال الشرطة أنفسهم والذين أوقفوا كمينهم على مشارف الطريق غفلوا عن القادم كالصاروخ بالدراجة البخارية، وانفلتت منهم كل حواسهم وجوارحهم وراء الحدث الأهم، والفتاة التي ضبطت متلبسة بلفافة كبيرة تحوي بداخلها صنف عجيب من المخدرات والتي لم تشهد البلاد له مثيلاً من قبل! ولكن هيهات ثم هيهات أن يفلت القدر تلك اللحظة الحبلى بالمفاجآت المتتابعة من يده ومن غير أن يزيدها غرابة وغموضًا، وللمرة الثانية صرخ سعدون في غضون ما بين برهتين من الزمن في أذن صاحبة صرخة مُدوية كادت تصمُّ أذنيّ سيد أبلسه، وهو يقول كمن مَسَّه جني من مردة الشياطين:

- انتبه.

قالها وهو يشير بسبابته إلى سيارة ميكروباص متهالكة، كانت منطلقة في الناحية المقابلة، وحيث كان هناك بداخلها من شرع عدسة كاميرا هاتفه المحمول الفاخر خارج النافذة، وقد راح يلتقط صورة تاريخية نادرة لتلك اللحظة الكابوس.

ظلَّ حربي الطحان يجري الليل بطوله بكل طاقته هربًا من مطارديه واللذين ظلاَّ يطلقان النيران في أثره بلا هوادة، كانت قواه قد خارت تمامًا، وشُلَّ عقله عن التفكير، وباتت رجلاه عاجزتين عن حمله، وهنالك توقف رَغْمًا عنه لاهثًا وهو ينظر إلى الوراء نظرة من فقد الأمل في النجاة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي توقف فيها عن الجري منذ أن قفز فارًّا بجلده من السيارة الميكروباص، بعد أن فوجئ بالدراجة النارية تدنو منه للغاية، وقد امتدت يد سائقها سيد أبلسه نحو هاتفه المحمول ثم حاول انتزاعه عنوة، ولكن رد فعل حربي اللحظي كان سريعًا ومفاجئًا جدًّا، والذي فوجئ به هو نفسه قبل غيره، فبتلقائية شديدة دفع بكل قوته قائد الدراجة البخارية من صدره فأسقطه أرضًا هو ودراجته، وكذلك سعدون الذي كان يرتدفه من الخلف، ثم أطلق ساقيه للريح. وبعد فترة عصيبة مرت سرى لأول مرة إحساس النجاة في نفس حربي من اللص الذي أراد سرقة الهاتف المحمول من يده، غير أنه فوجئ بأنها البداية لواحدة

obeikan.com

مـن أشـرس المطـاردات التـي لا يمكـن لعقـل طبيعـي أن يتصورهـا، فـراح يجـري ويقفـز كالملدوغ بـين الطرقـات الضيقـة والوعـرة وآجـام الشـجر وأسـطح المنـازل القديمـة؛ وسـؤال واحـد مفعـم بالدهشـة غيـر المتناهيـة يـدور بإلحـاح جـم في رأسـه بـلا توقـف: أكلُّ هـذه المطـاردات الرهيبـة مـن أجـل سـرقة مجـرد هاتـف محمـول لا أكثـر، ولِمَ هاتفـي أنـا بالـذات ومئـات البشـر يحملـون هواتـف مثـل هاتفـي إن لـم تكـن أكثـر منـه قيمـة وجمـالاً؟

كانـت الشـواهد كلهـا تقـول أن اللحظـات تمـوت تباعًـا لكـي تولـد غيرهـا؛ ولكـن اللحظـة إياهـا بـدت وكأنهـا الاسـتثناء مـن القاعـدة وأنهـا ظلـت حيـة بـلا مـوت، وكأنمـا لتفنـى فيهـا وحدهـا كل لحظـات الزمـن الآتـي، علـى الأقـل كان هـذا هـو الحـال في بيـت عائلـة القاياتي، وبخاصـة ابنتهـم الرقيقـة «سـما» والتـي قضـت ليلـة ليـلاء في الحجـز بـين صنـف عجيـب مـن الكائنـات البشـرية، نسـوة بـلا ريـب كـنَّ حثالـة قـاع المجتمـع مـن المجرمـات والعاهـرات والمدمنـات والمعتـادات علـى الإجـرام إلـى حـد لا يتخيلـه عقـل، كانـت سـما منـذ البدايـة منهـارة للغايـة أمـام ضابـط التحقيـق، وعاجـزة عـن النطـق تمامًـا بأيـة كلمـة وهـي تُوَاجَـه بمثـل هـذه التهمـة البشـعة جَلْـب وحيـازة المخـدرات وترويجهـا، ولكنهـا عرفـت الانهيـار الحقيقـي عندمـا أمـر الضابـط بحبسـها في الحجـز لحـين العـرض علـى النيابـة، وهنالـك وجـدت

مـن يدفعهـا بقسـوة بالغـة إلـى داخـل الزنزانـة المـلأى بشـياطين الإنـس، ثـم سـمعته وهـو يسـبها في شـرفها وقـد هَـمَّ يصفـق البـاب الزنزانـة الحديـدي في وجههـا ويسـحب الرتـاج بحـدة إلـى حلقـة الإيصـاد، الفتـاة البائسـة نفـرت واقفـة في الحـال بعـد أن أسـقطتها دفعتـه القويـة أرضًـا، وجـرت إلـى البوابـة المُحْكَمَـة الإغـلاق، وراحـت تمسـك بقبضتـي يديهـا قضبـان شـراعة البوابـة الحديديـة وهـي تصـرخ صرخـة مدمدمـة؛ كـي يخرجونهـا مـن محبسـها، ولكـن حـارس الزنزانـة عـاد إليهـا وهـو يحمـل في عينيـه نظـرة بالغـة الحـدة ثـم بصـق في وجههـا قائـلاً:

- أراكِ قريبًا بلباس الموت الأحمر أيتها الشيطانة الفاجرة.

●●●

obeikan.com

(٢)

قضت عائلة سما القاياتي ليلة كئيبة وحزينة للغاية، ليلة سوداء بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ولكن الأب حسين القاياتي كان أكثر أفراد العائلة تأثرًا بما جرى لابنته الحبيبة سما خلال الساعات القليلة المنصرمة، فلم تَقْوِيا قدماه على حمله، وضاقت أنفاسه، واضطربت دقات قلبه، وزاغت نظراته، وثقل لسانه بصورة مقلقة، فأخذه صديقه المحامي المعروف «نعيم الضو» إلى فراشه الوثير، وبلسان ثقيل لم يَقْوَ كثيرًا على إخفاء الحقيقة الموجعة راح يُهَوِّن عليه، وأن سما موقفها في القضية جيدًا للغاية، وأن الأمر لا يعدو كونه محض نكاية سياسية، أراد البعض من خصومه في عالم السياسة توجيهها إليه بصفة شخصية قبل انعقاد البرلمان المصري في دورته الجديدة، وذلك حتى يخرسونه ويجبرونه على مجاراتهم والخضوع لهم أو الصمت والانزواء الأبدي، وأنهم لم يجدوا من هو أقرب إلى نفسه من ابنته، فشرعوا يرسلون إليه من خلالها تلك الرسالة القاسية. لِمَ لا والجميع يعلم أن حسين القاياتي لا تهمه نفسه، وأن نفسه لو وضعت في كفة ومصلحة بلده في كفة أخرى لاختار بلا تردد بلده، وها هو ذا تاريخه

الطويل يشهد له بتلك الحقيقة وبوطنيته التي لا حدود لها، بل أن خصومه يعلمون علم اليقين أن ابنته سما نفسها وأحب شيء إلى قلبه ونفسه في الوجود لن ترجح كفتها إذا وضع في مقابلها الوطن العزيز، ولكن كان جلُّ أملهم أن تكون مثل هذه الضربة المميتة هي النصل الحام الذي ينفذ إلى شغاف القلب مباشرة، والتي تعدم صاحبها أية قدرة على الاختيار، كان هذا هو ما راح نعيم الضو يهمس به في أذن صاحبه شبه الفاقد للوعي، والذي نظر بجانب عينيه إليه وكأنما ليقول له بلغة الإحساس لا اللسان: « صدقت ويا لها من ضربة قاصمة » ثم انفجر في نوبة من البكاء المرير. وهنالك راح طوفان من الذكريات يضرب في حافة رأسه بآلاَف من الصور لابنته الحبيبة ذات الاثنين والعشرين ربيعًا، ومنذ أن كانت رضيعة لا تجد أفضل من كتف أبيها وسادة لرأسها، فتنام قريرة العينين والنفس، وأنفاسها التي تذفرها أَنْفٌ دقيقةٌ تلمس بدفئها ورتابتها جِلْد ومسمعي أذنيه، فتسري في نفسه أَرَقُّ أحاسيس الأبوة الخالدة، بل يحسب أنَّ إحساسه بتلك الفتاة بصفة خاصة قد نشأ وهي في بطن أمها، وربما قبل ذلك بكثير وهي لم تزل بعد في قبضة الغيب، وربما كان أيضًا من بين ما تذكره في لمح البصر أنه قد منحها هذا الاسم «سما» ليس من قبيل الصدفة أو الفراغ؛ وإنما لكثرة تطلعه إلى السماء، ومناجاة ربه طويلاً أن يمنحه الإنسان غير التقليدي الرائع الذي يفتقده بشدة في

حياتـه؛ والـذي يجـد فيـه ضالتـه المنشـودة كصاحـب وابـن وحبيـب، ذلـك الإنسـان النـادر الوجـود الـذي كانتـه بالفعـل الفتـاة سـما بـكل اقتـدار. فلقـد كانـت سـما بحـق نعـم الابنـة والصاحبـة والحبيبـة والأنيس،كانـت سـلواه ومـلاذه حـين تضيـق سـبل الحيـاة الموحشـة في وجهـه، وابتسـامته العذبـة حـين تكفهـر وتعبـس الوجـوه في ناظريـه، بـل كانـت محـل ثقتـه كلهـا، والبئـر الـذي يخفـي في قـراره السـحيق جلَّ أحاسيسـه وهواجسـه وأسـراره، ولقـد حـاول أن يكـون لهـا نفـس الشـيء ولكـن مشـاغل الحيـاة وصراعاتـه السياسـية المريـرة التـي لا تنتهـي كـم صرفتـه كثيـرًا عنهـا، فعرفـت عنـه أكثـر ممـا عـرف هـو عنهـا، وتكلـم معهـا عـن نفسـه وأحلامـه طويـلاً أكثـر ممـا سـمع لهـا، فأحـس حسـين لحظتهـا بغصـة الإحسـاس بالأنانيـة تعتصـر قلبـه، وأنـه لـم يكـن لهـا نعـم الأب كمـا كانـت هـي لـه نعـم الابنـة، فقبـض نعيـم بيـده علـى أطـراف أناملـه المتشـنجة وقـال بنبـرة زجـر واضحـة وإن لـم تخـلُ مـن بـراءة:

- حسـين، يجـب أن تتماسـك أكثـر مـن ذلـك إن كنـت تحـب ابنتـك بحـق، نحـن أمـام كارثـة حقيقيـة، بكاؤك هـذا لـن يفـرج عنهـا كربهـا، التصـرف السـريع وبحكمـة وأنـاة هـو أملنـا الوحيـد في الخـروج مـن هـذه الأزمـة الطاحنـة.

كانت هذه الكلمات بمثابة الجرس الذي قرعه صاحبه في الوقت المناسب؛كي يستفيق وقبل أن ينزلق في دوامة اليأس المغرقة، فغمغم قائلاً وهو يطلق من صدره تنهيدة عميقة للغاية:

- هيه، ليس هذا أوان الموت حقًّا.

- هل كنت تستدعيه؟

- تمنيته بالفعل حتى أستريح، ولكن أظن أنه قد آن الأوان أيضًا كي أكف عن أنانيتي المقيتة.

أدهشت تلك الكلمات نعيم والذي فغر فاهه حتى آخره وقال متعجبًا :

- حسين القاياتي أناني!

- على الأقل حيال ابنتي سما.

هز نعيم الضو رأسه هزة اعتراض خفي ولكنه آثر الصمت، وتطلع طويلاً إلى صاحبه المسجي في فراشه وهو يهز رأسه حسرة، وشتان بين صاحب اليوم وبين صاحب الأمس القريب!فلقد كان صاحبه بحق ثورة تمشي على الأرض، ثورة ضد الظلم والطغيان والعدوان، كان من أشد المؤيدين لثورة يوليو عام ١٩٥٢، وكان في الوقت ذاته من أشد المعارضين لأي بادرة انحراف تَنِدُّ عنها

وعـن مبادئهـا، وحـين قـرر الرئيـس عبـد الناصـر تمليـك الفلاحـين الأرض؛ اعتـرض بشـدة ليـس علـى المبـدأ الـذي كان متحمسًـا لـه للغايـة؛ وإنمـا كان يـرى أنـه مـن الضـروري اعتبـار الأرض هـي الثابـت الـلا جدالـي والفـلاح هـو المتغيـر، وأنـه لابـد مـن خـروج حزمـة مـن القوانـين الصارمـة التـي تحفـظ بقـاء الأرض الزراعيـة الخضـراء كمـا هـي. وحـين كان مـارًّا ذات يـوم في سـيارته مـع نعيـم الضـو لمـح مـن بعيـد أرض مترامـيـة الأطـراف غاصـة بالعشـوائيات التـي بـدت وكأنهـا مقلبًـا كئيبًـا للنفايـات العفنـة؛ فـدقَّ كفًّـا بكـف وقـال بحسـرة ولوعـة بالغـة وهـو يشـير ناحيتهـا بطـرف سـبابته:

- هذه عزبة الخالدي باشا الأزميرلي.

- والد بولا هانم زوجتك.

- هيـه الريـس كانـت نيتـه طيبـة، ولكنـه تسـلم شـعبًا الكثيـر مـن أفـراده جهلاء،هيـه الحلـم أخضـر والواقـع أسـود مريـر.

قـال حسـين مـا قالـه شـاردًا، فيمـا انفجـر نعيـم ضاحـكًا وهـو يقـول:

- الآن عرفـت لمـاذا اعتقلـت حينهـا يـا صاحبـي، فلقـد كانـوا فيمـا يبـدو يتصورونـك الثـورة المضـادة التـي كان يخشـاها الرئيـس عبـد الناصـر.

نظر حسين طويلاً إلى صديقه الغارق في الضحك وكأنما لم يسمع شيئًا مما قاله، ثم أشاح بوجهه بعيدًا إلى خارج نافذة السيارة وقال هامسًا في نفسه:

- بولا الخالدي، يا للروعة القاتلة! هي لم تفهمني أبدًا، وأظنها سوف تبقى كذلك إلى الأبد.

وهنالك تراءت له أمام عينيه بشرًا سويًّا بهيئتها الشقراء، وجلد بشرتها الذي تغضن، وراح يَلُفُّ عنقها كطبقات متراكمة من الدهن الطري الذي تغطيه خصلات شعر ذهبية أقرب إلى البياض منها إلى الاصفرار، كانت عيناها زرقاوين متقلبتين كبحر هائج مضطرب، وقد وقفت فوق رأسه تحدق في وجهه الشاحب بحدة متناهية، فَهَبَّ نعيم الضو واقفًا وشرع يقول بنبرة رقيقة مصطنعة كمحاولة مسبقة منه لتلطيف الأجواء التي كان يعلم علم اليقين أنها سوف تنقلب بعد برهة من الزمن إلى عاصفة زمهرير لا قِبَلَ لأحد بها:

- بولا هانم، الأمر جد خطير ويستدعي العمل في هدوء تام.

- وأظن أن الأمر يستدعيكذلك مناقشة أحوالنا العائلية وحدنا ومن غير وجود متطفلين.

obeikan.com

- بولا مثل هذا الكلام لا يصح أبد...

فقال نعيم بسرعة متنحنحًا وهو يربت برفق على قدم صاحبه وحيث كان يقف:

- لا عليك يا سيادة المستشار، الهانم معها حق، سوف أتصل بك لاحقًا.

ولم يطل انتظار بولا والتي قالت من فورها ولحظة مغادرة الرجل الحجرة:

- لا تظن أن الموت نفسه سوف ينجيك من الكارثة التي حلت بنا بسببك، وبسبب صراعاتك السياسية البغيضة، سما بريئة وأنت يجب أن تتصرف وبأسرع وقت ممكن وإلا جعلت حياتك الجحيم نفسها.

كانت كلماتها مثل طلقات الرصاص القاتلة، وكان هو بالنسبة لها مثل الهدف المكشوف في العراء والذي يسهل على أي قناص مبتدئ اصطياده، ولقد حاول حسين في داخله أن ينهض، وأن يكون حكيمًا في الرد عليها قدر الإمكان وحتى لا ينفلت زمام الأمور برمتها من قبضة يديه؛ غير أنه لم يَقْوَ على ذلك، بل لم يجد في نفسه من الأصل أية رغبة في الدفاع عن نفسه أو الثأر لذاته ولكرامته المُهدرة، غير أنهما فوجئا بنعيم وقد استدار عائدًا إلى

داخل الحجرة وهو يقول بنبرة من جهد نفسه حتى لا يطيش من لسانه صواب الكلمات:

- لتأذن لِيّ سيدتي، ابنتنا سما ضبطت متلبسة وهذا هو الخطير في الأمر، وليس هناك دليل قطعي حتى الآن على ما تقولينه بخصوص الصراعات السياسية، اللهم إلا ما يردده البعض من الحاقدين على حسين القاياتي في وسائل الإعلام الموجه.

- أهذا الفاشل هو من وكلته للدفاع عن ابنتنا!

عندئذ نهض حسين متكئًا على كوعه وهو يقول غاضبًا وبنبرة إعياء بادية:

- بولا، احترسي لِمَا تقولينه وإلا ...

- وإلا ماذا أيها السياسي المحنك، الأستاذ يتهم ابنتنا صراحة بتلك الجريمة البشعة، فبأي روح إذن سيدافع عنها.

قبل أن ينطق حسين بأية كلمة أشار له نعيم من طرف خفي أن يهدأ، وأن يترك له الأمر برمته، وبكياسة مُحامٍ متمرس دنا من بولا وقال بصوت رصين:

- معكِ حق سيدة بولا بخصوص طرحك المنطقي، بأي روح حقًّا سيدافع نعيم الضو عن متهمة يقرر ابتداءً أنها قد ضُبِطَت

متلبسة! ولكن ألا تلاحظين يا سيدتي أن الواقع هو الذي يقرر أن سما القاياتي قد ضُبطت متلبسة بالفعل، وفي حيازتها المخدرات وليس العبد للّه، ثم ولِمَ لا يأتي عشرة من المحامين غيري فهل سيغير هذا شيئًا في مجرى القضية في رأيك؟

- على الأقل ستكون روحهم أكثر قوة من روحك الخائرة.

- لا أظن فقوة روحهم ستكون بقدر الأموال التي ستغدقينها عليهم، أقصد التي سوف يغدقها سعادة المستشار، أما بخصوص روحي أنا فأظن أن مصدر قوتها الوحيد هو أنني أعتبر قضية سما كقضية واحد من أبنائي، هي قضية حياة أو موت.

صمتت بولا طويلاً وهي تتفرس بغضب بادٍ في وجه نعيم، ثم استدارت على عقبيها منصرفة إلى خارج الحجرة، فيما أومأ نعيم برأسه قائلاً بصوت لم تسمعه بولا بحال من الأحوال:

- شكرًا لكِ على ذوقك بولا هانم وعلى اتهامك لِيّ بالغباء.

نظر حسين بدهشة لنعيم وقد اضطجع جالسًا في فراشه وقال:

- لم أسمعها تتهمك بذلك يا رجل.

- أظنها قد قالت في نفسها أكثر من ذلك بكثير.

وهنالك تَبَسَّم حسين رَغْمًا عنه، فدنا منه صاحبه الخفيف الظل حتى في أحلك اللحظات، وشرع يربت برفق على رأسه من الخلف قائلاً:

- أزمة ولسوف تزول بإذن اللّه.

عاود الشرود الإطباق على جلِّ حواس حسين القاياتي مرة أخرى، والذي أحس بقبضة شديدة تعتصره من الداخل وقد ألقى بناظريه بعيدًا إلى مرمى الأفق المستقبلي، وحيث كانت غمامة من السواد الحالك قد طغت على كل شيء في نفسه، وأن كلام صاحبه ليس إلا من قبيل تسكين الفؤاد وتطييب الخاطر ليس أكثر، وأنها أزمة من العيار الثقيل، والتيمن الصعب إن لم يكن من المستحيل زوالها بسهولة.

●●●

obeikan.com

(٣)

فشلت كل الاتصالات الهامة ومحاولات الأب وصديقه المحامي نعيم الضو المُضنية من أجل الإفراج المؤقت عن سما وبأية ضمانات ممكنة، وكذلك لم تفلح محاولة إخراج الفتاة بأية كفالة تُطلب وذلك أثناء فترة الليل فقط من أجل المبيت في كنف عائلتها ومنزلها ولحين عرضها على النيابة في الصباح الباكر، وقيض للفتاة أن تمضي أعجب وأبشع ليلة سمعت عنها في حياتها، كانت مثل زهرة التيوليب التي تفتحت أوراقها النضرة في دمنة عفنة تعيث فيها الهوام والحشرات فسادًا، ورائحة كريهة كانت تنبعث من المكان وكأنه مرحاض عمومي لا أبواب له، وكذلك كانت وجوه النسوة السجينات كريهة وتخرج من أفواههن الكلمات الفاحشة، وتصدر منهن الحركات النابية الساقطة، أحسَّت سما لأول وهلة بدوار سخيف يجتاح رأسها وأنها سوف تسقط لا محالة ميتة على الأرض من الاختناق والذعر من هذا المكان المقبض، فيما كانت الأعين المترصدة من حولها تكاد تفتك بها فتكًا، واحدة من هؤلاء النسوة أطلقت شهقة عميقة وهي تدق على صدرها المشقوق، وتقدمت ناحية سما التي كانت تبكي بلوعة شديدة وقد

وضعت يدها في خاصرتها، ثم قالت لها متسائلة بحدة ومن غير سابق إنذار:

- سرقة، آداب، مخدرات، أم كفى الله الشر قتل؟

- ...

- أجيبي على سؤال الريسة يا بنت الـ...

قالتها وهي تضرب سما بظهر يدها ضربة موجعة في بطنها، فصرخت سما ألمًا، وربما كان ألمها الأشد من تلك الألفاظ الخارجة التي راحت الريسة تسبها بها، فقفزت مبتعدة إلى آخر المكان، وراحت تلتصق بجسدها في زاوية الجدار وتحشر نفسها حشرًا فيه لعلَّ معجزة تحدث وتمكنها من اختراقه والخروج من مثل هذا المكان الموبوء الرهيب، والهروب كذلك من بعض النسوة اللائي ينظرن إليها شَذَرًا، وقد رحن يتقدمن نحوها على أثر طرقعة من إصبعي الريسة، وهي تأمرهن بعصبية مفرطة:

- احضرنها إليَّ راكعة من شعر رأسها.

امتدت أيدي النسوة إلى نواحٍ متفرقة من جسد سما، ثم شَرَعْن يجذبنها عنوة من هنا وهناك إلى حيث كانت تقف الريسة، ولم تفلح مقاومة سما وصرخاتها ونداءات الاستغاثة المتكررة في إحضار حراس الزنزانة كما تمنَّت، كانت مقاومتها بعد

مرور فترة من الزمن قد انهارت تمامًا، ولم تجد مفرًّا في النهاية من الرضوخ للريسة والتي لم تتوان عن صفعها بحدة على خدها أكثر من مرة، وأخيرًا قالت ممتثلة لأوامر الريسة برعب شديد لا نظير له:

- حسنًا حسنًا سوف أفعل كل ما تأمرينني به، ولكن أرجوكِ من غير ضرب أو إهانة.

- تفتيش ذاتي.

قالتها الريسة بنبرة صارمة، فصرخت سما مستغيثة بلا جدوى، فيما مدت على الفور واحدة من النسوة يدها إلى سروال الفتاة الجينز الأزرق وراحت تعبث في جيوبهاالأمامية والخلفية، ثم في بقية ثنايا ملابسها بحثًا عن النقود أو أي شيء من هذا القبيل، وأخيرًا تكلمت الريسة وهي تحصي عدد النقود التي كانت في حوزة سما قائلة:

- لا تدعي البراءة أيتها الشيطانة، الأخبار التي وصلتني يا نسوان الحجز أن الأستاذة البريئة اللطيفة ضُبطت ومعها أخطر نوع من المخدرات ظهر في العالم.

قالتها الريسة وهي تفرد ذراعيها لأعلى وكأنها في عرض مسرحي، ولكن سما قاطعتها معترضة قائلة:

obeikan.com

- كذب، هراء، أقسم أن هذا غير صحيح بالمرة.

- قولي الصدق أيتها اللئيمة الجميلة، ولن أشي بك عند أي أحد صدقيني، هممم...ألم يتم ضبطتك متلبسة بالبضاعة؟

قالتها وهي تغمز لها بإحدى عينيها غمزة فاحشة، وتَمَدُّ يدها في الوقت ذاته نحوها بطريقة مريبة، فارتبكت الفتاة وتراجعت إلى الوراء قائلة فيما يشبه التوسل:

- أقسم لكِ أنني بريئة، وأن ما حدث لا أدري كيف حدث.

كانت لحظات عصيبة عاشتها سما القاياتي، لحظات أحسَّت خلالها أنها ربما ستفقد -لو استمر الحال على ما هو عليه أعز ما تملكه الأنثى - الشرف والكرامة الإنسانية، فبدأت تخرج عن شعورها، وتَنَدُّ عنها صرخات لاشعورية، وقد راحت تحملق طويلاً في تلك الدائرة التي رسمتها الريسة برأس سيجارة مطفأة - لم تدخنها حتى نهايتها في منتصف حجرة الحجز- والتي لا يزيد قطرها عن العشرين سنتيمترًا، كانت هذه الدائرة هي التي كُتِبَ عليها أن تبيت ليلتها بطولها واقفة في داخل إطارها الضيق حتى الصباح، فبهذا حكمت عليها الريسة كعقاب لها؛ لكونها لم تُقَدِّم لها بعد فروض الطاعة والولاء، وأنه مع مزيد من الضغط والإكراه سوف تفعل الفتاة ما يمليه عليها صوت الواقع المريض لا صوت العقل بطبيعة الحال.

وقرب الفجر فتحت الريسة عينيها في اتجاه سما التي كانت تقف منهارة في قلب الدائرة الضيقة، فارتسمت ابتسامة ما على وجهها، وصرخت فيها بلهجة آمرة:

- ارقصي ياقمر يا بنت الـ...

ارتعدت فرائص الفتاة التي أبت عليها كرامتها أن تلبي مثل هذا الأمر الجنوني، وهزت رأسها بالرفض، وهي لا تدري في قرارة نفسها عاقبة رفضها هذا، وأي رد فعل جنوني سوف تبديه مثل هذه المرأة المجرمة المتوحشة، ولقد كانت متوحشة بحق وحقيق، والتي كبر عليها أن تجد من يرفض تنفيذ تعليماتها على هذا النحو الصريح، فهبت واقفة والشرر يطق من عينيها، ومن بين ثنايا صدرها انتزعت مُدْيَة صغيرة، ولكنها كانت حادة النصل بشكل لا مثيل له، وجعلت تدنو من سما ثم صرخت قائلة بلسان شيطاني:

- يا نسوان، الآن موعد كشف العذرية.

وحينئذ لم تجد سما وسيلة غير المقاومة حتى الموت والصراخ الهستيري الذي اهتزت له جنبات الأرض الأربع، فهبَّ حسين القاياتي منزعجًا من نومه وقد أخذته سِنَة في عارضة الليل وبعد أن جافاه النوم طويلاً، كان يبدو كالمخنوق، وتطلع بعيدًا إلى سقف

obeikan.com

غرفة نومه، ثم أخذ يركض كالمجنون إلى خارج الغرفة، ومنها إلى خارج القصر بأسره، فلحق به ابنه ماجد والذي تصادف وجوده لحظتها في بهو القصر الفسيح، فقال له وهو يعترض سبيله:

- إلى أين أنت ذاهباالآن يا أبتِ في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

- إلى أختك.

- أطمئنُّ، كلنا سوف نكون معها في سراي النيابة منذ الصباح الباكر.

- لن أنتظر حتى الصباح، أختك ليست بخير.

- وأنت كذلك لست بخير.

قالها ماجد وهو يحمل والده بين ذراعيه والذي كان يتساقط بين يديه وكأنه رُفَات ميت لا جسد رجل حي.

●●●

obeikan.com

(٤)

كانت الشواهد كلها ضد سما القاياتي، وضد كل ما تحمله هيئتها الجميلة من رقة ووداعة متناهية، وفشل نعيم الضو في إيجاد أي مبرر يكون أقوى حجة من الواقع،والقانون أعمى أمام كل شيء اللهم إلا ما يسوقه الواقع من حجج وقرائن، فالفتاة ضُبطت متلبسة ولا يوجد شاهد واحد يصادق على ما تقوله الفتاة في تحقيقات النيابة، وما يحاول الأستاذ نعيم إثباته لا يعدو أن يكون مجرد اجتهادات وفرضيات قد تصح وقد تخطئ؛ ولكنها تبقى دائمًا بلا دليل واحد يُرى رأي العين، فكان هذا هو ما قاله أكثر من مرة محقق النيابة للدفاع، فأطرق الأستاذ نعيم طويلاًحائرًامبتئسًا وفكره لم يزل يعمل بسرعة غير عادية، فلقد كان مصير الفتاة الطيبة بين يديه وهيعلى شفا الهاوية، وكان عليه أن يفعل المستحيل، وعلى أقل تقدير كان عليه أن يؤخر قدر الإمكان تحويل النيابة القضية برمتها إلى المحكمة، فربما تحدث معجزة من السماء وتنجو الفتاة بجلدها من الفخ الرهيب الذي نصبه لها حظها التعس، فرفع رأسه بعد هنيهة وقال لوكيل النيابة:

- سيدي الفاضل، ربما بل من المؤكد أن موكلتي الحسنة السير والسلوك بشهادة الجميع ليست بلهاء إلى هذا الحد حتى تذهب بقدميها إلى نقطة تفتيش الفندق بمثل هذه السهولة، وهي تضع في حقيبة سيارتها هذا الصنف الخطير من المخدرات.

- ربما تصورت أن رجال أمن الفندق الذين يعرفونها جيداً من خلال ترددها الدائم على المكان لن يدققوا كثيرا معها في تفتيش حقيبة سيارتها الخلفية، والمكتظة بأشياء لها علاقة بطبيعة عملها كمصممة ديكور أو مناسبات خاصة وعامة.

- معك حق، البشر قد يجاملون بعضهم البعض، فماذا عن الكلب البوليسي الشرس الذي كاد يمزقها إربًا إربًا، فهل الكلاب أيضًا تعرف لغتنا نحن البشر، المجاملة والرشوة والتحرش والـ...

رفعرفان غانم المحقق يده ضاحكًا في إشارة مقاطعة منه للمحامي قائلاً:

- في هذه أنت معك حق، ولكن القانون هو القانون كما تعلم جيدًا، ولكونه أعمى إذا اختفت المقدمات أمامه في قضية ما اكتفى بالنتيجة وحدها فحسب، أستاذ نعيم قدم الدليل على

obeikan.com

كل ما قلته إذا كنت تريد حقًّاتبرئة ساحة موكلتك، ولا تضع وقت النيابة ووقتك الثمين أكثر من ذلك.

- لا أتصور أنه من الحكمة تعجل الأمور وتحويل القضية إلى ساحة المحكمة قبل تفريغ أشرطة تسجيل مراقبة الفندق الخارجية.

ابتسم المحقق ابتسامة زهو عريضة وقال:

- يبدو أنه قد فاتك يا سيدي الإطلاع على محضر القضية وأن النيابة قد عاينت بالفعل موقع وملابسات الضبطية، كما اطلعت بدهيًّا أيضًا على تسجيلات كاميرات المراقبة الخارجية للفندق، والنيابة لم تجد أي شيء يثير الانتباه فيها.

ازدرد نعيم ريق حلقه حرجًا وهو ينظر من أسفل نظارته الطبية في اتجاه الأستاذ سمير زعفران المحامي الآخر الشهير والموكل إليه متابعة قضية الفتاة من قبل الأم بولا هانم الخالدي، فلقد كانت بولا تمقته مقتًا شديدًا وربما بسبب أو من غير سبب، ولقد حاول نعيم في بادرة طيبة منه التنسيق مع المحامي الآخر، إلا أن المحاميالمتغطرس سمير زعفران قد أبى بشدة وطالبه صراحة بالانسحاب من القضية، ولكن نعيم فَضَّل أن يرجئ أي خلاف أو صدام مع بولا هانم وجبهتها القوية وحتى لا يؤثر ذلك على سير

القضية ومصير الفتاة المجهول، والذي أخيرًا قال متلعثمًا لوكيل النيابة:

- كنت أقصد يا سيدي السماح لِيّ بالاطلاع على هذه التفريغات ولعل وعسى.

تطلع عرفان غانم طويلاً إلى الفتاة الواجمة، ثم حَوَّل نظره إلى نعيم الضو صاحب طلب إرجاء تحويل القضية إلى هيئة المحكمة بما يزجيه من حجج واهية لا معنى لها في نظر النيابة؛ وبخاصة أن نعيم لم يطلب من قبل الاطلاع على الفيديوهات المفرغة لكاميرات المراقبة، ليس تقصيرًا منه وإنما تعمده المماطلة والتسويف، ولعل هذا الإحساس الصادق حقًّا والذي ساور نفس عرفان غانم كان كفيلاً بجعله يرفض طلب ذلك المحامي الثعلب، وإحالة الأمر برمته إلى المحكمة، ثم لتفعل هي بعد ذلك ما تراه مناسبًا من أجل إمضاء سيف العدالة بلا أي خلل أو تقصير. ولكن عرفان غانم عاود النظر الشارد مرة أخرى إلى سما، والتيكانت واقفة آنذاك عن كثب بين شقي الرحى، فالواقع والحياة والبشر كلهم قد باتوا كآلات حادة مسنونة لا ترحم أحدًا، والشخص الوحيد الذي تمنت وجوده في المكان آنذاك لم يحضر، فحزنت بشدة على ما في قلبها من أحزان ليس لكون هذا الشخص قد قَصَّر في حقها وغاب عنها في وقت محنتها العصيبة، وإنما لكونها

كانت تعلم جيداً أنه لم يحضر لمصاب جلل قد ألم به، فوالدها منذ متى قَصَّر في حق أحد من الغرباء حتى يقصر في حقها هي! ذلك الأب الذي أنهكته الحياة وأنهكها، وطال الصراع بينهما وكأنما هو صراع لن ينتهي إلا بفناء أحدهما من دون الآخر، ولهذا كان يبدو في الآونة الأخيرة أمام ناظريها من فرط مرضه وإعيائه الشديد كشبح هزيل، فماذا يكون حاله إذن وقد وقعت ابنته وأحب شيء إلى قلبه في الوجود في مثل هذه الأزمة الطاحنة، إنه بلا ريب يموت الآن ويتحلل ببطء دام شيئًا فشيئًا. ولم تبال الفتاة كثيرًا بوجود أمها وإن ارتمت في حضنها في بادئ الأمر وكأنما تشكو إليها مصابها وسوء حالها، وما جرى لها في ليلة الحبس الأولى الرهيبة التي قضتها في الزنزانة بين أقذر نساء العالمين، بل في الليالي اللاحقة أيضًا والتي أمرت النيابة ببقائها خلالها في الحجز على ذمة القضية لأيام تلو أيام، ولكن بولا كانت جافة إلى أبعد حد وكأنها امرأة بلا قلب، فجعلت تقول لها بنبرة حازمة :

- كفى ما نالنا من تحت رأسك من فضيحة وعار، محاميك الأستاذ سمير زعفران وليس أي نكرة أخرى من المتطفلين الانتهازيين،أفهمتِ؟

ولكن لحظتها فوجئت بمن يقف إلى جانبها مباشرة وهو يرسم ابتسامة عريضة على وجهه وإن كانت مصطنعة إلى حد كبير وهو يقول لها :

- هل تأذن سيدتي لمتطفل صعلوك مثلي أن ينفرد بموكلته قليلاً.

قالها نعيم وهو يشد سما برفق من راحة يدها جانبًا، فانفجرت سما في البكاء وهي تقول له:

- أنا بريئة يا عم نعيم، أنا بريئة أقسم لك.

- أواثقة أنتِ من ذلك؟

هنالك انعقد لسان الفتاة في حلقها، وراحت ترنو طويلاً إلى محاميها وصديق والدها العزيز بنظرة ما، نظرة كانت تحمل كل معاني عدم التصديق والصدمة، فابتسم نعيم وقال لها وهو يديم إليها النظر:

- كل ما كنت أريده هو هذه النظرة، ولو حدث يومًا وتطرق إليك الشك في نفسك فأنا من المحال أن يتطرق إليَّ يومًا الشك في براءتك يا زهرة عائلة القاياتي الرائعة.

ابتسمت سما رَغْمًا عنها، ولكنها كانت ابتسامة شاحبة للغاية، ابتسامة فشلت في إخفاء الكثير من الأهوال التي حدثت لها ليلة أمس، ومثل كل ليلة قضتها في الزنزانة وحتى مطلع صباح كل يوم، فمسح نعيم بكِلْتَيّ يديه برفق على كتفيها النحيلين وقال:

obeikan.com

- أعرف يا بنيتي مقدمًا أية ليالٍ مريرة تمضينها هنا، وبخاصة بعد علمي أن الريسة بجلالة قدرها رفيقتك في الزنزانة.

- أتعرفها؟

- ومن في مصر كلها لا يعرفها!

- إنها مجرمة، مقائلاً بنبرةم أكن أتصور أبدًا أن حياتنا الآدمية تحوي مثل هذه المخلوقات العجيبة والتي لا مثيل لها حتى في عالم الخيال نفسه، وأن مثل هذه الأمور التي لا يصدقها عقل تحدث في الحجز، اعتداء، ضرب، شتائم قذرة، وتحرش جنسي، وكشف عُذ...

فقاطعها نعيم قائلاً بنبرة حزينة:

- لا تفقدي الأمل على أية حال يا عزيزتي، وما حدث معكِ ثقي أنه هو الاستثناء من القاعدة، والدك له أعداء كُثُر، وما حدث معكِ يؤكد على صواب اعتقادي، أنتِ ضحية ليس إلا، وأن المسألة كلها محض مكيدة سياسية وتلفيق قذرة ضد والدك، وكفى الحملة البشعة التي يقودها الآن خصومه بلا هوادة للقضاء عليه تمامًا.

ولقد كان ما كان ليس إلا بعض الألم وليس الألم كله، إذ لم يجد حسين القاياتي بُدًّا من الاضطجاع في فراشه لاهثًا لُهَاث

الغضب والانفعال المزلزل، وقد هَمَّ يضغط بأصابع مرتعشة أزرار هاتفه المحمول ليجري مداخلة مع إحدى القنوات الفضائية، والتي كانت تبث لحظتها برنامجًا حواريًّا عن تجارة المخدرات، ولم يتوانَ ضيف البرنامج عن الحديث صراحة عن المستشار حسين القاياتي، وابنته المتهمة بجلب نوع خطير من المخدرات إلى البلاد وقال:

- أنا أطالب سيادة المستشار حسين عبد المنعم القاياتي أن يُصِرَّ على موقفه القديم الذي أعلنه مرارًا وتكرارًا تحت قبة البرلمان المصريبضرورة استصدار قانون للإعدام المباشر لكل من جلب أو روج أو تعاطى مثل هذا الصنف الخطير جدًّاعلى وجه التخصيص، ومن غير أيشفقة أو رحمة...

وهنالك قاطعت المذيعة الضيف لتعلن عن مداخلة هاتفية من المستشار حسين القاياتى نفسه، والذيدخل في الموضوع مباشرة قائلاً من غير مقدمة:

- يبدو أن ضيفكم المحترم على علم مسبق بالمستور ويستبق الأحداث التي لم تزل بعد في سراي النيابة، وهو قانوني كما أتصور ويعلم جيدًا القاعدة القانونية التي تقول أن المتهم يظل بريئًا حتى تثبت إدانته.

obeikan.com

- معالي المستشار ومن قال أنني كنت أقصد كريمتكم تحديداً افكَّ الله أسرها.

- يا أخ «س» لا تخدع الناس، وتذكر أنك أنت كنت أكثر من عارضني لحظة محاولتي استصدار قانون استثنائي لهذا الصنف الخطير من المخدرات، ومضبطة المجلس تشهد على كلامي هذا.

- فاعتدل الضيف في جلسته، وابتسم ابتسامة عريضة وقال بلؤمٍ بادٍ:

- يا سيدي واقع الحال جعلني أتراجع عن رأيي، فلقد كنت جاهلاً بمدى خطورة هذا الصنف، ولعلك أنت أيضًا أيها الوطني الشريف مازلت مُصِرًّا على رأيك بضرورة الحكم بالإعدام عند التعامل مع هذا الصنف بأي شكل من الأشكال.

- ...

- لماذا سَكَتَّ، هل أنت مازلت عند رأيك ولو كان المتهم هو ابنتك نفسها أم ماذا بالضبط؟

لم يَقْوَ حسين القاياتي على النطق بكلمة واحدة، وكأنما قد شُلَّ لسانه في حلقه، فيما اعتدلت المذيعة وقالت موجهة حديثها لضيفها وقد أحست بمدى الحرج الذي أوقع فيه محدثهما عبر الهاتف:

- دعنا لا نستبق الأحداث، ونحن نتحدث عن قضية مجردة فحسب.

ولكن فجأة انقطعت الصورة عن التلفاز والذي أطفئ بواسطة نعيم، فيما قال حسين فيما يشبه الغمغمة:

- إنهم يريدون مِنِّي أن ألف حبل المشنقة بيدي حول عنق ابنتي.

- عنق ابنتك نعم ولكن حياتك ذاتها هي هدفهم الأسمى، هيه، حسين، حذار من مثل هذه المداخلات الفارغة، وعلى الأقل في الوقت الراهن.

قالها نعيم وهو يرتمي في الكرسي الهزاز المجاور لنافذة الحجرة المطلة على النيل مباشرة، بينما ظل نعيم صامتًا لفترة طويلة، وإن بدا في ناظري صاحبه وهو يتأرجح في كرسيه كبندول الساعة المتحرك، والذي يقود خط سير أحداث الزمن إلى مستقبل مجهول بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وأخيرًا وأتت حسين الجرأة على النطق متسائلاً إلى نعيم الضو:

- أتصور أن هناك من يريد معاقبتي ودفع الأحداث دفعًا ليكون مصير ابنتي هو الشنق في خاتمة المطاف وليس حتى السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.

obeikan.com

ظل نعيم عازفًا عن الحديث لفترة طويلة، ثم أخرج من جيبه علبة السجائر وقداحة فضية لامعة وقال وهو يشعل طرف السيجارة التي وضعها في فتحة فمه الدقيقة:

- وعلام هذه النظرة المتشائمة يا أبا ماجد؟

- لأنه ليس ثمة هناك أي بادرة أمل تلوح في الأفق البعيد.

- ومَنْ قال؟

اعتدل حسين في رقدته، وانتبه بكل حواسه وجوارحه ونظر طويلاً إلى نعيم الذي استطرد قائلاً:

- إنها قضية حقًّا مغلقة بالضبة والمفتاح، أو قل هي من القضايا الخبيثة كما يسميها أهل المهنة، إلا أننيمازلت أراهن على شيء واحد فقط، المكيدة السياسية، وأن هناك من سيحاول مساومتك ولكن في الوقت المناسب لهم.

- ماذا تقصد بالضبط؟

- أن تكون متأهبًا لالتقاط طرف خيط هذه المساومة، أو قل لِمَ لا تلقي أنت أولاً بطرف الخيط هذا، ثم لنرى ما هي مطالبهم على وجه التحديد.

obeikan.com

هب حسين مذعورًا في محله، فلقد كان كلام نعيم خطيرًا للغاية، وأنه يطلب منه صراحة تقديم تنازلات مبدئية إذا طلبت منه، أو يتطوع هو من تلقاء نفسه بتقديم مثل هذه التنازلات الجسيمة، لِمَ لا إذا كان الثمن هو نجاة رقبة ابنته الحبيبة ذاتها، ابنته الشابة اليافعة الرومانسية الرقيقة كغصن الياسمين، والتي قُدِّر لها فيما يبدو أن تدفع ربما حياتهانفسها ثمنًا لصراعات والدها السياسية بغير ذنب، صراعات اعتاد حسين منذ شبابه الباكر على خوض غمارها ضد كل من يعتقد أنه يمس مصالح الوطن العليا، أو حتى مصالح الفئات الصغيرة والبائسة من الشعب الذييعد أغلب أفراده من المساكين الكادحين والبؤساء الفقراء إلى حد مخزٍ لا يصدقه عقل، فكيف به بعد كل هذا العمر الطويل من الزمن يخرج على من يحبهم، ويدافع عنهم باستماتة فيطلق عليهم الرصاص!لا لشيء إلا لأنه يريد أن ينقذ عنقًا واحدًا، فماذا عن بقية الأعناق التي علقتها الأقدار بمثله وبغيره من الوطنيين الشرفاء. وهل كُتِبَعليه بعد رحلة الكفاح الطويلة هذه أن يغض الطرف عن قضايا الفساد والرشوة والمحسوبية، وهل عليه من أجل ابنته أن يترك السوس ينخر في جسد وطنه حتى يفنيه، وأن يتوقف عن محاولاته الدءوبةباستصدار مزيد من القوانين الرادعة المتصدية لشريعة الغاب التي يحاول البعض فرضها على الوطن الطيب، والمتصدية كذلك لبعض رجال الأعمال الذين يحاولون

دفع دفة سفينة الوطن في اتجاه مصالحهم الشخصية وحدهم فحسب، وليس في سبيل المصلحة العامة، وأن يكون هو أول من يُكسر وهو من كان دائمًا في طليعة من كسروا كل أشكال الانتهازية والمنفعة والذاتية والأنانية، لقد ظل لقبه طويلاً على ألسنة شرفاء البلد: «الثورة التي تمشي على الأرض» فبِمَتراه سيواجههم وقد باتت ثورته جثة هامدة مسحوقة تحت الأرض، وهنالك نظرٌ طويلٌ إلى نعيم وقال بنبرة آسية ومفاجئة في آن واحد:

- مَنْ أنت؟

- ...

- نعيم تتوقع عرضًا من أحد ما، أم أن لديك بالفعل عرض ما لِيّ؟ تكلم تكلم بلا وجل.

ضحك نعيم طويلاً حتى استلقى على قفاه، وبعد فترة بدأ يستعيد توازنه ويردد عبارات الاعتذار لكون المناسبة الحزينة لا تسمح بمثل هذه الضحكة المجلجلة ثم قال:

- هي ذي إذن ثورة الشك، الشك في كل شيء حتى فيأقرب الناس إلينا.

- هيه، تصورت لوهلة ما أنك قد نسيت تاريخي الطويل.

obeikan.com

- وأنا أحسبك قد نسيت أيضًاأن صاحبك لم يطلب منك حتى في أحلك الظروف التخلّي عن مواقفك الثابتة قيد أنملة، وأنني سُجنت أكثر من مرة بسببك، بل تعرضت للقتل نفسه لأنني ألازم بصفة مستمرة مطلوب للموت مثلك، وكفى يا أخي القتل المعنوي الذي أتعرض له يوميًّا من الهانم زوجتك.

وهنالك ضحك حسين وبكى، وانساحت في نفسه ألوان زاهية وكابية، وشذرات أمل بارقة كالذهب اختلطت بذرات يئسٍ سوداء متشظية، وتمتم في سره قائلاً: « حقًّا، لِمَ لانفعل المستحيل من أجل من نحبهم، ولم لا آخذ كلام صاحبي على محمل الجد، ودعنا من الفلسفات الطوباوية والمثالية الخرقاء؛ لأنني لن أُصلِحَ الكون وحدي، ولا ينبغي أن يطلب مني أحد أن أصلحه، وليدافع الفقراء والبؤساء وسكان الدمن القذرة والخرائب والمناطق العشوائية عن حقوقهم بأنفسهم، من غير انتظار لعاجز مثليأن يدافع عنهم، ولتدخل المخدرات والجنس العفن واللحوم الفاسدة والأسمدة المسرطنة، والأدوية الباهظة الثمن إلى بلادنا، وليذهب كل شيء إلى الجحيم ولتعد ابنتي الحبيبة إلِيَّ «

●●●

(٥)

لم يتغير الحال في زنزانة الحبس الاحتياطي، بل ربما ازدادت الأمور سوءًا، وبخاصة بعد أن توافدت أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمقرءوة بكثافة منقطعة النظير من أجل إجراء الأحاديث مع المتهمة سما القاياتي والتي صارت أشهر من نار على علم، وربما كان سؤالهم المُلِحُّ لها يدور حول إصرار والدها السابق تحت قبة البرلمان المصري على إعدام كل من تُسَوِّلُ له نفسه التعامل بأي شكل من الأشكال مع هذا الصنف بالذات من المخدرات، فكانت تجيبهم من غير أن تتوقف وهي منقادة ومكبلة بالكلبشات الحديدية بين يدي حارسها إلى الزنزانة أو إلى مكتب التحقيقات:

- أوافق على كل ماقاله سيادة النائب، ولو كنت مذنبة بحق فإني أستأهل الموت بلا شك.

- تتكلمين وكأنك بريئة؟.

- أنا بريئة بالفعل.

- وماذا عن ضبطك متلبسة؟

- أقسم أنني لا أعرف شيئًا عن هذه المخدرات، والله وحده

obeikan.com

يشـهد علـى صـدق مـا أقولـه.

- هل تحتاجين إلى معجزة تنجيك من حبل المشنقة؟

كان هـذا هـو السـؤال الـذي ظـل يتكـرر كثيـرًا بإلحـاح عليهـا وفي داخـل نفسـها، وهـل مـا زال لديهـا أدنـى أمـل في النجـاة مـن حبـل المشـنقة؟ والحقيقـة أن الفتـاة لـم تجـد جوابًـا مباشـرًا علـى مثـل هـذا السـؤال؛ وإن كانـت تضمـر في نفسـها إجابـة أخـرى غيـر التـي يتوقعهـا البعـض، وربمـا الجميـع، غيـر أن هـذه الإجابـة ظلـت حبيسـة في سـريرتها، أمـا بخصـوص عقوبـة المـوت التـي في انتظارهـا علـى ذنـب لـم تقترفـه فلـم تكـن تعنيهـا في شـيء، فكثيـرًا مـا كانـت تقـول إنمـا تربطنـا بالحيـاة أسـباب، فـإذا انعدمـت هـذه الأسـباب انعدمـت رغبتنـا كلهـا في الحيـاة، فتُـرَى أي سـبب الآن يمكنـه أن يربطهـا مُجَدَّدًا بوثـاق الرغبـة في الحيـاة، اللهـم إلا رغبتهـا في ظهـور الحقيقـة، لا لشـيء إلا لكونهـا الحقيقـة المجـردة وأنهـا بريئـة بالفعـل، وليـس لأي سـبب آخـر، فحتـى الحيـاة نفسـها بـكل بهارجهـا وفتنهـا والمسـتقبل الواعـد الـذي كان ينتظرهـا وغيرهـا مـن الأشـياء لـم تـرقَ جميعهـا إلـى مسـتوى السـبب الـذي يمكنـه أن يعيـد إليهـا الرغبـة في الحيـاة، والبقـاء فيهـا، أمـا بخصـوص الأمـل فلقـد بقـي دائمًـا كبقعـة النـور المنسـربة مـن بعيـد، فلقـد كان هـذا هـو إحساسـها الدائـم وحتـى قبـل ظهـور هـذه الأزمـة، بـل ازدادت بقعـة النـور هـذه دنـوًّا منهـا

والتماعًا، ومع اشتداد الأزمة وازدياد موقفها حرجًا كانت تحس أكثر بأيدي الأمل الرقيقة كالطيف تمس أهداب عينيها المغلقتين وتفتحهما على صورته الضاوية، ولوهلة ما أحست أن هناك من سيظهر من وراء هذه الهالة البعيدة، إنه فارسها العملاق الذي كانت تراه كثيرًا في أحلامها، وأنه سوف يأتي يومًا ما فوق جواده الأشهب ليخلصها، ويحملها على جناح الريح إلى عالم آخر لا يعرف حياة الغش والخداع والكراهية، عالم أرضه الحب، وسماؤه القلوب المتلألئة بالمشاعر المرهفة الراقية، أما هواؤه فالعشق والهيام والأحضان الدافئة الحالمة التي تُخَدِّر الأحاسيس وتجعل الإنسان يطيرمحلقًا إلى عنان السماء بغير أجنحة.

أفاقت سما من شرودها على يدٍ تدسُّ شيئًا ما في جيب سروالها الجينز من الخلف، وبسرعة البرق التفتت سما إلى الوراء فوجدت مجموعة كبيرة من النسوة المنشغلات في جملة من الحوارات الجانبية، ولم تدرِ أيهنَّ وضعت ذلك الشيء في جيبها، وبسرعة انتحت جانبًا وهي تتحسس بيدها ذلك الشيء الكائن في جيب سروالها الخلفي والذي كان صغيرًا وسميكًا، وللمرة الثانية تَلَفَّتت حواليها وراحت تُخرج ذلك الشيء بحذر جم من جيبها، فوجدته مطواة قرن غزال صغيرة! ارتبكت، وتلفتت حواليها ملتاعة، واحتارت في أمر هذه المطواة وهل تلقي بها خلسة إلى

الأرض أم تبقيها لاستخدامها وقت اللزوم، وللدفاع عن نفسها إذا دعتها الحاجة إلى ذلك وبخاصة ضد أفعال الريسة وأعوانها والتي تصادف خروجها في هذا الصباح للمحاكمة، لم لا واحتمال عودتها للزنزانة كبير، وأنها في كل يوم تزداد معها عنفًا وإجرامًا، وأنه لابد من وسيلة ما تدافع بها عن نفسها لأن ما تحاول الريسة ومن معها فعله بها أمر لا يصدقه عقل، ولكنها انتبهت فجأة إلى خاطر ما برق في ذهنها وهي تعيد المطواة إلى مكانها في جيبها الخلفي، وأن الأمر قد يكون مكيدة جديدة ضدها، وأن من دست لها هذا الشيء القاتل في جيبها من المحتمل جدًّا أنها تدبر لشيء ما جد خطير، ولكنها عادت لتقول في نفسها بنبرة أكثر طمأنينة: « ولِمَ لا تكون واحدة من هؤلاء النسوة اللائي لا أعرف أكثرهن حق المعرفة قد تعاطفت معي ورق قلبها لحالي البائس، ربما «

كانت سما متعبة للغاية، فسارت مبتعدة قدر الإمكان عن السجينات وصخبهن، وعند زاوية الحائط الذي يصل إليه ضوء من بعيد خافتًاكئيبًاجلست الفتاة مفترشة الأرض الأسمنتية، وبعد هنيهة من الوقت رفعت ركبتيها لأعلى ثم ضمتهما بين ذراعيها، وألقت برأسها الذي كان يدور بمئات من الأسئلة والأحاسيس المتباينة على ذراعيها واللذين جعلتهما كوسادة، ثم ذهبت في نوبة من النوم العميق، نوم لم تنمه منذ أن وطأت قدماها أرض السجن،

وبعد مرور فترة ليست بالقصيرة من الزمن أفاقت فجرًا من نومها على صوت قطعة من الحجر الصغير كانت تتدحرج على الأرض في الطريق إليها بصفة شخصية، ثم في النهاية اصطدمت بإحدى قدميها اللتين كانت مازالت تتكئ عليهما بذراعيها ورأسها، ولكنها لم تبدِ أي رد فعل ظاهري وإن أوجفت خيفة في داخلها، وأظهرت قدرًا غير عادي من الحرص والحذر الشديدين، وواصلت ادَّعاء النوم وهي تبصر بعينيها شبه المغلقتين بعض ظلال النسوة اللائي كنَّ يتحركن نحوها كالأشباح،وهن يتهامسن سرًّا بشئ ما، حاولت سما أن تسمعهن ومعرفة ماذا يضمرن لها بالضبط ولكنها فشلت في ذلك، ولكن الشيء الوحيد الذي كانت قد تأكدت منه أن الريسة قد عادت إلى الحجز كما كانت تتوقع، وبعد فترة أَحَسَّت بمن تجلس القرفصاء قريبًا منها للغاية، ثم بحذر جم راحت تَمَدُّ يدها بزجاجة ما صغيرة وتدنيها من طاقتي أنفها، كان هذا ما أَحَسَّت به، بل رأته سما أيضًا من خلال أهداب عينيها شبه المغلقتين، وقَدَّرَت على الفور أن هناك محاولة لتخديرها ثم...

كان خاطرًا مزعجًا للغاية ذلك الذي جال في ذهن الفتاة آنذاك، وكان عليها أن تتصرف بسرعة البرق الخاطف وقبل أن يتسلل المخدر إليها وتفقد بعدها كل شيءمع فقدان وعيها، ومن فورها وبصورة فجائية دفعت بيد الزجاجة ذات الرائحة النفاذة،

فيما شدت بيدها الأخرى تلك المرأة الجالسة القرفصاء بالقرب منها من شعر رأسها، وبذات السرعة مَدَّت يدها إلى جيبها الخلفي وأخرجت المطواة الحادة وغرزتها في جانب عنق المرأة والتي كانت تضمها بعنف جم إلى صدرها، وصرخت قائلة بحدة متناهية وقد نفرت عروق الغضب في عنقها الأتلع في بعض النسوة اللائي كنَّ يحدقن بها من أكثر من زاوية:

- أي حركة منكن سوف تجعلني أذبح زميلتكن في الحال.

النسوة تَصَلَّبن في أماكنهن كتماثيل من الجرانيت، وإن زاغت أعينهن فيما بين بعضهن البعض وكأنما يتكلمن بلغة سرية لا يفهمها غيرهنَّ، وبسرعة صرخت فيهن سما أن يرجعن للوراء وأن يفسحن المكان ويلزمن جدران الحجزالذي خفتت إضاءته بشدة، وحتى تجبرهن على ذلك راحت تمرر طرف نصل المطواة الحام على رقبة المرأة التي في حوزتها، وتحدث حزًّا طوليًّا في عنقها، كانت المرأة تتأوه وقد أدمى عنقها النصل، ولكنها بالرغم من ذلك لم تبدِ مقاومة لذراع سما التي قبضت على عنقها مثل كماشة حديدية، بل امتثلت لها، وقامت معها واقفة على قدميها من سكات، كانت سما قد عقدت العزم على الذهاب إلى بوابة الحجز الحديدية ومناداة الحراس مستغيثة بأعلى صوت لها، ولأمر ما راحت تستطلع أثناء سيرها الحذر في اتجاه البوابة

في وجوه النسوة باحثة عن الريسة التي كانت قد اختفت تمامًا! وفجأة دَاخَلَهَا إحساس عجيب، فنظرت بسرعة في وجه المرأة التي تقبض عليها، فشهقت مذعورة وهي لا تصدق نفسها.

كانت الريسة هي من حاول منذ البداية تخدير سما بنفسها، والتي كانت آنذاك تنظر شذرًا لسما ولكنها كانت تطاوعها في كل أوامرها وحركاتها، فإن سارت يمينًا سارت، وإن توقفت عن السير توقفت هي الأخرى، فالريسة أَحَسَّت أن الفتاة عازمة على الدفاع عن شرفها حتى الموت، وأنها جادَّة ولن تتوانى عن فعل أي شيء ينجيها من مكيدتها هي والمجرمات التابعات لها كخاتم الأصبع، هنالك ازدردت سما ماء حلقها، وحاولت أن تظل متماسكة قدر الإمكان، فأي خطأ في حساباتها معناه كارثة جديدة في حقها، كارثة قد تكون أبشع من الموت نفسه، وفي النهاية أفلحت سما في بلوغ شراعة البوابة ذات القضبان الحديدية ومعها أسيرتها الريسة، ثم من فورها صرخت بصوت عالٍ هاتفة بحراس الزنزانة، لحظات وحضر الحراس بوجوههم الكالحة الجامدة كالحجر الصوان، وعلى غير المتوقع دفعت الريسة يد سما بعيدًا وجرت مسرعة إلى كبير الحراس واختبأت خلفهم وهي تقول بنبرة ادعائية، وهي تشير في الوقت ذاته إلى الحزّ الدامي في رقبتها من أثر انغراز نصل المطواة فيه:

- أغثني يا صول، المتوحشة الفاجرة تاجرة الصنف والمخدرات كانت تريد ذبحي.

ولكن انشقت الأرض فجأة عن إحدى السجينات وتدعى نعمات والتي قالت من غير مقدمات:

- لا تصدقها يا حضرة الصول، الريسة وزميلاتها كن ينوين الغدر، وإقامة حفلة شيطانية الليلة على شرف هذه الفتاة البائسة.

تكهرب الجو، واشتعل المكان بمعركة حامية الوطيس بين الريسة وصويحباتها من ناحية، وبين نعمات وأخريات من السجينات اللائي طفح بهن الكيل وكرهن الريسة وأفعالها الدنيئة من ناحية أخرى، وتملك سما إحساس ما جد عجيب والتي راحت تتوارى بعيدًا عن هذا العالم الكئيب الذي لا يمت بأدنى صلة لعالمها الرائق كماء الجدول الصافي الرقراق، كان الأمان هو ذلك الإحساس الذي تملكها آنذاك، وأن الدنيا مازالت بخير، وأن هناك من راحت تعاونها سرًّا، وأيقظتها في اللحظة المناسبة، ثم ها هي ذي نعمات تخوض معركة موت حامية الوطيس من أجلها، أو بالأحرى من أجل أن تسود العدالة والآدمية ولو بين قطعان من المجرمات والبغايا في عالم لا يختلف كثيرًا عن عالم الغاب والمخلب والناب.

●●●

obeikan.com

(٦)

كان خبر اعتزال المستشار حسين القاياتي العمل السياسي واستقالته من البرلمان بمثابة الطعنة النجلاء التي تلقتها الحياة السياسية الشريفة في البلد، فدائمًا ما يوجد محبون ومريدون للأوطان والذين يكونون على أتم استعداد لفداء أوطانهم بأرواحهم ودمائهم الزكية، بينما هناك البعض الآخر أوطانهم التي يستميتون من أجلها ويدهسون كل شيء جميل ونبيل في سبيلهم هي أنفسهم ذاتها، وأولئك وهؤلاء تدور بهم عجلة الحياة من خير إلى نكد، أو من شر وبلاء إلى رفاهية ورخاء، كان هذا هو فحوى ما قاله حسين القاياتي لجموع من عامة الشعب والذين تحلقوا من حوله بالقرب من البرلمان المصريفي شارع القصر العيني كي يثنونه عن الاستقالة، فكان يشير لهم أن اثبتوا من داخل سيارته التي يجلس بإعياء جم في مقعدها الخلفي وهو لا يفكر في شيء غير ابنته، والتي طال حبسها على ذمة التحقيق، وهنالك تبسم نعيم الذي كان يجلس بجوار حسين القاياتي وهو يقول وعيناه تدوران في محجريهما مثل كرة الروليت متفحصة في وجوه جموع الهاتفين:

- هذا المشهد أعظم رسالة يمكن أن ترسلها إلى خصومك، وأن شعبيتك على عكس ما كانوا يخططون بالمرة، قد زادت ولم تقل.

كانت عينا حسين المختفيتان آنذاك وراء النظارة الشمسية السوداء ترسلان قطرات من الدموع، كان حزينًا من أجل بلده، ومن أجل جموع البائسين هؤلاء، وربما كان يشعر بوخزات ألم في ضميره لكونه قد تخلَّى عن واجبه نحو وطنه، وأهله وكل أؤلئك الذين أحبوه وبنوا عليه آمالاً عريضة، وراوده الشعور بالأنانية المقيتة، وأنه قد اختار ابنته عندما خُيِّر بين أمرين كلاهما مُرّ، بين الواجب الوطني والشعبي وبين حياة ابنته، وتساءل في نفسه أولاً ثم إلى صاحبه بعد أن هدأت الأجواء وانطلقت السيارة بهما على الطريق الزراعيتنهبه نهبًا:

- تُرى هل حَسَّنت استقالتي اليوم من موقف ابنتي في القضية.

- أعتقد ذلك.

كان حسين يحاول جاهدًا مداراة دموعه بكل الطرق، وأشاح بوجهه إلى الناحية الأخرى حيث الطريق الزراعي الذي لم يعد زراعيًّابحق كما كان في السابق، ولكن ارتفاع صدره وانخفاضه ونهنهاته الرتيبة التي كانت تَنِدُّ عنه من آن لآخر نبهت صاحبه

إلى بكائه، فمدَّ نعيم الضو يده إلى ساقه وقال وهو يمسح عليها برفق:

- هَوِّن عليك يا صاحبي، لاتبكِ أرجوك، سما سوف تكون بخير بإذن اللّه.

- ومن قال لك أنني أبكي هذه المرة من أجلها.

هنالك شرد حسين طويلاً، وطَوَّح برأسه إلى مسند المقعد ثم استطرد قائلاً:

- ما بالنا بالجندي الذي يقف عند الثغور وقد ترك سلاحه وواجبه في أشد المحن التي تمر بوطنه الغالي، وراح يجفل هاربًا غير مبالٍ بعاقبة فعلته الشنعاء، أو بأولئك الذين يتربصون بمصائر الشعوب، ويريدون سرقة الأوطان وأسر خيرات العباد لأنفسهم، أنفسهم هم فقط وليس لأحد غيرهم، ثم ليذهب الجميع إلى الجحيم.

صمت حسين طويلاً ثم غمغم قائلاً وكأنما قد أصابته لوثة في عقله:

- لا فرق بيني وبينه، لا فرق بيني وبينه.

مـرت الأيـام ولـم يتحقـق المـراد، وأحـس نعيـم بالحـرج البالـغ أمام صديـق عمـره، فلم يتحسـن موقف الفتاة في القضيـة كما كان يتوقع، ولم يُبْدِ أي طرف من هنا أوهنـاك أية محاولـة تدلل على أن الأمـر كان محض مكيـدة سياسـية ليـس أكثـر، فبانـت العصبيـة البالغـة علـى غيـر المعتـاد في وجـه حسـين القاياتـي، وراح يطيـح بالأشـياء في سـبيله، وقـد أحَـسَّ أن العكـس هـو مـا تحقـق وليـس مـا كان يسـعى مـن أجـل تحقيقـه، فابنتـه ازداد موقفهـا في القضيـة مـن سـيئ إلـى أسـوأ، وباتـت المطالبـة بإعدامهـا شـنقًا تشـبه المطلـب الجماهيـري، وأُوِّلَـت استقالته مـن المجلـس بتفسـيرات وشـائعات عديـدة، وأنهـا قـد جـاءت بعـد شـعوره بالحـرج البالـغ مـن جريمـة ابنتـه الشـنعاء، وأنـه لـم يعـد يجـد مـا يمكنـه قولـه بعـد ذلـك أمـام حقيقـة محاولـة تسـميم أبنـاء الشـعب بمثـل هـذا الصنـف الخطيـر مـن المخـدرات الـذي جلبتـه ابنتـه مـن الخـارج، بل تَحَـوَّل الأمـر شـيئًا فشيئًاإلى محض نكتـة سياسـية سـخيفة وأنـه هـو نفسـه مـن نـواب الكيـف الشـهيرين، وأنـه الدَعِـيّ الأشَـرّ الـذي خدع الملاييـن من أبنـاء الشـعب بكلامـه المعسـول، وهـو يضمـر لـه كل شـر وسـوء، حتـى زوجتـه نفسـها انتهـزت الفرصـة وأطاحـت بنعيـم بعيـدًا عـن القضيـة وقصـر الخالـدي، ومكنـت لمحاميهـا سـمير زعفـران كـي يتابـع قضيـة ابنتهـا بنفسـه، وأضحـت في غدوهـا ورواحهـا تنحـي باللائمـة علـى زوجهـا، وأن طيشـه السياسـيوصراعاته الشـيطانية مـع الآخريـن هيـوراء كل المصائـب التـي حدثـت أو التـي يمكـن أن تحـدث لهـم مسـتقبلاً.

وكانت سما قد نقلت إلى زنزانة أخرى بعيدًا عن الريسة وعصابتها اللعينة، ولكن الوجوه التي تغيرت لم تغير واقع الحال السيئ بالضرورة، بل العكس كان هو الصحيح، فلقد كانت هناك نسوة متربصات كالحيوانات الدنيئةالمتلهفة على فريسة أية فريسة، ولهذا لم تتخلَّ الفتاة الرقيقة البتة عن مطواتها الحادة التي منحتها إياها نعمات على ما تعتقد، وما زاد الأمر سوءًا أن أمر إعدامها قد بات الجميع يتحدثون عنه كما لو كان شيئًا واقعًا، كما نزل خبر استقالة والدها على رأسها كالصاعقة المدوية، وأحست أنها قد جلبت من غير قصد لأهلها وبخاصة والدها الفضيحة والعار والتعاسة والحزن الشديد، وأنها قد أطلقت الرصاص بيديها على أحب الناس إلى قلبها، لِمَ لا ووالدها قد انتحر سياسيًّا بسبب جريمتها الشنعاء كما كانت الصحافة تكتب وتروج لذلك.بل سرت الشائعات على ألسنة القالة والتي نالت كثيرًا من سمعته وتاريخه الوطني المشرف، وأن قصر الخالدي قد فاحت منه روائح الفساد والفضيحة والعار، فاسودت الدنيا في عينيها، وضاقت في ناظريها طاقة الأمل التي كانت تتراءى لها من حين لآخر، فعن أي فارس وعن أي أمل يمكن أن يتحدث المرء وهو أسير لمثل هذا الواقع المرير، ولم تدرِ الفتاة بنفسها وقد راحت تستل المطواة خلسة من جيبها الخلفي تحت جنح ظلام حياتها، وظلت تنظر إلى نصلها الحاد الشفرة طويلاً، وهي تفكر في الإقدام على خطوة ما جد

خطيرة؛ ولكنها سوف تخلصها بلا ريب مما هي فيه من عذاب وألم شديدين، ولكن فجأة أظلم المكان تمامًا، وانشقت الأرض عن عملاق ضاوٍ وكأنه هالة من نور، وأمسك بيدها قبل أن تتكت المطواة في أمعائها، ثم تلاشى وراء سحب السماء الهائجة كموج البحر، وهنالك ألقت الفتاة بالمطواة أرضًا وهي تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكن عندما أفاقت وراحت تبحث عن مطواتها لم تجدها لها أثرًا، بل وجدتها قابعة في جيبها الخلفي كما هي، وأدركت حينها أنها كانت نائمة وتحلم، تحلم بالفارس الهمام الذي كانت تحلم به دائمًا منذ صغرها، فتراه أين هو الآن ليخلصها من تلك الحياة العصيبة، فراحت تدنو من النافذة المرشوقة قريبًا من سقف الزنزانة، وتطلعت بعينيها إلى الخارج من خلال قضبانها الحديدية، وجالت بعينيها في سحب السماء الداكنة وكأنما تبحث عن فارسها الذي تلاشى هناك، وشرعت تناديه في أعماق نفسها أن تعال يا فارسي، يا مخلصي، فلكم أحتاج إليك، فلست في حاجة إلى الحياة ، لأنني لو ملكت الحياة مجردة فلسوف أهبها لغيري من غير تفكير، وإنما حاجتي لحياة تكون أنت فيها، لأن حياة أنت فيها تعني البراءة والطُهر والعدل والحب والإيثار.

وفي الصباح الباكر وعلى غير توقع من أحد فوجئ حسين القاياتي بصاحبه نعيم الضو يقف فوق رأسه مباشرة وهو يصرخ متهللاً في وجهه:

- النيابة أفرجت عن سما.

هبَّ حسين من فراشه واقفًا كما لو كان ابن العشرين ربيعًا وهو لا يصدق نفسه، وقال وهو يعانق صاحبهكالمجنون الذي طار صوابه:

- إذن فقد صحت نظريتك أيها العبقري، واستقالتي أفادت أخيرًا.

وهنالك أطرق نعيم الضو طويلاً ولم ينبس بعدها ببنت شفة!

●●●

obeikan.com

(٧)

أفرجت النيابة عن سما القاياتي بصورة فجائية وغامضة ومن غير أي إبداء للأسباب، فسرت التكهنات والتخمينات على ألسنة العامة والإعلام سريان النار في الهشيم، ولم تقبل سما التي خرجت من الحجز محطمة بأيٍّ من هذه التفاسير اللهم إلا تفسير وحيد والذي كان يجول في بالها دومًا، فلقد كان خروجها من هذه الأزمة يحتاج إلى ما هو فوق المعجزة ذاتها، ومن ذا الذي يقدر على ذلك في زمن انتهت فيه المعجزات غير هذا الفارس العملاق الذي كان يتراءى لها دائمًا في هيئة النور الساطع، وقد امتطى صهوة جواده الجميل، وتصورت سما لوهلة وكلما راودها هذا الإحساس الشاعري أن جِنيًّا قد لبسها، وأنها كإنسية لم تعد طبيعية كما كانت من قبل، ولعل الجميع قد داهمهم مثل هذا الشعور المؤلم، وأن سما قد تغيرت إلى النقيض بزاوية ١٨٠درجة، وانقطعت عن عالمها وانزوت في حجرتها، ولم تعد هي الفتاة التي كانوا يعرفونها بالبِشّر والإقبال على الحياة والابتسام الذي لا يفارق وجهها أبدًا، حتى وجهها تبدل هو الآخر، وصار شاحبًا ونفرت عظامه، وجحظت منه العينان جحوظًا واضحًا، وتهوش

شعر رأسها بشكل فج وكأنها شجرة سنط تعرضت لإعصار مدمر، والوحيد الذي قبلت بالبقاء في أحضانه لفترات وجيزة ومن غير أن تفه بكلمة واحدة كان هو والدها، وكانت تكتفي فقط بالارتماء على كتفه ثم تنفجر في موجة عارمة من البكاء الحاد، وبعدها تجفل منزوية في أعماق عالمها البعيد، فأحس حسين بالألم من أجل ابنته، وزاد ألمه كلما قرعته نظرات عيني زوجته بولا الخالدي وهي توبخه وتنحي عليه باللائمة، وأنه من تسبب في كل هذه الكوارث التي حلت بابنتها الرقيقة، وربما لم تكن سما قريبة من أمها كبقية إخوتها، ولكن بولا أمها حاولت أن تدنيها منها في الآونة الأخيرة واتخاذها كذريعة تهاجم بها من خلالها زوجها وغريم عمرها حسين القاياتي، فبولا الخالدي وبما لها من شخصية أرستقراطية مسيطرة حاولت أن تهيمن بها على كل شيء منذ لحظة زواجها الأولى من حسين القاياتي، والذي لم يكن زواجها منه إلا زواج مصلحة ليس أكثر، فلقد كانت تمقته وتتأفف منه، كما كانت تعده رمزًا من رموز الشر والرجعية، وواحدًا من الفلاحين الأقحاح الذين سلبوا عائلتها الإقطاعية العريقة المجد والفخار منذ قيام ثورة يوليو، فعندما صودرت أكثر أملاك العائلة ووضعت بعضها الآخر تحت الحراسة استطاع حسين الذي بدأ حياته كمحامٍ وسياسينابه، وبماله من علاقات طيبة بمجلس الثورة أن يساعد عائلة الخالدي على البقاء فقط في قصر الزمالك من

غير التصرف فيه أو في محتوياته النفيسة، وبعد سنوات طوال لم تُرفع الحراسة عن القصر إلا بعد سداد مبلغ مليون جنيهٍ قيل أنها كانت مديونيات قديمة على عائلة الخالدي للحكومة، فدفعها حسين القاياتي من التركة التي ورثها عن عائلته الريفية العريقة التي تقطن في حوش عيسى بمحافظة البحيرة، بل لم يقبل أن يكتب اسمه على واجهة القصر بدلاً من اسم الخالدي باشا، وهو الرجل الشهير الذائع الصيت، ومن دفع المبلغ الكبير من جيبه الخاص لاسترداد مجد العائلة، وذلك احترامًا لمُلاَّكِه الأصليين ومشاعرهم. واكتفى عن طيب خاطر ببقائه فقط كضيف على العائلة مع زوجته بولا لا يتنقل كثيرًا اللهم إلى حجرة مكتبه أو إلى الحديقة، والحقيقة أن الرجل لم يراوده البتة إحساس الدونية أو الرغبة في الانتقام الطبقي، فكان يعامل زوجته برقة شديدة، ولم يقسُ عليها يومًا أو يجرح مشاعرها بكلمة أو بمجرد إشارة واحدة إلى المكانة العلية التي بلغها في مجتمعه مقارنة بالمكانة السفلى التي انحدرت إليها عائلة الخالدي، والتي أضحى مجدها أثرًا بعد عين، والتي كثيرًا كذلك ما لجأ إليه بعض أفرادها لقضاء حاجة ما من حوائجهم الحياتية، ولكن كل هذا لم يشفع له عند زوجته بولا، والتي كانت تعامله بصلف وكبرياء من برجها العاجي، وعلى ما بينهما من بنين وبنات، ولهذا أحس الرجل دائمًا بإحساس الضيف الغريب لا صاحب الدار المقيم، وتمادى

بـه هـذا الإحسـاس بالغربـة ليصـل إلـى أبنائـه ذاتهـم. وكان يشـعر دائمًـا بوجـود مسـافة هائلـة تفصـل بينـه وبينهـم، ولعـل زوجتـه بـولا الخالـدي هـي التـي خلقـت تلـك الفجـوة العميقـة بـين الأبنـاء وبـين أبيهـم، وهـي فجـوة كانـت تعتـرف بـولا صراحـة بوجودهـا، بـل كانـت تتفاخـر دومـا بأنهـا هيمـن زرعتهـا منـذ البدايـة،ودون أن يصيبهـا أي إحسـاس بالنـدم علـى خلـق مثـل هـذه الفجـوة بـين الأب وبـين أبنائـه؛ وذلـك لكونهـا فجـوة طبيعيـة يجـب أن تفصـل بـين الطبقـات وبـين بعضهـا البعـض، ولكـن السـؤال الملـح الـذي ظلـت بـولا رافضـة الإجابـة عليـه وتبـدي قـدرًا غيـر عـادي مـن العصبيـة والتحفـظ والضيـق حيـال كل مـن يسـألها إيـاه: وأيـن كانـت هـذه الفجـوة الطبيعيـة يـوم تزوجـت الفتـاة الأرسـتقراطية الشـقراء مـن هـذا القـروي الأسـمر السـاذج؟ والمـرة الوحيـدة التـي ضيـق عليهـا الخنـاق نظـرت طويـلاً إلـى زوجهـا حسـين القاياتـي ثـم أجابـت قائلـة: لقـد أكرهـت علـى ذلـك!

ولقـد نجحـت بـولا في سياسـة الفجـوة الأرسـتقراطية مـع جميـع أفـراد عائلتهـا وأبنائهـا أللهـم إلا مـع ابنتهـا سـما، والتـي كانـت تحـب والدهـا حبًّـا جمًّـا، واسـتعصت علـى كل محـاولات أمهـا الدءوبـة للفصـل بينهـا وبـين أبيهـا، بـل لـم تفلـح كذلـك سياسـتها في بنـاء الحواجـز والسـدود بـين الفتـاة وبـين مجتمعهـا وأناسـه الطيبـين؛ والذيـن كثيـرًا مـا طرقـوا بابهـا في كثيـر مـن الأوقـات لكـي تتوسـط

obeikan.com

لهم عند والدها الشهير؛ حتى يساعدهم في قضاء حاجة ما من حوائجهم الحياتية، بل كانت الفتاة تتطوع من تلقاء نفسها لتقديم يد العون لمن تراه محتاجًا أو مغلوبًا على أمره، وقد أبدت كل أشكال التواضع والبساطة، ولهذا لم تحب بولا ابنتها سما كبقية إخوتها، وكثيرًا ما كانت تقسو عليها وتنعتها بأبشع الأوصاف، حتى وهي في أكثر لحظات حياتها حرجًا وضيقًا، فدخلت عليها حجرة نومها ذات مرة كعاصفة جائحة وقالت لها من غير سابق إنذار بنبرة حازمة:

- مراد زوج أختك دينا أرسل دعوة لكلينا للسفر إلى لندن، سوف نمضي هناك فترة طويلة، والأرجح أننا قد لا نرجع ثانيةً، الحياة هنا أصبحت لا تطاق، وأنا أود أن أنقذ ما يمكن إنقاذه فيكِ، فكوني على أهبة الاستعداد.

كانت كلمات بولا قرارات نافذة لا تقبل المناقشة، فانخلع قلب الفتاة الرقيقة من بين أضلعها، وطافت بخيالها صورة والدها الذي زاد عليه مرضه، وأصبح كالطوف الشارد في بحر لاه لا شطآن له، ذلك الطوف المتهالك الذي أوشك أن يغرق في غيابة جب سحيق وهو يحمل على ظهره تاريخًا عريقًا حافلاً بالكفاح والنضال من أجل مصلحة الوطن والشعب، بل كفاح تخطى أثرة الذاتية الوطنية ليشمل كل بني الإنسان؛ أفتتركه هكذا بسهولة

وتمضي راحلة إلى الأبد وبغير رجعة؟وكذلك تذكرت كم تدين لمصر بالحب الشديد، وكم يتعلق قلبها بكل ذرة تراب على أرضها الطاهرة،وكم تعشق نيلها الفياض، وأناسها الطيبين الأبرار. صحيح أن هناك تغيرات اجتماعية مذهلة في سلبيتها قد حلَّت بالبلد وبطبيعته؛ ولكن من قال بالكي قبل الدواء، ومن قال بالبتر قبل العلاج، وكثيرًا ما راحت سما تردد على الأسماع خطب والدها الرنانة، وشعاراته الثورية المجلجلة والتي كان يطلقها في المظاهرات الصاخبة ويرج بها جنبات الميادين الفسيحة رجًّا مدمدمًا، فمن ذا لا يكون لمصر إذن وقد كانت رحمًا للجميع، وتاريخًا حافلاً حين لم يكن هناك تاريخ بعد، وأفبعد كل هذا العمر يهن عليها مفارقة الأهل والأحباب والوطن، ولكن أي وطن هذا الذي أهدرت فيه كرامتها وإنسانيتها، وطن ديست فيه كل معاني الشرف والضمير والأخلاق بأقذر النعال، وطن يبث في النفس كل المتناقضات، الحب، الكراهية، التفاؤل، اليأس، الأمان والخوف، الرغبة في الحياة والسعي إلى الخلاص منها في آنٍ واحد.

كان هذا هو ما شعرت به سما فور سماعها لقرارات أمها القطعية، قرارات كانت تعرف الفتاة مسبقًا أن فيها الكفاية لتقتل والدها كمدًا وحزنًا لفقدانه إياها، ولم يطل تفكير الفتاة في ماذا عساه سيكون موقف والدها، وتذكرت أن وطنها الذي

نُصبِتَت لها على أرضه مشانق الدنيا وهي بريئة طاهرة من كل إثم؛ هو ذاته الوطن الذي ظهر فيه فارس الخلاص الذي تخمن أن نجاتها قد جاءت على يديه، وأنها من المحال أن تكون منقادة وراء إحساس وهمي، وهنالك عاودها الحنين مُجَدَّدًا بإلحاح دام لمعرفة شخصية مخلصها الذي رفع عنها إصرها، ووضع عن عنقها الرسن، فوقفت طويلاً أمام المرآة وهي تمسح بيدها على عنقها المرمري الأتلع متمتمة في سويداء نفسها: « تراك أي فارس أنت، ولماذا تصر نفسي الخفية وإحساسي اللاشعوري على أنك أنت وحدك، ولا أحد غيرك هو من أعاد إليَّ نور الحياة، ووهبني قبلة البقاء، وطوق النجاة من العار والفضيحة وحبل المشنقة «

مضت الأيام تباعًا وحانت لحظة الفراق، تلك اللحظة القاسية التي كتب على الفتاة البائسة أن تعيش توابعها عمرها كله، فبين إغماضة عين وانتباهتها سوف تفارق ذلك الوجه المتغضن الباكي وربما إلى الأبد، وجه كانت تحب صاحبه من كل قلبها، إنه وجه والدها الطيب الحبيب إلى النفس والعين، والذي فقد فيما يبدو كل الأدوات التي يمكنه بها أن يرفض، وأن يواجه ويصطدم، وأن يملي قراراته ورغباته عندما يكون رافضًا لشيء ما، وبخاصة أن هذا الشيء الذي يرفضه في أعماقه بكل شدة هو رحيل ابنته بمحض قرار فردي اتخذته زوجته المتسلطة، والتي قالت له بنبرة

مقطضبة في السيارة التي كانت منطلقة بهم في طريقها إلى مطار القاهرة الدولي:

- يمكنك المجيء إلى لندن لرؤية سما إن شئت ذلك.

- ورؤيتك أنتِ أيضًا.

- هه.

كان حسين القاياتي يحس بمقدار الصدمة التي تعرضت لها ابنته سما، وأنها في مسيس الحاجة إلى الابتعاد عن المكان الذي تفجرت فيه أزمة عمرها؛ وأنها ربما مع مرور الأيام وتغيير الأجواء المحيطة بها قد تنسى ما أَلَمَّ بها من كوارث ونكبات، فلِمَ لا ينسى نفسه هو ورغبته العارمة في بقائها إلى جوراه على الأقل، وهو يلفظ أنفاس عمره الأخيرة وذلك من أجل مصلحة ابنته وحبيبة عمره، ولهذا آثر وداعها في صمت وقد أخفى عينيه الدامعتين تحت جدار نظارته الأسود السميك، في الوقت ذاته كانت تعلن فيه إذاعة المطار الداخلية عن قرب قيام الرحلة الجوية المتجهة إلى مطار هيثرو، فعانقت الفتاة والدها طويلاً وهي تبكي بلوعة شديدة ومرار، فيما كانت أصابع يد أمها تقبض على ذراعها بشدة كالكماشة وهي تسحبها في اتجاه صالة المغادرة هنالك افترقا، وانطلقت الفتاة عنوة مع أمها، وارتمى الأب في

أقرب مقعد قابله وقد أجهش بالبكاء المرير، ولكن فجأة حدث ما لم يكن يتوقعه أحد.

كان صوتًا عاليًا يأتي من بعيد يهتف باسمها مرارًا وتكرارًا، وفي كل مرة كانت الفتاة تحس بأن الصوت يقترب منها ممزوجًا بـذَفّ صوت الحذاء وهو يضرب في الأرض، فالتفتت سما إلى الوراء ونظرت في اتجاه مصدر الصوت الذي كانت تعرف صاحبه جيدًا، ولم تمنعها دموع عينيها من الابتسام وهي تجري معانقة بحرارة نعيم الضو ومعاتبة إياه برقة أيضًا:

- ما كنت لأسامحك أبدًا لو لم تأتِ لوداعي.

فابتسم نعيم لاهثًا وهو يُخرج من جيب سترته الداخلي هاتفه المحمول ويقول في الوقت ذاته بنبرة من فتح عكا:

- وأنا ما كنت لأسامح نفسي أبدًا لو لم آتِ لوداعك ومعي هذه المفاجأة.

بانت معالم الدهشة والفضول على وجه الفتاة وهي تنظر في اتجاه الهاتف المحمول الخاص بنعيم الضو، ولم تنتبه إلى أمها التي عادت إليها وهي تنهرها بحدة، ولا إلى أبيها الذي وقف ملتصقًا بها لمشاهدة شاشة الهاتف المحمول وهو يعرض فيلمًا قصيرًا لعدة مناظر أُخِذَت للطريق العام بواسطة شخص

obeikan.com

غيـر محتـرف، أو مجـرب لـم يألـف بعـد التصويـر بكاميـرا الهاتـف المحمـول، وفجـأة اهتـزت الصـورة بشـدة وكأنمـا ارتعشـت اليـد الممسكة بالهاتـف الـذي يلتقـط هـذه الصـور، كانـت هنـاك جملـة مـن الأصـوات المتداخلـة لأغنيـة شـعبية صادحـة وثرثـرات غيـر واضحـة لبعض الأشخاص والممزوجة بصوت محرك السيارة الدائر، والتي كانـت منبعثـة كلهـا مـن خـلال الفيلـم والـذي يوحـي بـأن المصـور قـد اهتـزت يـده بشـدة علـى أثـر مطـب وقعـت فيـه عجـلات سـيارة أجرة، وفي تلك الأثناء بانت الدهشة أكثر فأكثر على مُحَيَّا الفتاة، ونظـرت إلـى عمهـا نعيـم وكأنهـا تسـأله عـن أيـة قيمـة تحملهـا تلـك اللقطـات الفارغة.وحتـى يصرُّ علـى أن تراهـا بنفسـها وطائرتهـا علـى وشـك الإقـلاع بعـد قليـل، بـل لـم تتـوان بـولا عـن النظـر شـذرًا إلـى نعيـم وهـي توشـك أن تتهمـه كعادتهـا بالمراهقـة والخـرق والخـرف، ولكنـه أشـار إليهـا بسـرعة كـي تنظـر إلـى شاشـة الهاتـف وليـس إليـه، ثـم نظـر مـن تحـت لتحـت لصاحبـه وكأنـه يطمئنـه أن كل شـيء سـوف يصيـر عمـا قريـب علـى مـا يـرام، كانـت اليـد التـي تصـور فيلـم الهاتـف المحمـول قـد انحرفـت بشـكل غيـر متعمـد مـع نـزول السـيارة في مطـب آخـر؛ وظهـرت فجـأة مـن بعيـد علـى شاشـة المحمول وعلى غير المتوقع سيارة سما لحظة اقترابها من الفندق، كانـت سـيارة سـما قـد اسـتدارت قليـلاً لتكـن في اتجـاه نقطـة تفتيـش الفنـدق مباشـرة،والتي بـدت علـى مسـافة عـدة أمتـار قليلـة، وفي

obeikan.com

تلك الأثناء وفي اللحظة ذاتها التي انفتحت فيها حقيبة السيارة الخلفية للتفتيش ظهرت دراجة نارية يركبها رجلان، وبعد قليل انحرفت الدراجة النارية بشكل قصري حتى اقتربت تمامًا من مؤخرة سيارة سما، وفجأة ألقى الشخص الذي يقود الدراجة بلفافة كبيرة في حقيبة السيارة من الخلف، فشهقت سما شهقة مسموعة وهي لا تصدق نفسها، وهنالك اهتزت الصورة بشدة، واختفت وبدت مظلمة لثوانٍ معدودات، كانت السيارة كما يبدو من سياق الفيلم المعروض قد توقفت قليلاً وصوت ما يلعن ويسب الحكومة التي لم تصلح الطرقات جيدًا. ثم ظهأنني ليسالطريق مرة أخرى وبدت في الوقت ذاته من بعيد جدًّا سما خلسة في الخلفية، وقد هاجمها كلب الحراسة الشرس، كانت سما أثناء ذلك منهارة تمامًا وتَندُّ عنها إشارات، تذكرتها سما جيدًا وهي تدقق النظر في شاشة الهاتف، لقد كانت تصرخ لحظتها أنها بريئة، وتشير إلى اللفافة وهي تنفي أن تكون لها أية علاقة أو علم بهذه اللفافة، شردت سما قليلاً فيما مرَّ بها من أحداث عصيبة لا تحتمل، ثم انتبهت إلى الرجلين اللذين يركبان على ظهر الدراجة النارية التي انطلقت كالصاروخ بغية الهروب من موقع الأحداث، غير أن إشارة من الرجل الذي يركب في المؤخرة بسبابته في اتجاه الكاميرا التي تصور مباشرة، جعلت قائد الدراجة النارية يندفع كالمجنون في نفس الاتجاه الذي أشار إليه صاحبه والذي لم يكن

أحدٌ غير سعدون، أما قائد الدراجة النارية سيد أبلسه فقد راح يشير إشارات التهديد والوعيد بعصبية غير طبيعية في اتجاه ذلك المصور المجهول غير المحترف والذي التقط تلك الصور الخطيرة بعفوية ومن غير قصد بالمرة كما يبدو.

نظر الثلاثة في اتجاه نعيم نظرة عدم الفهم المشحونة بمئات من الأسئلة الحائرة، فقال نعيم وهو يشير إلى مكبر الصوت الذي كان يتردد من خلاله آنذاك صوت المذيعة وهي تعلن ربما للمرة الأخيرة عن اقتراب موعد إقلاع طائرة لندن:

- يبدو أنني ليس لدي الوقت الكافي حتى أقص عليكم كل شيء بالتفصيل.

ثم نظر في اتجاه سما تحديدًا وقال مستطردًا:

- هذا الفيلم كان سببًا في براءتك، ويعلم الله ماذا لاقيت من مشقة وأهوال حتى حصلت عليه.

ثم نظر في اتجاه حسين الذي كان قد تخلَّى عن نظارته السوداء واستعوض عنها بالنظارة الطبية الشفافة وقال:

- في الواقع أن الأمر تكتنفه الكثير من الأسرار، والأسرار الخطيرة جدًّا، والتي عرفت أقل القليل منها للتو.

- دعنا من كل هذا الآن يا عماه، وقل لِيّ بسرعة من صَوَّر هذا الفيلم، وما هي حكايته بالضبط؟

قالتها سما باندفاع هستيري وقد أحست بأصابع أمها وهي تنغرز في تلك اللحظة في لحم ذراعها؛ لكي تجبرها على المُضي معها قُدُمًا للرحيل، كانت بولا غير مبالية بأي شيء وقتها اللهم إلا تنفيذ إرادتها هي وحسب، ولم تكن لتعيقها أية قوة على ظهر الأرض عن بلوغ غايتها، ولذلك سحبت ابنتها عنوة من ذراعها، ولم تفلتها من قبضة يدها القوية إلا لحظة إجلاسها في مقعدها الوثير بجوار نافذة الطائرة التي كانت قد أوشكت على الإقلاع بالفعل.

●●●

(٨)

كانت ليلة حافلة ومضنية والتي آثرت الأقدار ألا تنهيها من غير مزيد من المفاجآت الساخنة، وذلك بعد أن جلس الأستاذ نعيم الضو وراء مكتبه الفاخر منهمكًا في إعداد إحدى مذكراته القانونية، وبين الحين والآخر كانت تأتيه مكالمة هاتفية من هنا أو هناك؛ غير أن واحدة من هذه المكالمات جعلته يعتدل في جلسته ويلقي بكل شيء وراء ظهره تمامًا، وظل يصغي لفترة طويلة وقد لاحت على معالم وجهه شدة الانتباه والدهشة في آنٍ واحد، واكتفى بسؤال واحد فقط لمحدثه على الطرف الآخر، وقبل أن تنتهي المكالمة:

- هذه المعلومات يقينية أم مجرد تخمين.

فجاء الصوت على الطرف الآخر قاطعًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى:

- عين اليقين يا باشا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

obeikan.com

قالها نعيم بلوعة ومرار بالغين، ولكنه انتبه فجأة إلى من كانت تقف قبالة مكتبه مباشرة وقد بدت هزيلة تمامًا، ومهوشة شعر الرأس، وغارت عيناها بشدة في تقاسيم وجهها الأبيض الشاحب، والتي قالت وهي تلهث وتأخذ أنفاسها بصعوبة بالغة:

- كان من المستحيل أن أسافر قبل أن أعرف كل شيء عن البطل الذي أدين له بكل حياتي.

- أليس من المبكر إطلاق مثل هذا الحكم العظيم.

قالها نعيم وهو يغادر مقعد مكتبه في اتجاهها وقد لاحت على شفتيه ابتسامة ما ثم قال بنبرة الواثق وغير متخلٍّ عن ذات الابتسامة العريضة للغاية في الوقت نفسه:

- لقدر راهنت حسين القاياتي على بقائك في مصر، بل أزعم أنني كنت أخطط لذلك بالفعل ورَغْمًا عن أنف الهانم أمك.

أطرقت سما لفترة وجيزة، لم تبتسم ولكنها تنهدت قائلة:

- لقد غافلت أمي وتركت الطائرة قبل أن تقلع بلحظات.

ثم سكتت هنيهة وبعدها تكلمت كثيرًا جدًّا وهي تقول بوتيرة من أرادت أن تتأكد من صدق إحساس ما بداخلها، أو ربما بدت كمن تحاول أن تنتصر لهذا الإحساس الخفي:

- أنت بذلت كل ما في وسعك من جهد لتمنحني الحقيقة التي يمكنها أن تجيب عن مئات الأسئلة التي كانت تزلزلني من الداخل، كيف حدث ما حدث لِيّ؟ ولماذا، وبأي ذنب؟ ثم كيف وبعد أن نُفِّذَ عَلَيَّ حكم الإعدام النفسي والمعنوي يطلقون سراحي هكذا بمنتهى السهولة! ومن غير كلمة أسف واحدة على من تحطمت ودمرت كل معالم ومعاني الحياة في ناظريها، في رأيي لم تكن المكيدة السياسية لوالدي هي السبب في إيداعي السجن، كما لم تكن هي أيضًا السبب في الإفراج عني، هكذا كان إحساسي منذ البداية، والذي ما زال يخبرني بأن هناك من لاقى الأمرين من أجل أن تظهر الحقيقة كاملة، وربما يكون قد ضحى بحياته كلها من أجل إنسانة لا يعرفها، وبعد هذا ألا تريدني أن أنعته بالبطل!

تنهد نعيم تنهيدة حارة وهو يصيخ السمع إلى الفتاة، ثم جذبها برفق من مرفقها إلى ركن ما في حجرة مكتبه، ثم أجلسها في أحد مقاعد الطقم الجلدي الأسود الكابوتينيه، ثم قال بنبرة رصينة وهو يغوص في مقعده وينظر مباشرة في عينيها السوداوين اللامعتين واللتين انعكست عليهما ارتعاشة أهدابها الطويلة:

- التسجيلات التي حصلنا عليها من نظام المراقبة الخارجي للفندق لم تفدنا في الواقع بشيء ذي بال، ولهذا سار بنا

oberikan.com

فكرنا في اتجاه واحد، المكيدة السياسية، وهو بالمناسبة تفكير منطقي ولم يزل بعد قائمًا؛ لأنه على الأقل كان هناك من أراد استغلال ما حدث لكِ كورقة ضغط ضد مستقبل والدك السياسي، وإخراجه إلى الأبد من اللعبة، ولكن الفيلم الذي حصلت عليه اليوم فقط بِحِيَلِي الخاصة، لكونه الفيلم الممنوع من العرض بأمر مِنْ؟ أو لصالح أو ضد مَنْ؟ الله أعلم، فكلها ألغاز في ألغاز!فقد أكَّدَ لي وبما لا يدع مجالاً للشك، أن هناك ومن غير ساالشنق،ب من ألقى خلسة بلفافة المخدرات في حقيبة سيارتك، وربما كان ذلك بسبب الخوف المفاجئ من وجود كمين للشرطة بالقرب من الفندق، وأنه لولا ظهور هذا الفيلم الذي صوره بمحض الصدفة شخص ما مجهول وغير محترف؛ لكان الموت شنقًا لا قَدَّرَ الله هو مصيرك المحتوم، ولصارت أيضًا كل تصوراتي واهية وتقوم على غير أساس من الصحة.

أمسكت سما بجيدها وقد انتابتها رعدة لحظية عند سماعها كلمة الشنق ، ثم تماسكت وقالت وهي في غاية الشرود:

- من المؤكد أنه ليس إنسانًا عاديًّا، بل مَلَكًا من عالم آخر غير عالمنا هذا.

تطلع نعيم طويلاً إلى الفتاة الغارقة في بحر من الشرود، كان يراها متسرعة في أحكامها؛ ولكنه ربما التمس لها في نفسه الكثير من الأعذار؛ بسبب ما مرَّت به من معاناة وأهوال مفزعة خلال الأسابيع القليلة الماضية، وكفاها ما لحق بها وبأسرتها من عار وفضيحة، غير الأيام العصيبة التي عاشتها في الحجز، بل لم تكن الأيام التي عاشتها بعد خروجها بريئة من ظلمات السجون بالشيء الهين، فلم تكن ليال ملاح وأفراح البتة؛ ولكنها كانت ليال حزينة ومُقبضة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكفى صدمة الفتاة فيما جرت به المقادير من نكبات حلَّت بها وبأهلها ووالدها بصفة خاصة، والذي نال القسط الأوفر من الكارثة، فقد انهارت صحته تبعًا لانهيار تاريخه النضالي العريق مع نزول مطارق التدمير والتشهير به على أم رأسه من كل ناحية. وقليلون هم من وقفوا وقفة شرف خالدة مع الرجل، وطالبوا باحترام تاريخه العريق، وأن ما يتعرض له ليس غير حملة ممنهجة يقودها زبانية جهنم ضد كل من تُسَوِّل له نفسه الدفاع عن البؤساء والفقراء في هذا الوطن العزيز. ولكن هيهات أن ترد شيئًا من الاعتبار للرجل مثل هذه الأصوات الشريفة التي نطقت؛ أو حتى تلك الأصوات الكثيرة الشريفة التي عزفت عن البوح بما تؤمن به في أعماقها؛ وأن رجلاً نقيًّا عفيفًا مثل حسين القاياتي لا يستحق هذه الهجمة الشيطانية الشرسة التي يتعرض لها، وآثرت الصمت والبقاء في

مقاعد النظارة أمام خشبة مسرح الحياة والتي تعرض عليها تلكم الملهاة السوداء، ولم تعبأ كثيرًا بالرجل الذي يموت شيئًا فشيئًا في صمت.

كان هذا هو ما جال في خاطر نمشلاً امرأةة تطلعه إلى ابنة صاحبه البائسة، والتي التفتت إليه بعد هنيهة قائلة بنبرة رجاء بادية:

- أريد أن أقابل هذا الشخص.
- أي شخص؟
- الذي أعاد الحياة إلى قلبي، أرجوك.
- تتكلمين عن هذا الشخص وكأنه رجل!، أليس هناك احتمال أن يكون مثلاً امرأة.
- رجلا كان أم امرأة، الأمر سيان عندي، وإن كنت متأكدة أنه الرجل الذي ليس له أي نظير بين كل رجال عصره وزمانه.

ضحك نعيم الضو طويلاً وقال وهو يضع سيجارة أشعلها للتو بعود ثقاب في زاوية شفتيه:

- صدق والدك بالفعل عندما وصفك بالرومانسية التي تسبح بطوف هادئ في بحر ناري مضطرب، سما يا بنتي العزيزة،

obeikan.com

انتبهي أنتِ تتحدثين عن فتى أحلام لا عن مجرد فاعل خير.

- هو بالفعل فتى أحلامي.

غيمت سحابة من الدخان الكثيف المنبعث من السيجارة على عيني نعيم والذي نظر إلى الفتاة وكأنما لم يرها في حياته من قبل على مثل هذه الصورة الحالمة، فقال مُجَارِيًا إياها في خواطرها الدفينة ليس أكثر وبنبرة تبعث على الحيطة والحذر في الوقت ذاته:

- قد يكون عجوزًا وشعره شائب جعد مثل شعر عمك نعيم، أو قبيحًا، أو أعرجًا، أو قد لا يكون أي شيء على الإطلاق مما تتصوريه...

عندئذ قاطعته قائلة:

- ليكن ما يكون، المهم أن تأخذني إليه بأي ثمن.

سادت على المكان فترة صمت طالت كثيرًا، لحظات بانت خلالها في تقاسيم وجه نعيم المتغضنة كل معالم الحيرة والتردد، بعدها قال وهو ينظر مباشرة في عيني المستقبل المتربص وكأنما قد حسم جدلاً عارمًا كان يدور رحاه في داخله:

- في الواقع أنا لا أعرف أي شيء عن هذا الشخص سواء كان رجلاً أم امرأة، وربما يمكنني مساعدتك في المستقبل القريب، وعندما تتوفر لديَّ بعض المعلومات عنه، فالقضية عويصة والنيابة لأمر ما خفي لم تفصح بعد عن كل التفاصيل؛ الهامة منها على الأقل، ففي مثل هذه القضايا الكبرى تتورط بعض الأسماء المعروفة في البلد، ومن هنا ينشأ الغموض.

لم تقتنع سما بهذا الكلام المرسل، وأحست أن صاحب والدها يُسِرُّ كثيرًا من الحقيقة في نفسه، وأنه لا يَصْدُقُهَا القول لأمر ما في نفس ابن يعقوب، ومضت منصرفة من المكان وهي تنظر إليه نظرة من يقول في طوية نفسه: « لا عليك، قلبي سيرشدني إليه «

●●●

obeikan.com

(٩)

مضت سما هائمة على وجهها تضرب في الأرض على غير هدى، كانت لا تعرفه ولكنها كانت تراه بعيني قلبها، وتحس بأنفاسه الدافئة تعبق المكان من حولها، وطيفه الشفيف كالدخان الوردي يشغل الحيز الضيق بين إهابها الناصع الذي يلف بدنها الرقيق، وبين روحها التي تلهج بذكره ليل نهار، وتناديه وموسيقى شاعرية تصدح في آفاق خلدية: أن تعال أيها الحبيب المفدي، فعما قريب سوف يرون أسطورتنا السرمدية، تعال يا رضاء النفس؛ فالنفس إذا لم ترضَ صارت عصية حتى على من يملكها، تعال فلدى فتاتك العاشقة الكثير الذي تقدمه إليك، ولكن تُرى ما السبيل إليك وقد أخفتك الأقدار عني؟، تعال فلكم أحتاج إليك يا مخلصي، أحتاج إلى ذراعيك القويتين لكي تحتويني بهما، تواريني في صدرك المُشْعِر المفتول من غثاثات الناس وسخافات أفكارهم الملوثة، فما أكثر الذين صَدَّقوا أن النور يبث ظلامًا، وأن النسيم العليل يحرق بطراوته الأبدان اللطيفة، وأن الملائكة ممكن أن تكذب وتخادع وتناور، وأن البراءة هي الأثم، والطهر هو الرجس. لقد قالها بعض العميان رأيناها وهي ترافق هذا الثرى،

وتصانع ذاك الشهير، وتقدم التنازلات تلو التنازلات لكونها فتاة وصولية ساقطة لا تتورع عن الإقدام على عمل أي شيء مخزٍ في الوجود؛ بغية منها في الوصول إلى المال والشهرة، فمن ذا يا ترى تلك الفتاة التي رآها هؤلاء العميان! عميان القلوب والضمائر لا البصائر.إنها ولاشك فتاة أخرى غير التي عرفها العالم كله بالرقة والأدب ورهافة الإحساس، فعن من يتكلمون؟ ولماذا يوجد دائمًا من يلقم صواني أذنيه لثرثرة وهمهمات الشياطين، إنه عالم جد بغيض، ولهذا أنت يا حبيبي محال أن تكون من هذا العالم، بل أحسبك لست مخلوقًا أرضيًّا مثلنا فهكذا حدثتني نفسي ولم تزل، وهنالك توقف حديث النفس، وأشاحت الفتاة بوجهها إلى الناحية الأخرى حيث كانت مياه النيل تنساب على مهل أمام عينيها الشاردتين ، وراحت تصغي لحديث آخر دار على النقيض في داخلها أيضًا، فلم تعجل الأمور والأحكام، والجري في اتجاه قد يكون هو السراب سواءً بسواء، ولماذا صبغ كل هذه الأوصاف الرائعة على شخص قد يكون وجوده هو الوهم بعينه، ثم من قال أن فارس الأحلام الذي أحلم به منذ صباي هو ذلك الشخص المجهول الذي التقط صور براءتي وطهارتي ونقاوة نفسي من كل رجس وذنب، أفيقي أيتها الفتاة الحالمة فقد تكونين واهمة، لا لا بل لم يخدعني إحساسي من قبل حتى يخدعن اليوم، ربما ولكن أليس من الفطنة أن نسمتع إلى صوت أحاسيسنا الداخلية بأذنين

لا أذن واحدة، أذن تُصَدِّق وأخرى تُكَذِّب والحكم في النهاية للعقل وليس للعاطفة وحدها .وفي تلك الأثناء لم تحتمل سما أن تصغي أكثر من ذلك لنفسها التي تعارض نفسها، فراحت توصد بحدة كل أبواب التشكيك في مخلصها حتى ولو كانت تلك الوساوس منبعثة من أعماقها هي وليس من أي مكان آخر، فمن أجله هربت من أمها القاسية، ومن أجله عادت، بل من أجله أيضًا سوف تبدأ رحلتها الطويلة في البحث عنه، والاهتداء إليه؛ ثم ماذا بعد ذلك وبعد أن تقف أمامه وجهًا لوجه؟ كانت هي ذاتها لا تدري ماذا ستفعل لحظتها بالضبط!ولكن لم يكن هذا هو ما يدور في خلدها بإلحاح آنذاك، بل كان أكثر ما يلح على خاطرها في تلك اللحظة هو كيفية الوصول إلى هذا الشخص الموعود.

كان عرفان غانم وكيل النيابة الذي اشتهر مؤخرًا من خلال تحقيقه المطول مع سما القاياتي منهمكًا في احتساء فنجان القهوة، وهو يقلب في كتاب ما أمامه على سطح مكتبه الكائن في سراي النيابة، لحظات وطرق باب مكتبه بواسطة أحد رجال الأمن، والذي أخبره بأن هناك من تريد مقابلته، فَرَحَّب عرفان على الفور بمقابلتها، وقام من وراء مكتبه الفخيم وقد شرع يحكم شد سترته على جسده الضخم، وما أن رآها مقبلة نحوه حتى مَدَّ يده إليها بكل ترحاب، ثم أخذها جانبًا وأجلسها في ركن

الاستقبال وجعل يديم إليها النظر طويلاً، فيما كانت هي مختفية وراء نظارتها السوداء الكبيرة، وفي الوقت ذاته ظلت تديم إليه هي الأخرى أيضًا النظر، فتململ عرفان في جلسته وهو ينظر في ساعة يده الذهبية وكأنما يحثها على الدخول في الموضوع مباشرة، لحظتها فاهت سما القاياتي قائلة من غير مقدمات:

- النيابة أفرجت عني فجأة، ومن حَقِّي أن أعرف حيثيات هذا القرار الذي تحفظتم عليه ولا أدري لماذا!

- تحريات النيابة أثبتت براءتك، وهذا كل ما في الأمر.

قال عرفان ذلك مبتسمًا وهو يرجع بظهره إلى الوراء ويحل زرار سترته العلوي بشكل لا شعوري، ولكن سما خلعت نظارتها وقالت بنبرة هجومية:

- سيادة المحقق، لابُدَّ أن تصدقني القول، أنتم قد توصلتم إلى الحقيقة والتي أقنعت النيابة يقينًا ببراءة فتاة ضبطت متلبسة، وفي حيازتها صنف خطير من المخدرات...

للمرة الثالثة وربما الرابعة نظر عرفان بشكل عفوي إلى عقارب ساعته وقال مقاطعًا إياها:

- آنسة سما إلاَمَ ترمين بالضبط، معذرة فلديَّ معاينة بعد قليل.

- لن آخذ من وقتك الكثير، ولكن أظن أنه من حق فتاة لُوِّثَت سمعتها وسمعة أهلها العريقة بهذا الشكل المذري أن تعرف لماذا تحفظت النيابة على السر الذي كان سببًا في براءتها.

انتبه عرفان للغاية، وراح يداعب أرنبة أنفه بطرف إبهامه وينظر في هاتفه المحمول بصورة عصبية، وفكره يعتمل بسرعة قصوى ولا يتوانى عن التوقف لحظة واحدة، ولكن الفتاة لم تمهله فرصة لإنهاء المقابلة بأي شكل من الأشكال واستطردت قائلة بصورة مفاجئة:

- هناك فيديو سلمه للنيابة شخص ما مجهول، هذا الفيديو هو الذي كشف لكم عن براءتي، وأعتقد أنه قد كُشِفَ لكم أيضًا عن هُوِيَّة العصابة التي ألقت خلسة بالمخدرات في حقيبة سيارتي الخلفية لحظة اقترابي من نقطة تفتيش الفندق.

أزعجت هذه المعلومات عرفان غانم للغاية، ولكنه لم يجد بُدًّا من القول بشكل مباشر للفتاة الثائرة والمتحفزة له في داخلها أيما تحفز:

- كيف تسربت إليكِ مثل هذه المعلومات السرية؟أتصور أن والدك ربما يكون قد استخدم نفوذه من أجل...

فقاطعته سما قبل أن يسترسل في حديثه قائلة:

obeikan.com

- ليس لوالدي أية علاقة بالموضوع، وكفى ما هو فيه الآن.

- معذرة، لقد علمت بمرضه الشديد من الصحافة.

- أنتم منحتوني البراءة حقًّا ولكن ما زالت أعين الناس تحاصرني بالاتهام أينما كنت، هذا الفيديو يجب إشهاره، أو أنكم تتسترون على المجرم الحقيقـ...

هنالك قاطعها عرفان قائلاً بحدة:

- احترسي لكلامك.

ثم سكت هنيهة، نظر خلالها مليًّا إلى سما، بعدها قال بنبرة أكثر رقة وكأنما قد رق قلبه لحالها البئيس:

- آنسة سما، أعرف يقينًا أنكِ قد ظلمتي منذ البداية، ولكن النيابة أمضت سيف العدالة حين لم يكن هناك أي مفر من إمضائه، نحن وظيفتنا الأولى في الحياة هي العدل كما تعلمين.

- وأظن أنه من العدل والإنصاف أيضًا أن يُشَهَّر بالمجرم الحقيقي الذي أظنكم تعرفونه جيدًا، وعلى الأقل كرد اعتبار لإنسانة بريئة سجنت لأسابيع طويلة مع المجرمات والساقطات وهي مظلومة.

- حذارِ يا آنستي من الاسترسال في مثل هذا الحديث أكثر من ذلك، أنا الآن أكلمك بشكل وِدِّي وليس بصفتي النيابة، وإلا كنت وضعتكِ في الحجز فوراً بتهمة التعريض بالنيابة، وكأخ أكبر أقول لكِ اطمئني فالنيابة لا تتستر على أحد أو أي كائن من كان؛ كل ما في الأمر أن القضية برمتها ما زالت بعد في طور التحقيق والبحث، وثقي أنه في الوقت المناسب سيتم الإفصاح عن كل شيء، وعرض هذا الفيديو على الرأي العام والذي تم تسريبه إليكِ من الملفات السرية للقضية بأية كيفية لست أدري.

كانت عينا سما قد اغرورقت بالدموع وقالت بعد أن مضت فترة من الوجوم:

- معذرة مرة أخرى سيادة المحقق على ضياع وقتك، فلم آتِ إلى سراي النيابة في الحقيقة إلا لشيء واحد فقط.

وقف عرفان بقامته الطويلة الفارعة وقد راح يعدل هندامه ويتأهب لمغادرة المكان، وبالتبعية وقفت سما وهي تتأهب كذلك للرد على نظرة عينيه المستفهمة عن هذا الشيء الوحيد الذي دعاها إلى المجيء إلى مكتبه في النيابة على هذا النحو المفاجئ، وفي الحقيقة لقد بدت مترددة لفترة، ولكنها في خاتمة المطاف قالت متشجعة:

- الشخص الذي منح العدالة صك الحقيقة، وأعاد إليَّ كرامتي وهيبتي، أتصور أن أقل ما يمكنني أن أقدمه إليه هو كلمة شكر واحدة على إنقاذه حياتي، أرجوك أريد أن أشكره بنفسي وأُقَبِّلُ يديه وقدميه أيضًا، فَهَلاَّ ساعدتني على ذلك، ولن أنسى لك أبدًا ما حييت هذا الجميل.

ضحك عرفان ضحكة وقورة، ثم قال قبل أن يشير لها أنه قد أنهى المقابلة:

- في مقدورك أن تصلي إليه بذات الطرق الخاصة التي أوصلتكِ إلى فيلم الفيديو السري.

ثم سار عدة خطوات في اتجاه باب الخروج من حجرة المكتب، ولكنه توقف مستديرًا ناحيتها قائلاً بإشارة من سبابته ملأى بآيات من التحذير والوعيد:

- كان من الممكن أن أقبض عليك بتهمة حيازة هذا الفيلم السري الذي لم تصرح النيابة بعد بتداوله، أنتِ فتاة طيبة القلب وجريحة الفؤاد وهو ما قدرته فيكِ بعين الإنسانية لا بعين محقق النيابة المسئول، وليظل أمر هذا الفيلم سرًّا بيننا وإلا ...

obeikan.com

هـزت الفتـاة رأسـها علامـة فهـم مغـزى حديـث عرفـان غـانم والـذي تركهـا ومضـى منصرفًـا إلـى حـال سـبيله، فيمـا ظلـت هـي سـاهمة في محلهـا لفتـرة طويلة،وقـد أدركـت أن اندفاعهـا الطائـش هـذا كان سـيصل بهـا إلـى السـجن مـرة أخـرى؛ وليـس إلـى ذلـك الشـخص المجهـول الـذي آلـت علـى نفسـها ألا تعـود إلـى بيتهـا وحياتهـا الطبيعيـة قبـل أن تهتـدي إليـه ، وتُمَلِّـي عينيهـا طويـلاً منـه وربمـا إلـى الأبـد.

●●●

obeikan.com

(١٠)

مـدَّ عرفـان غـانم سـاقه الطويلـة للأمـام وهـو يذفـر بضيـق، وتململ كثيـرًا في جلسته في المقعد الخشبي المتهالـك، وقد راح يطلق شـعاع نـور عينيـه الثاقبتـين إلـى خـارج نافـذة المستشـفى الحكومـي البسـيط، وقـد تمايلـت عليهـا أوراق الشـجر والتـي بدت واقفـة في الخـارج مثـل الأشـباح، كان الوقـت ليـلاً ولكـن سـادت في المستشـفى حالـة مـن الصخـب غيـر العـادي، مـع مجـيء جمـوع مـن المصابـين إثـر انقـلاب سـيارة ميكروبـاص بركابهـا بالقـرب مـن أحـد الأهوسـة المنتشـرة في إحدى قـرى القليوبيـة، وفجـأة وقعـت عينـا عرفـان علـى شـيء مـا شَـدَّ نظـره للغايـة، فقـام مـن مقعـده داخـل غـرف أحـد المرضـى، وراح يشـق الزحـام بقامتـه الفارعـة وهـو يحـاول اللحـاق بإحـدى الممرضـات التـي تَصَـوَّر أنهـا تشـبه إنسـانة مـا قـد رآهـا مـن قبـل، فهتـف بهـا وحـاول أن يدركهـا، ولكنهـا اسـتدارت ماضيـة في اتجاه عكسـي، وكان كلمـا أفسـح عرفـان في خطـاه بغيـة اللحـاق بهـا أسـرعت الممرضـة في خطاهـا هـي أيضـًا، وكان هـذا مـن دواعـي فضـول عرفان الزائـد عـن الحـد كـي يدركهـا بـأي ثمـن، ولكـن الزحـام الشـديد وقـف حائـلاً بينـه وبـين هـذه الفتـاة والتـي اختفـت تمامـًا عـن عينيـه. فـدقَّ

عرفـان جبينـه بقبضـة يـده ليـس فقـط لضيقـه مـن فقدانهـا، وإنمـا لمحاولـة تذكـر صاحبـة هـذا الوجـه وأيـن رآهـا مـن قبـل، وعندمـا عـاد إلـى منزلـه فكـر أن يعـود مـرة أخـرى إلـى المستشـفى ليتقصـى خبـر هـذه الفتـاة، ويبحـث في سـرِّ جفولهـا الغريـب منـه علـى هـذا النحـو المثيـر، ولكنـه تذكـر القضيـة التـي بـين يديـه، وأنهـا الأكثـر حاجـة إلـى اهتمامـه وفـك طلاسـمها بـدلاً مـن الجـري وراء ممرضـة تشـبه إلـى حـد مـا فتـاة يعرفهـا، ونسـي عرفـان أمـر تلـك الممرضـة التـي فـرت منـه أو توهـم هـو أنهـا كذلـك، وعـاود التفكيـر في تلـك القضيـة التـي بـين يديـه، والتـي يلـح الـرأي العـام بشـدة بشـأنها، فارتمـى بطولـه الفـارغ في الفـراش وقـد جافـاه النـوم طويـلاً حتـى وقـت متأخـر مـن الليـل، ورأسـه مسـرحًا مضطربًـا لمـا مـر بـه مـن أحـداث كانـت؛ أو التـي توقعهـا أن تكـون في المسـتقبل المنظـور.

في تلـك الأثنـاء كان عسـكري الحراسـة جالسًـا أمـام إحـدى حجـرات المستشـفى وهـو شـبه نائـم، ولكنـه انتبـه فجـأة مـع اقتـراب إحـدى ممرضـات الـدور مـن بـاب الحجـرة التـي يحرسـها، ثـم ولجـت داخلـة مـن غيـر اسـتئذان، فلحـق بهـا مـن فـوره معترضًـا إياهـا:

- ماذا حدث؟

- موعد المتابعة يا شاويش.

obeikan.com

- لا بأس، ولكن كان يجدر بك الاستئذان قبل الدخول هكذا كالمدفع الغشيم.

- آسفة يا باش شاويش.

وقفت الممرضة قبالته مباشرة وقلبها يدقُّ دقًّا مدمدمًا بين أضلع صدرها، كانت رأسه غائصة في وسادة الفراش، وأنفاسه مرتفعة للغاية، وكانت ملامح وجهه الأسمر وقسماته غير المتناسقة تدل على كون صاحبها كان غائبًا عن الوعي أكثر من كونه نائمًا، كما بدت المحاليل معلقة بالقرب من ذراعه الطويلة المعروقة، فيما اقتربت قدماه من حافة السرير تقريبًا؛ فقد كان طويلاً كما يبدو وشديد النحول، اقتربت منه أكثر فأكثر وقلبها يكاد يفط من حلقومها، وقد ثبتت عينيها عليه تمامًا، وراحت تجيلهما بأسًى شديدٍ في مواضع الجروح والحروق المنتشرة في كل جسده تقريبًا، وظلت ترنو إليه لفترة طويلة، وأخيرًا تجاسرت على مد يدها الناصعة البياض إلى يده السمراء المتدلية من فوق صدره وأخذت تُمَلِّسُ عليها برفق شديد، وفجأة رنَّ جرس هاتفها المحمول الذي تضعه في جيب سترة التمريض التي ترتديها، فأصابها الجزع الشديد، وهبت واقفة لترى من يطلبها في مثل هذا الوقت المتأخر، وحين حملقت في شاشة الهاتف وجدتها نمرة غريبة وغير مسجلة باسم معين، وفي الحال رفضت المكالمة وأغلقت الهاتف تمامًا.

-     كنت أعرف أنني سأجدك هنا.

استدارت الفتاة بسرعة على كعبي قدميها هلعة ففوجئت به يقف وراءها مباشرة بقامته العملاقة، وهو يهزُّ هاتفه المحمول في يده، وينظر إليها شذرًا، وعلى الفور فهمت أن محقق النيابة عرفان غانم هو من طلبها منذ قليل، وأن سرها قد افتضح تمامًا ولم يعد لها حيلة في المقاومة، فوقفت مطرقة قبالته وهي تكاد تنفجر في البكاء، وأخيرًا قال عرفان وهو يتجه بالقرب من جسد المريض المسجي في الفراش كجثة هامدة:

-     حربي عبد السلام الطحان، هو من كنتِ تبحثين عنه بالفعل يا سيادة مفتشة المباحث الجنائية.

فتنفست الصعداء وهي تتمتم باسمه وتضع يدها على قلبها، ذلك القلب الرقيق الذي صدقها الوعد وقادها إلى المكان الصحيح والرجل المناسب، ولكنها لم تتفوهْ بكلمة واحدة، كما لم تندهش من وصفه إياها بمفتشة المباحث لكونها قد قامت بالفعل بعمل رجال المباحث والتفتيش السري، فمنذ أن كانت سما القاياتي في زيارتها الأخيرة لمكتب عرفان بك في سراي النيابة لم تذق للنوم طعمًا، ولم يهدأ لها بال، فلقد التقطت منه بذكاء تُحسد عليه طرف خيط القضية؛ والتي فهمت أنه هو وليس أي شخص آخر من يتابعها ويحقق فيها بنفسه، فراحت وعلى عكس المفترض

obeikan.com

تراقبه سرًّا، وتفتش عن أخباره وأخبار المعاينات السرية التي كان يقوم بها من آن لآخر، وحين وصل ذات مرة إلى هذه المستشفى العمومي الكائنة في إحدى القرى الكبرى بمحافظة القليوبية؛ لم تكن في حاجة وقتها لأية معلومات إضافية عن السبب وراء مجيء عرفان غانم إلى هذا المكان؛ وذلك لأن قلبها خفق بشدة وأعطاها إشارات متلاحقة، وأنها قد وجدت ضالتها المنشودة في هذا المكان المُقبض البغيض، والذي لم تجد له حيلة كي تدخله وتتحرك فيه بحرية على هذا النحو إلا وهي متنكرة ترتدي الزي الخاص بممرضاته، ولا ريب أن هناك من أعانها على مثل هذا الاحتيال البريء النية، ثم قبض بطبيعة الحال الثمن باهظًا.

- منذ ساعات لمحتكِ من بعيد بين الزحام، لم يكن وجهكِ الذي انكشف لي جزءٌ صغيرٌ منه غريبًا عليَّ، فأنا أعرفكِ جيدًا، ولكنكِ كنتِ تخفين وجهك بطريقة أثارت شكوكي، وشكوكي هذه وليس معرفتي لكِ هي التي جعلتني أطاردك على هذا النحو، وحين عدت إلى منزلي قادني إلى هنا مرة ثانية إحساسي وليس أي شيء آخر، وكنت أودُّ ألا تكوني أنتِ؛ حتى لا تقعي بنفسك تحت طائلة المساءلة القانونية.

- أتصور أن هذا الإنسان قد ضحى بحياته من أجلي فليكن إذن ما يكون.

قالتها سما بانفعال جم وقد بدت عازمة على بلوغ أي مدى يقربها من غايتها، فقال عرفان وكأنما أحس بما تضمره الفتاة في نيتها:

- آنسة سما، أتصور أنكِ تتجاوزين كل حدود المعقول بوجودك هنا، القضية جد خطيرة كما يبدو، وبقاؤك هنا قد يفسد لنا كل شيء.

- بقائي هنا أمر لا مفر منه، مع الإنسان الذي وقف إلى جانبي وهو لا يعرفني في الوقت الذي تخلَّى فيه العالم كله عني.

- كفى حماقة، حربي حياته قد تكون في خطر داهم الآن.

- وأنا تَسَلَّلتُ إلى هنا بمنتهى السهولة، حفنة من الجنيهات ليس أكثر، وهذا يجعلني أصر أكثر على البقاء بجواره حتى يسترد عافيته.

أخرج عرفان علبة السجائر من جيبه، ثم راح يشعل سيجارة ويدخنها بعصبية مفرطة، وهو يتفرس في وجه سما التي كانت تديم النظر لحظتها إلى حربي ذي الثلاثين ربيعًا على أقصى تقدير، وربما كانت تخالج عرفان لحظتها الرغبة في إلقاء القبض على سما لكونها تعطل سير إجراءات العدالة، وتعوقه عن العمل الذي يتطلب الحيطة والسرية التامة، ولكنه راح يمسك عنها فلتة

obeikan.com

من فلتات أعصابه والتي كانت كافية لإعادتها لغياهب السجون مرة أخرى، وآثر أن يمهلها فرصة أخرى لكونه يضمر شيئًا ما من التعاطف معها، وأنها ربما بل من المؤكد أنها قد تعرضت لظلم فادح، وهذا الظلم دفعها لخوض غمار مثل هذه المراهقة النفسية الفريدة في نوعها، والتي ملأت عليها جوانحها يوم أحست بأن الجميع يديرون لها ظهورهم، بل يشاركون في طعنها بأحد النصال وأكثرها إيلامًا، ولهذا راحت تبحث في أعماقها عن هذا الفارس المخلص، وتوهمت أنه بالضرورة هذا الشاب الراقد بين الحياة وبين الموت والذي تجرأ وتحدى أعتى عصابات الإجرام وقام بتسليم الفيلم الذي يبرئ ساحتها ويدين المجرم الحقيقي. وأنه لا ريب قد لاقى في سبيل هذه التضحية العظيمة الضرب والإهانة وربما وصل الأمر إلى محاولة قتله والتخلص منه نهائيًّا جزاءً وفاقًا لما فعله، لِمَ لا فربما يكون تفسيرها في محله، أو قريبًا من الحقيقة، أو قد يكون غير ذلك بالمرة، فمن يدري بِمَ ستفرج عنه الأيام المقبلة من أسرار حين يعود إلى الفتى رشده، ويقف على رجليه، ويمكن أخذ أقواله التي طال انتظارها، كان هذا هو ما دار في خلد عرفان غانم، والذي أفاق من شروده بعض فترة من التفكير، وقد قرر أن يكون صارمًا مع الفتاة إلى حد بعيد ولكن من غير أن يمسها بسوء، ولذا قال بنبرة تهديد فارغة من محتواها وإن لم تبح قسمات وجهه بذلك مطلقًا:

- آنسة سما، لا تدعيني اتخذ الإجراءات القانونية ضدك في الحال، وجودك هنا سوف يورطك مرة أخرى في القضية من جديد، والريسة في انتظارك على أحرٍّ من الجمر على أية حال.

انتفضت سما في داخلها عند ذكر الريسة اللعينة، وقد طاف بها شبح السجن والليالي الرهيبة المقبضة التي أمضتها وراء قضبانه الحديدية، وبسرعة طفقت تمسح وجه عرفان الصارم بنظرة فاحصة وكأنها تتبين مدى صدق تهديده ووعيده لها، ولقد كان وجه الرجل يشي بالجدية التامة، وإن انبعثت من كلتي عينيه نظرة غامضة كشفرة مستعصية على الترجمة، فهزت رأسها علامة القبول بالأمر الواقع، ولكنها لم تنس قبل أن تمضي مغادرة المكان برمته أن تلقي بنظرة وداع طويلة إلى ذلك الوجه الأسمر الذي حسبته قد نُحِتَ من صخر الخلود الأبدي.

●●●

(١١)

كان حسين القايتي الراقد في فراش المرض مندهشًا للغاية من سلوك ابنته سما في الآونة الأخيرة، وكثرة تغيبها عن المنزل لفترات طويلة، وحتى أوقات متأخرة من الليل، ولكنه لم يشأ أن يضغط عليها، وكان يقول في نفسه كفاها ما لاقته من عناء وضغوط تفتت الصخر، وكلما تحدثت إليه زوجته بولا الخالدي من لندن لاذ بالصمت والصبر، وقد راحت تكيل له الاتهامات بشكل جزافي، وأنه من لَوَّثَ فكر ابنتها منذ زمن طويل ثم ها هو في خاتمة المطاف يحرضها على الهروب من أمها وتركها وحدها في الطائرة التي أقلعت إلى لندن من غير أن تكون معها على متنها،وكان من بين ما قررته الأم بصورة قاسية للغاية أنها لن تعود إلى مصر مرة أخرى اللهم إلا لحضور جنازة حسين القاياتي. ولعل الرجل الذي وخط الشيب شعر رأسه وغطى الأسى كل معالم وجهه كان قادرًا على أن يذود عن نفسه وأن يرد الصاع صاعين، أو على أقل تقدير يخبرها بأنَّ العلم يبقى لله وحده في المسائل الغيبية ومَنْ سيموت قبل مَنْ، وربما الأقدار تضطره هو في يوم من الأيام للطيران إلى السفارة المصرية في

لندن لتسلم جثمانها هي وعلى عكس ما تتصوره تمامًا، ولكن الرجل هزَّ رأسه كمن يهش ذبابة عن وجهه بعد أن أزعجه مثل هذا الخاطر العابر، فهو لم يتمنَّ لأعدى أعدائه الموت في أحرج لحظات حياته حتى يتمناه اليوم لزوجته وأم أولاده وبناته، واكتفى بالاعتذار لها عن مواصلة المكالمة لشدة مرضه، لم يغلق الهاتف في وجهها وقد تجاوزت كل حدود اللياقة والأدب معه؛ ولكن وضعه جانبًا، ثم راح يعتصر بيدٍ مرتعشة المنطقة التي يقبع فيها قلبه الهامد، وبدا وكأنما قد عاودته الأزمة التي كانت تأتيه من آن لآخر.

في تلك الأثناء كانت سما واقفة قبالة نعيم الضو مباشرة في مكتبه وهي تريه الصورة التي التقطتها لحربي في فراشه بالمستشفى، وهي تقول بنبرة حماسية لا نظير لها:

- حربي عبد السلام الطحان، أتصور أنك تعرفه جيدًا، وأنك قد عرفت عنه الكثير من المعلومات وعن ملابسات القضية، وما حدث منه وله قبل وبعد تسليم فيديو براءتي للنيابة، تكلم لأنك تعرف الكثير أليس كذلك؟

فنظر إليها نعيم بدهشة بالغة، والتي قالت بنبرة رجاء هادئة هذه المرة:

obeikan.com

- أرجوك يا عماه، لا تخفِ عني شيئًا، أرجوك.

كانت سما تبدو منهارة تمامًا، وبخاصة مع تبدد حلمها، فعندما لم يطاوعها قلبها على البقاء أسيرة في حجرة نومها بالمنزل، قررت معاودة زيارة حربي حيث يرقد في المستشفى، وذهبت متخفية هذه المرة في زي فتاة منتقبة، وهي تعلم علم اليقين أن عرفان غانم وبعد ملاحقتها له سوف يضفي على حربي الشاهد الوحيد في القضية مزيدًا من الحراسة، وأن رؤيتها لهذا الشاب قد باتت مهمة في غاية الاستحالة، ولكن لِمَ لا ترح فؤادها وتذهب في محاولة أخرى وربما قد تنجح، وحتى لو فشلت فلِمَ لا تصبح هذه الكرة كرات تلو كرات وكأنها سلسلة أمواج متلاحقة من المحاولات التيلا تهدأ حتى تُحطم صخرة الواقع، ولكنها عندما ذهبت إلى هناك فوجئت بما لم تتوقعه البتة، فلم تجد طاقم الحراسة الذي كان يقف في صدر الباب، بل وجدت باب الحجرة مفتوحًا على مصراعيه أمام كل من يريد الدخول، وهنالك لم تجد فتاها الموعود في الفراش وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته. وسرعان ما ساورها الشك بأن عرفان غانم قد نقل حربي الطحان لحجرة أخرى وربما لمكان آخر، فجن جنونها وضاقت أنفاسها عليها، وارتعدت فرائصها وقد شعرت أنه لم يعد في إمكانها رؤية حربي مرة أخرى وربما إلى الأبد، وحين تجاسرت وسألت عنه فوجئت

بأنها قد جلبت لنفسها الكثير من المتاعب، فقد حاولت بعض المرضات مماطلتها وأخذ بياناتها بصورة غير مباشرة؛ بل حاولت إحداهن إماطة اللثام الأسود الذي تخفي به وجهها جانبًا، ففهمت سما من فورها أنهم يدبرون لأمر ما، ولقد صدق حدسها، فحين التفتت بغتة إلى الوراء فوجئت ببعض رجال الشرطة قادمين من بعيد في اتجاهها بسرعة قصوى، ثم ما لبثوا يطاردونها بعد أن دفعت الفتيات من سبيلها بقوة وطرحت بعضهن أرضًا، ثم أطلقت ساقيها للريح في اتجاه سيارتها التي كانت تخفيها في مكان ما بين آجام النخيل. ولم تدرِ بنفسها إلا وقد تخلَّت عن ملابسها التي تتخفى بها، وتمضي بسيارتها كالصاروخ إلى منطقة باب اللوق حيث مكتب صديق والدها نعيم الضو المحامي.

كان نعيم لحظتها في غاية الحيرة، فقد كانت لديه بعض المعلومات حقًّا ولكن خشيته على سما هي التي جعلته يحجم عن البوح بأية معلومة إضافية يعرفها عن ملابسات تلك القضية، وحسبه كما تصور أنه قد أراح فؤادها بعرضه عليها تلك الوثيقة السرية المسربة إليه بفعل فاعل، بل علم بخبر محاولة قتل الشاب الذي سَلَّمَ تلك الوثيقة أو الفيلم للشرطة وأنه يرقد في مكان ما في غيبوبة طويلة، ولكن أين وما هي آخر أخباره، فلم يكن هذا في نطاق معلوماته، بل عندما أرته سما صورة حربيالطحان فقد كان

يرى صورة الشخص صاحب الوثيقة الفيلمية لأول مرة في حياته، وأدرك أن الفتاة قد قطعت شوطًا طويلاً في كشف غموض قضيتها والتي لم يستطع هو نفسه بلوغها، ولكن ها هي ذيالآن تتصور أن لديه من المعلومات ما يمكنه أن يمدها بها ويشفي بها غليلها، ولكن هيهات أن تصدقه أو تصدق أحدًا غير قناعاتها وأوهامها الشخصية، وهنالك نظر إليها وهو في غاية العجب من أمرها وقال:

- سما يا بنيتي العزيزة، أخبريني أولاً فمع فرضية أن هذا الشخص المدعو حربي الطحان الذي سلم هذا الفيلم للسلطات، وأن هذا الفيلم قد مس من قريب أو بعيد بعض الشخصيات ذات الثقل في مجتمعنا، أو لنقل أنه مس واحدة من العصابات الكبرى الضالعة فيجلب وترويج المخدرات فنال منهم ما ناله من عقاب رهيب كاد يودي بحياته، هو نعم مواطن شريف، أي فعل ما فعله ليس من أجلكِ أنتِ بل لكونه شريف ويملك ضميرًا حيًّا، فلماذا إذن تنصبين كل هذه الهالة المبهرة البراقة من حوله، وتضفين عليه كل مظاهر الخصوصية والقدسية مع أنه من المؤكد أنه لم يقصدك لشخصك؟

- هو حقًّا كما تقول يا عم نعيم بطل بالفطرة، وأن ما فعله هو الأمر الطبيعي بالنسبة لشخصيته، ولكن في حالتي أنا

فهو قد فعل ما فعله ليس لكل ما تصورته في نفسك؛ بل من أجلي أنا، أنا وحدي فحسب وبدافع من قوى خفية.

قالت عبارتها الأخيرة مغمغمة وقد غاصت في بحر لا قرار له، بل راحت تجيب نعيم بذات الشرود عندما قال لها:

- أخشى أن تكوني واهمة؟

- إنه هو قلبي لا يكذبني، فهو من كان يأتيني في المنام ويشد من أزري، لم أرَ وجهه حقًّا فلقد كان مثل حلقة من النور التي تغشي العينين بسنا ضوئه الباهر، ولكنه هو من غير ريب، فكيف أكون واهمة بعد كل ذلك.

لحظة ذاك رن هاتف نعيم الضو المحمول، وفي التو راح يجيب الطالب باهتمام، وأصغى قليلاً، ثم أعاد الهاتف إلى سطح مكتبه، ونظر لسما قليلاً، والتي كانت تستحلفه بعينيها حينذاك أن ينطق إن كان هناك جديداً قد بلغه، ثم قال:

- عرفان غانم اعتذر عن القضية.

- ...!

●●●

(١٢)

- من أجلك أنتِ!

رنت سما إليه طويلاً بعينيها اللامعتين مثل لؤلؤتين سوداوين اللون، فيما استطرد عرفان قائلاً وهو ينهض من وراء مكتبه في اتجاهها بقامته الشامخة،ليس في هيئة محقق النيابة الجاد الشديد وإنما في صورة أخرى لم تألفها منه الفتاة من قبل:

- وجودك في القضية شكل عائقًا رهيبًا في سبيلي منذ البداية، وفي الحقيقة لقد فكرت كثيرًا في الاعتذار عن التحقيق في هذه القضية ولكنني حاولت أن أكون موضوعيًّا إلى أقصى درجة ممكنة؛ فعملي هنا معياره العقل وليس القلب أو العاطفة، ولهذا كنت أتقمص شخصية وكيل النيابة الذي لا يرى ولا يسمع ولا يسعى لشيء غير الحقيقة، وحينما كنت أعود إلى المنزل كنت ألعن الحظ الذي جعلني أقف مثل هذا الموقف السخيف، ومع مَنْ!

قالها وقد التمعت عبرة في عينيه، ولم يقو هنيهة على مواصلة الحديث، وبانت عليه الحيرة الممزوجة بالارتباك الخفي، ولكنه آثر أن يظل وكيل النيابة الرجل القويالجامد الصلب كالحديد وإن

طوى بين جوانحه قلب عصفور رقيق، وقال مردفًا وهو يبتسم ويجاهد فيإخفاء الصراع العنيف الذي يدور في داخله:

- بالمناسبة تلك القضية جعلتني من المشاهير والذين لا تبرحهم الأضواء لحظة واحدة، واعتذاري عنها زاد من شهرتي بغير قصد، وفي الوقت نفسه وضعني في موقف بالغ الحرج أمام رؤسائي، ولكن لا يهم، لا يهم أن يكون العالم كله غير متفهم لحقيقة أنفسنا، الشيء الهام في الأمر أن نكون نحن على دراية تامة بأنفسنا وبما نريده لأنفسنا.

كانت سما في تلك الأثناء واجمة في محلها، ولا تدري علام يدور ويلف هذا الشاب العملاق البهي الطلعة كنجوم السينما، أو أنها فهمت مغزى الكثير مما يقوله عرفان؛ ولكنها آثرت ألا تفهم وهي المستقطبة القلب والمشاعر، والمشدودة بكل حواسها وجوارحها إلى هناك حيث يقبع حبها الحقيقي في عالم آخر مع من لا تدري عنه أي شيء!

ظل عرفان يتحدث كثيرًا ولكنه في خاتمة المطاف عقد العزم على أن يقتحم هذا القلب الساكن، والذي لم يدق من أجله دقة واحدة، فاقترب من سما، وهو ينظر من عليائه في عينيها النجلاوين؛ وقال لها بنبرة قد تخلت كثيرًا عن طريقة اللف والدوران حول القشور ودخل مباشرة في لب الموضوع:

- لقد فكرت وقتها ليس فقط في الاعتذار عن هذه القضية، فلقد كان الاعتذار هو محض قرار مؤجل وأمر مفروغ منه، وإنما فكرت أيضًا في الاستقالة من النيابة وارتداء عباءة المحاماة من أجلكِ ومن أجل الدفاع عن الذي هو أعظم من الحقيقة نفسها، إنه الحب.

تطلعت سما طويلاً إلى عرفان والتي لم تتوقع أن تصدر منه مثل هذه الكلمات الرقيقة المفاجئة، وبدت كأنما تجري مقارنة سريعة في نفسها بين ذلك الفارس الأسطوري الذي يصول ويجول فوق صهوة جواد أحلامها؛ وبين هذا الفارس العملاق الذي تتدفق أكثر الكلمات عذوبة ونداوة من بين شفتيه، والتي تتمنَّى أي فتاة في الدنيا أن يقال فيها مثل هذا الشعر العفوي البديع، الذي خرج من القلب بشكل تلقائي، ولا يسعه غير أن يجد القلب الآخر الذي يستقر فيه مباشرة، وآنذاك كانت عيناه مثبتتين على ثغرها الأحمر الساكن الدقيق، ولكنك لست هو، بل هو الذي من المحال أن يكون أنت، كنت تقصد قلبي ولكن طاشت أسهم كيوبيد، ليس لأنك لم تُحكم التصويب، وإنما لكوني قد أصبحت امرأة لا تملك قلبها، فقلبي ليس في مكانه بين الأضلع والدم والشغاف، قلبي هناك يرفرف بجناحيه الهائلين بعيدًا؛ أَجَلْ هناك في عالم آخر حيث لا أعرف إليه سبيلاًمع الفارس الحقيقي الذي ليس لمثله قرين في الوجود بأسره.

عـاد عرفـان إلـى بيتـه حزينـاً مكتئبًـا، وقـد أحـس بنبـرة الصـدود التـي حدثتـه بهـا عينـا الفتـاة التـي ملكـت عليـه كل حواسـه وفـؤاده، وربمـا لام نفسـه مرارًاوتكرارًاوهـو يحـل ربطـة عنقـه، ليـس لكونـه قـد تسـرع في الاعتـذار عـن الاسـتمرار في مثـل هـذه القضيـة المسـلطة عليهـا كل الأضـواء، وإنمـا لتسـرعه في البـوح بمشـاعره الجياشـة نحـو فتـاة يثـق تمـام الثقـة أنهـا خارجـة للتـو مـن تجربـة مدمـرة بكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى، وأنهـا مـن رابـع المسـتحيلات أن تكـون مؤهلـة لتجربـة عاطفيـة في الوقـت الراهـن، وأنـه كان حريًّـا بـه أن يتريـث في الكشـف عمـا يجيـش في صـدره نحوهـا، وأنـه بتسـرعه هـذا قـد يكـون فقـد المـرأة الوحيـدة التـي أحبهـا مـن كل قلبـه في حياتـه وربمـا إلـى الأبـد.

لـم تنـم سـما مثلـه حتـى سـاعة متأخـرة مـن الليـل، ولـم يكـن هـو سـر أرقهـا أو مـن يسـتاهل أن تفكـر فيـه بقلبهـا لا عقلهـا، فعرفـان غـانم كان بالنسـبة لهـا مجـرد صـورة عارضـة، أومضـت قليـلاً ثـم تلاشـت مـع مجـيء هالـة النـور الطاغيـة، لقـد شـردت فيـه قليـلاً ليـس لشـخصه وإنمـا لكونـه هـو مـن قادهـا مـن غيـر قصـد إلـى مـكان فارسـها العظيـم، لقـد ظلـت تراقبـه طويـلاً مـن بعيـد لبعيـد حتـى اهتـدت إلـى مـكان حربـي الطحـان، ولكـن تـراه أيـن يكـون هـو الآن، بـل لـم تبـال بتصريـح عرفـان لهـا بحبـه وبـادرت بدورهـا تسـأله عـن مـكان

حبيبها هي، فانفجر عرفان في نفسه وارتمى جالسًا في المقعد وهو في غاية الضيق من أجل كبريائه الذي جُرِح، فآثرت الفتاة الانصراف عائدة إلى بيتها في صمت وهي تقول في أعماقها: «قلبي سوف يهديني إليك»

وفي سكون الليل الغامض أحست فجأة وكأن قوة ما خفية تأخذ بيدها كالمخدرة، وتمضي بها في دياجير الظلام، وتصورت سما لوهلة أن جنيًّا قد ركبها، وسلبها عقلها، وأركبها سيارتها كالمُسَيَّرة، وجعلها تنطلق بها بسرعة الريح في هذه الساعة المتأخرة من الليل، بل ساورها الإحساس أيضًا أن شيئًا ما لن يصيب السيارة بسوء أن هي رفعت يديها عن المقود، ولكي تتأكد من كونها في وعيها أو مغيبة تسير بمحض إرادة أخرى غير إرادتها، تركت المقود تمامًا فإذا بالسيارة تنحرف إلى جانب الطريق حتى أوشكت على الانقلاب بها، فصرخت الفتاة صرخة مدوية وقد أدركت في الحال أنها تمضي بإرادتها هي وليس بأي إرادة أخرى، فقبضت بإحكام على عجلة مقود السيارة والتي كانت تهتز بشدة، وتترنح بها على جانبي الطريق يمينًا ويسارًا، ثم انجرفت إلى خارج الطريق برمته مع انهيار التل الترابي المرتفع الذي ارتقته عنوة مع ارتجاج السيارة العشوائي، ولم تدر سما وقتها أي يد تلك التي كانت تقبض آنذاك على مقود السيارة، ولم تبدِ

اندهاشة حقيقية في ذاتها حيال هذه اللحظة العصيبة؛ والتي ينفصل فيها الإنسان عن نفسه تارة ويقترن بها تارة أخرى، وهل حياتي السابقة كانت شيئًا يختلف كثيرًا عما يحدث ليّ الآن؟ فهكذا راحت تحدثها نفسها وقد أطلقت لسيارتها العنان لكي تفعل بها ما تشاء، وتأخذها إلى حيث قدرت لها الأقدار أن تكون.

أفاقت سما بعد مرور فترة وجيزة من الزمن على نفسها غارقة فيقلب مياه المصرف الآسن الذي انزلقت إليه سيارتها بصورة مفزعة، تلفتت حواليها وجلة، كان الظلام الدامس يلف المكان كله من حولها، وإن بدت هام الأشجار تتطوح من بعيد وكأنها رءوس أشباح هلامية تتراقص تحت ضوء القمر الوئيد الذي كان يظهر من آن لآخر من وراء سحب السماء الكثيفة، وترامى إلى مسمعيها خليط من أصوات زمجرة الريح الممزوجة بأصوات نقنقة الضفادع البرمائية وهي تقفز وتتواثب إلى جانبها في السيارة، أو إلى خارجها، فصرخت فزعة وهي تتمنى من كل قلبها أن يلتقطها أحد العابرين في الطريق، ولكن هيهات أن يكون لأي آدمي أثر في مثل هذه المنطقة المقطوعة، وبعد معاناة شديدة استطاعت أن تحرر جسدها من داخل السيارة والتي لم تصب بسوء بالغ كما خُيِّلَ لها مع أول انطباع تبادر إليها بعد أن سقطت بها السيارة فيقلب المصرف غير العميق.

كانت رائحة العفونة تنبعث بشدة من مياه المصرف، كما انتشرت الحشرات بشكل مخيف والتصقت بجسدها وشعر رأسها الذي غمرته المياه تمامًا، اختفى القمر تمامًا وبدا الليل مُدْلَهِمًّا من حواليها، وأصبح من الصعوبة بمكان أن تحدد الجهة التي عليها أن تسبح ناحيتها، وبدت وكأنما سقطت في أطواء عالم غيبوبي تضاربت جهاته الأربع، وأصبحت أرضه سماء، وسماؤه سراب، كما لم يعد هناك صوت يعلو على صوت فحيح الأفاعي التي كانت تنبعث من كل الأنحاء، وأحست سما أنها ميتة لا محالة، فإن لم يكن بكل هذه الأشياء الغريبة التي تسمعها أو تحس بها وهي تتقافز من حولها أو ربما داخل جسدها نفسه؛ فعلى الأقل ستكون ضحية الصور الهلامية البغيضة التي تراءت لها بعيني مخيلتها. وعلى الفور راحت تضرب بذراعيها صفحة المياه على غير هدى، ولكنَّ نَجْمًا هوى من علياء السماء بعيدًا عن الكوكب الأرضي أضاء لها السبيل برهة من الزمن، فشكرت الأقدار التي منحتها السبيل الذي عليها أن تمضي فيه، ليس فقط لكي تخرج من قلب المياه القذرة، وإنما إلى ذلك البيت الطيني الذي احتفظت بصورته في عينيها مع انطفاءة نور الوجود وقد بدا رابضًا كالشبح من بعيد.

obeikan.com

راحت سما التي ألصق طين المصرف ملابسها وشعرها المبلل بجسدها تمامًا تجري وهي تتعثر في الظلام تارة وفي تصاوير مخيلتها المفزعة تارة أخرى، فبين طرفة عين وانتباهتها يتحول العالم من النور والروعة والألق إلى عالم مظلم بغيض تملؤه الشياطين، وتسكنه الأشباح المخيفة ذات الهيئات الأسطورية العجيبة، ولكن ما لبثت الفتاة أن راحت تطمئن نفسها بنفسها، وأن ما تراه ليس إلا الوهم الذي يصوره لها عقلها الباطن، وأن مثل هذا العالم المخيف المفعم بالغموض والأشباح المرعبة لكفيل بعود ثقاب مشتعل أن يبدده كله من أدناه إلى أقصاه، ويذهبه أثرًا بعد عين، لكونه عالم لا وجود له إلا في خيال الجبناء فقط، أو قل الذين يعيشون في ظلمات الكراهية والأثرة المقيتة، لا أولئك العشاق المتيمين المفعمين بأنوار الحب الراقية، ومن فورها أطلقت شعاعًا نورانيًّا من طاق انفتح في نفسها، فمضت في سبيلها غير خائفة تتلمس خطاها على هداه، ذلك الشعاع الذي كان هو والسراب سواءً بسواء. ولكنها الرغبة والأمل في البقاء، والتلبية الغامضة لحظة الاستدعاء القسري من مجهول، والذي يجعل المرء يجري مهرولاً بساقين هما في أغلب الأحوال ليسا بساقيه ولا إرادته، ومن غير أن تدري خانتها قدماها، وانحرفت بها بعيدًا عن البيت الطيني الذي لمحت شبحه على ضوء النجم الذي هوى منذ بضع دقائق، وظلت تجري غير منتبهة إلى قواها التي خارت

تمامًا، وأنها قد باتت على وشك السقوط مغشيًّا عليها، فتماسكت وتحاملت على ساقيها، وقد لاح لها من بعيد بيت آخر طيني في غاية البساطة، فيَمَّمَت شطره وقد زايلتها طاقتها وقدرتها على الاستمرار تمامًا، فكادت تسقط صريعة، ولكنها فجأة أحست بنفسها تخف وتخف كالريشة حتى صارت أقل كثافة من الهواء، والذي حملها هذه المرة على جناح المجهول إلى مكان آخر أكثر غرابة وخيالاً.

كانت سما قد طوحت بها المقادير إلى هذه المنطقة المقطوعة، منطقة بدت في ناظريها على ضوء الفجر الذي أرسل قبسًا وئيدًا من النور وكأنها قطعة من عالم أسطوري مثير، وربما تضاعف لديها هذا الإحساس عندما طرقت باب البيت الخشبي مستغيثة والذي تصادف أن وجدته قبالتها مباشرة يقبع فوق ربوة عالية، وهنالك وجدت ما لم تكن تتوقعه أبدًا.

●●●

obeikan.com

(١٣)

عندما انفتح الباب الخشبي ذو الصرير المرتفع إثر طرقاتها المحمومة؛ فوجئت به يقف أمامها مباشرة بهيئته العملاقة، لم تتبين معالمه جيدًا لأول وهلة، ولكنها عرفته من فورها، فمن ذا يجسر على القول أنها قد أبصرته يومًا بعيني ذلك العالم المادي الذي نعيشه ونحسه ونتنفسه؛حتى يقرر أنها قد أبصرته هذه المرة بهما؛ بل بعينين أخريين تنبعثان منها هي وحدها فحسب رأته، وعندئذ أحست وهي تجيل عينيها في أنحاء وجهه الأسمر أنها لم تزل بعد نائمة في فراشها وتحلم به، فتمتمت قائلة وهي لا تصدق نفسها:

- يا لا دهشتي من قلبي الذي أرشدني إليك!

أدام إليها النظر طويلاً في البداية ثم قال وقد التمعت في عينيه نظرة ما مشحونة بالحيرة والفضول معًا:

- مَنْ؟

- ألا تعرفني؟ آه هذا طبيعي فأنت لم تشعل أي مصباح حتى تتبين من يطرق بابك في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح.

obeikan.com

- وحتى لو أشعلته أعتقد أنني أيضًا لن أعرفك.

- بل من المحال ألا تعرفني إذا تطلعت إلى وجهي.

بانت الدهشة في وجه حربي الطحان والذي أخذته كما يبدو موجة عاتية من التفكير، ثم استدار كجبل متهدم ناحية الداخل وقد غرق في بقعة أشد ظلمة من التي كان يقف فيها منذ ثوانٍ معدودات وقال:

- سواء نظرت إليكِ في النور أم في الظلام فكلاهما سيان عندي، فمن تكونين إذن؟

أحست سما بالابتئاس يجتاح مشاعرها وكادت تشهق صارخة لولا أنها كتمت فمها بكلتي يديها وهي ترى بالكاد حركاته الآلية التي تتحسس الطريق أكثر مما تراه، كما فهمت من مضمون كلماته أن النور لا يفيد مثله، ولكن إلحاحه في السؤال عن شخصها ومن تكون، أجبرها في النهاية على التحرر من خوفها والنطق قائلة بعد فترة من التردد:

- كنت أتصور أنك ستعرفني بإحساسك الشفاف وقلبك المرهف لا بعينيك، أنا سما حسين عبد المنعم القاياتي، أمازلت بعد لا تعرفني؟

obeikan.com

انتبه حربي إليها بكل جوارحه، كان ضوء الصبح الذي تنفس قبل قليل يأتي شاحبًا من الخارج؛ ولكنه أنار بعض الشيء قسمات وجهه الجامدة، وبدا صدره يعلو ويهبط بسرعة رهيبة علامة تلاحق أنفاسه، وارتفاع ضغط دمه، واندفع ناحيتها بانفعال جم ليطردها من بيته على غير ما توقعته الفتاة تمامًا، ولكنها لمحته في الوقت ذاته يدفع عدمًا وليس هي، فتأكد لها إحساسها أن حربي قد أصبح كفيفًا، وأن بصره ربما يكون قد فقده بسببها هي أيضًا، فلو كان أعمى لبانت عليه مظاهر الخبرة والتمرس والقدرة على الحركة، ولكنه كان يتعثر في سبيله لكونه قد كُفَّ بصره منذ زمن قريب، فدمعت عيناها، ودنت منه تهدئ من روعه وقد التمست له مئات الأعذار، وهي تتقي في الوقت ذاته ذراعيه اللتين راح يطوحهما في الهواء وهو يصرخ فيها أن تذهب إلى الجحيم، وأن تترك داره إلى الأبد، فقالت وقد خالجت كلماتها نهنهة شديدة:

- تصورت أنك قد ضحيت بحياتك من أجلي.

- وها قد دفعت الثمن غاليًا.

- في وسعي أن أعوضك عن كل شيء فقدته بسببي، وأن أكون خادمة تحت رجليك ما حييت.

أدهشت كلماتها حربي والذي سكنت ثورة غضبه شيئًا فشيئًا، وراح يقترب منها حتى وقف قبالتها مباشرة، ولاذ بالصمت طويلاً، ثم مَدَّ إبهاميه بِرِقَّة وأخذ يجفف بهما الدموع التي انثالت على وجهها، وقال بصوت مغاير عن ذي قبل وقد رَقَّ قلبه لحالها:

- معذرة، فلقد جعلتني الظروف العصيبة التي مررت بها أبدو كالوحش الجريح الذي يريد أن يحطم كل شيء في سبيله.

ابتسمت سما رَغْمًا عنها وقد طاف بذهنها خاطر الفروسية والنبالة، والتي كانها الفتى منذ لحظات وكصورة طبق الأصل لتلك التي تجول دائمًا في سويداء نفسها منذ زمن بعيد، ثم راحت تديم النظر طويلاً إلى شفتيه المضمومتين على أروع ما تحب أن تسمعه فتاة من فتاها، فهمت إلى أعماق نفسها مغمضة العينين تصغي إليه وقد استرسل قائلاً:

- كان من المحال أن أقف مكتوف اليدين وأنا أرى حياة فتاة بريئة مثلك، ونقية كملك وديع تضيع هدرًا.

سكت فترة طالت قليلاً ثم قال بصوت حالم كالسحر:

- وجدتني مندفعًا بكل قوتي كالمجنون، وتوقفت كل حساباتي وأجهزتي الدقيقة التي أقيم وأقدر بها المواقف وعواقب الأمور، وبت لا أفكر في نفسي أو في أي شيء آخر غيرك.

ولأول مرة أحست الفتاة أنها قاب قوسين أو أدنى من سماع الكلمات التي كانت تود سماعها منذ زمن بعيد، وبدت في غاية اللهفة لسماع المزيد فتطلعت إليه في عليائه وكأنما تحثه على الاسترسال في حديثه، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك فسألته قائلة بنبرة أنثوية بالغة الرقة والعذوبة:

- وماذا لو كانت واحدة أخرى غيري، هل كنت ستندفع على هذا النحو؟

صمت حربي طويلاً والذي ذابت تفاصيل صورته الواقعية في تلك التي تترقرق كالحلم الوردي في جَنَانِهَا، وقال وهو يسدد نظراته إلى لا شيء:

- من المؤكد أنها مسألة مبدأ، ولكن فيما يتعلق بكِ أنتِ فالمسألة تختلف، فثمة قوى خفية تدفع بالمرء أحيانًا إلى الجنون نفسه، والواقع أنني لم أكن أعرفك بطبيعة الحال، بل عرفتك وعرفت عنك كل شيء من خلال التحقيقات معي كشاهد وحيد فيما بعد، ولهذا تظل تضحيتي بنفسي، كما يظل اندفاعي على هذا النحو سرًّا مجهولاً حتى عن نفسي.

وهنالك خفق قلب الفتاة خفقانًا شديدًا، ونظرت إليه مليًّا وقلبها يرقص طربًا في سويدائها وكأنما تقول له بلغة التخاطر الذهني والقلبي معًا: «لقد فعلت ما فعلته معي لكونك فارسي

الموعـود، فأنـت إذن الفـارس الـذي منحنـي القـوة والصبـر علـى احتمـال أهـوال السـجن بـكل مـا فيـه مـن مجرمـات وعاهـرات وخارجـات علـى القانـون» وهاهـو ذا كمـا خُيِّـلَ لهـا أنـه يجيبهـا بـذات اللغـة التخاطريـة قائـلاً: «كان مـن المحـال أن أتـركك وحـدك في هـذا العالـم المشـئوم، وكنـت أقـول في نفسـي أي حـظ عثـر هـذا الـذي أورد هـذه النسـمة الرقيقـة مـورد التهلكـة هـذا، كنـت أعـرف لحظـة تسـليمي الفيلـم للسـلطات أننـي قـد أفقـد حياتـي نفسـها مـن قبـل المجرمـين وعصابـات المخـدرات، وأكابـر اللصـوص في بلدنـا، ولكـن مـاذا تسـاوي حياتـي إذا قورنـت بحياتـك أنـتِ، حتـى الـذَرَّة ذاتهـا لا يصـح أن أكونهـا في لحظـة مـرور مجـرد طيفـك لا ذاتـك وجسـدك ووجهـك الملائكـي» فقالـت لـه ومـن غيـر أن تحـرك شـفتيها النديتـين البتـة، بـل عينيهـا فقـط همـا اللتـان كانتـا تنبسـان بـكل الكلمـات: حربـي هـل كان قلبـك يرشـدك إلـيَّ كمـا كان قلبـي يرشـدني إليـك دومًا؟أحسـت بـه يتنهـد تنهيـدة عميقـة في داخلـه :»بكل تأكيـد يـا حبيبتـي، وسـواء كانـت هـذه المحنـة أم لـم تكـن، كان مآلنـا إلـى اللقـاء، الالتحـام، الذوبـان في روح وجسـد واحـد وليـس في روحـين وجسـدين اثنـين « هكـذا سـمعته سـما يقـول في سـويداء نفسـها، والتـي بـدت لهـا كالفضـاء الرحـب اللانهائـي، والـذي ظلـت كلماتـه تتـردد في أنحائـه المتراميـة الأطـراف، ويرددهـا الصـدى في خشـوع جـم.

●●●

(١٤)

مضت بعد ذلك عدة أسابيع، راحت سما القاياتي تتردد خلالها بلهفة على بيت حربي الطحان، وتراعيه وتحنو عليه كطفلها الصغير وتقضي له حوائجه، وكم لمست فيه من مظاهر العذوبة والرقة ودماثة الخلق، وعندما كانت تفارقه قرب حلول الليل وتعود إلى منزلها في الزمالك تسرع بالخلود إلى النوم في فراشها وكأنما تتعجل مجيء نهار اليوم التالي؛ فتلقاه إن لم يكن بأحضان صدرها فبأحضان عينيها الواسعتين، ولا ريب أن الكثيرين ممن يحيون في قصر الخالدي بالزمالك قد لاحظوا تغير حالها إلى النقيض، فلقد عادت إليها الروح التي افتقدتها طويلاً، واستردت عافية طبيعتها القديمة المرحة الطلقة، وأشرق وجهها بابتسامة وضاءة، ولعل حسين القاياتي والدها كان أسعد الجميع بهذا التغير المفاجئ في حياة ابنته، بل تحسنت صحته هو نفسه إلى حد ما كلما رأى مظاهر الحياة والحيوية تتدفق من جديد في شرايين ابنته الرائعة، ولأول مرة منذ فترة طويلة وبعد طول رقاد استطاع أن يفارق فراش المرض، كما عادت إليه هو نفسه شيئًا فشيئًا روحه القديمة المفعمة بالقوة والنشاط، وشرعت ذاكرته

تجتر تاريخه النضالي الطويل، وكيف كان يقف كالأسد الهصور في وجه الباطل ومن يأكلون حقوق الفقراء والبؤساء في الحياة، وكم سَرَّه أن تناديه سما بالكلمة المحببة إليه، والتي توقفت عن مناداته بها منذ فترة طويلة، فذات مرة اندفعت داخلة إلى حجرة مكتبه في القصر وهي تهتف به قائلة:

- سحسي حبيبي، أين أنت يا رجل؟

فعانقها طويلاً والدموع تطفر من عينيه وهو يقول غير مُصَدِّق نفسه:

- سحسي حبيبي!، أي معجزة تلك التي أعادتنا للحياة مرة أخرى يا حبيبة قلب أبيكِ.

وهنالك شردت سما طويلاً وهي تتمتم قائلة:

- هي فعلاً معجزة؛ بل سلسلة طويلة من المعجزات وإن كان صاحبها واحدًا في زمن انتهت فيه المعجزات.

نظر حسين إلى ابنته نظرة من يستفهم عن تفسير لتلك الأحجية التي ألقتها للتو في سبيله، ومَنْ ذا يا ترى يكون ذلك الشخص الوحيد زمانه؛ والذي أتى بالمعجزات التي لم يأتِ بها غيره؟ ولعله راح يجيب نفسه بنفسه وأن ابنته ربما تكون قد وجدت ضالتها المنشودة في شخص ما، وأنه ذلك الفتى المثالي

الذي يراود الكثير من الفتيات في أحلامهن، لِمَ لا وقد لاحظ منذ فترة أن ابنته تكتم سرًّا ما في نفسها ولكنها لم تَقْوَ على البوح به بعد، أو أنها حاولت أن تفاتحه في ذلك السر أكثر من مرة ولكن منعها عن ذلك مانع ما؛ فقد يكون الخجل أورغبتها الخفية في التأنِّي وعدم استباق الأحداث والتأكد من صدق المشاعر،أو ربما يكون الخوف الذي اعتادت عليه في الآونة الأخيرة، فقال متسائلاً لها عن السر وراء هذه السعادة الفائرة في أعماقها ولكن بشكل غير مباشر:

- ألاحظ أنكِ تتغيبين كثيرًا خارج المنزل في هذه الأيام، فهل من جديد تُشْرِحِينَ به قلب والدك التعس؟

فقالت خجلانة ومرتبكة إلى حد ما:

- جديد مثل ماذا بالضبط يا أبتِ؟

- في العمل، في الحياة، أو في القلب مثلاً.

- لالالا، لقد انصرف ذهنك إلى أبعد ما يمكن تصوره.

وهنالك تأكد لديه إحساسالمعجزات. في محله، وأن ابنته تمر بحالة خاصة وإن أنكرت ذلك بشدة، غير أن نظرات عينيها قد وشت بها، فأحست هي فيما يبدو بافتضاح أمر مشاعرها التي تبطنها في نفسها أمام والدها، فاسترسلت قائلة وكأنها تنفي ما وقر لديه من شك في أمر قلبها العاشق:

- ولكن لا أكتمك حقيقة كوني قد وجدت الجديد في قضية وجودي نفسها، الإنسان خُلِقَ فيما يبدو ليصارع أهوال الحياة وضغوطها بنفسه ووحده، ولكن هناك من ينكرون حقهم في الحياة من أجل الآخرين.

- أحسبك تلمحين إلى صاحب المعجزات .

صمتت سما لفترة ما، ثم قالت وكأنما تُلْقِي في سبيل والدها بمزيد من الألغاز والأحاجي:

- الحياة علمتني أن الناس ينقسمون إلى صنفين اثنين، كثيرون يودون أن يأخذوا كل شيء لأنفسهم هم فقط ومن غير أن يعطوا أي شيء لغيره، وقلة قليلة فقط هي التي تعطي بغير حساب ومن غير أن تنتظر أي مقابل من أحد .

وبعد فترة صمت أخرى قالت وكأنها تتحدث همسًا إلى نفسها أكثر من كونها تتحدث إلى أبيها :

- إلا هو، فهو مختلف، وغير أولئك، وغير هؤلاء، هو استثناء من قاعدة بين البشر أجمعين، هو الحب المجرد من كل أنانية، والذي يجود بروحه وحياته ذاتها من أجل الآخرين...

وهنالك سمعت صوته الداوي يقاطعها قائلاً بتحفظ:

obeikan.com

- وأنتِ استثناء أيضًا من البشر يا حبيبتي، ولو كان الأمر بيدي لجزأت نفسي إلى مئات، آلاَف، بل إلى مالا يحصيه عدد من الأجزاء، حتى أجود بها من أجلك جزءًا بعد جزء.

- أنت ذكرتني للتو بشيء منسي اسمه الإنسان.

- إذا كانت الإنسانية هي رأس الحياة فأنتِ تاجها الذي يتلألأ على الدوام.

وسرعان ما هفت نفسها إليه، وطارت روحها تسبقها إليه، وهنالك وجدته في انتظارها على أحر من الجمر، كان جالسًا بالقرب من جدول المياه الساحر، والذي ينبعث منه صوت خرير المياه المنسابة وقد امتزجت بأصوات زقزقة وأغاريد عصافير الصباح والبلابل الملاح، وفجأة استدار على عقبيه إلى الوراء وهو يفتح ذراعيه عن آخرهما، فاندهشت سما التي كانت تتسلل نحوه من بعيد جدًّا في خفة القط حتى تفاجئه، فإذا به هو يفاجئها بإحساسه المرهف وأنه قد شعر بوجودها، فهرولت إليه وهي تَدُسُّ يديها في يديه قائلة وسحر الأَلَّقِ المتوهج يشع من عينيها:

- أردت أن أفاجئك ففاجأتني أنت؟

- لِمَ لا وقد رصد قلبي وجودك في الحياة منذ قديم الأزل، أفأعجز عن الإحساس بكِ وأنتِ على بعد عدة أمتار مني.

هكـذا أحسـت ﴿ أعماقهـا بمـا كان سـينطق بـه للتـو، فقالـت كالمأخـوذة وهـي تتلفـت منبهـرة بمـا حواليهـا مـن مناظـر طبيعيـة خلابـة، وتأخـذ ﴿ الوقـت ذاتـه نفسًـا عميقًـا مـن الهـواء العليـل الـذي شـرعت تترنـح لـه أعطـاف النخـلات الباسـقات:

- يا لـه من مكان سـاحر، معك حق ﴿ هـذه العزلـة التـي تعيشـها ﴿ هـذا العالـم الرائـع، السـماء كـم هـي صافيـة هنـا، وكأنهـا سـماء غيـر السـماء الملبـدة التـي تركتهـا للتـو ﴿ العاصمـة، انظـر كـم هـي...

غيـر أنهـا توقفـت عـن الاسترسـال ﴿ حديثهـا فجـأة، وقـد أحسـت بالأسـى لكونهـا قـد تكـون قـد جرحـت مشـاعره مـن غيـر قصـد بكلماتهـا هـذه، وبخاصـة وقـد دعتـه وهـو الكفيـف البصـر إلـى التطلـع معهـا إلـى صفحـة الأفـق الرائقـة، فأطرقـت آسـفة وقـد أحسـت بمظاهـر الضيـق قـد لاح ﴿ قسـمات وجهـه، ولكنـه باغتهـا بالتطلـع إلـى حيـث أشـارت بسـبابتها وهـو يقـول وقـد غيـر ملامـح وجهـه إلـى الابتسـام المشـوب بالحـزن الخفـي:

- ﴿ الحقيقـة ليـس لِـي أيفضـل ﴿ اختيـار هـذا المـكان، عرفـان بـك هـو مـن أتـى بـي إلـى هـذا المكان البديـع حقًّا،لقـد أخبرنـي أن ذلـك ﴿ مصلحـة خـط سـير القضيـة، وخشـية أيضًـا علـى حياتـي، هـو يعتقـد أنـه مـازال هنـاك مـن يريـد الانتقـام منـي،

obeikan.com

هيه، ولكن الجنة من غير ناس لا تكن جنة أبدًا، بل جحيمًا لا يطاق.

- هون عليك يا حربي.

ثم أخذته من يده ومضت به بعيدًا، حيث كان قرص الشمس الذهبي يلوح في صفحة الأفق الدامي، وكان حربي يتعثر أثناء سيره في الأرض الزراعية غير المستوية، وسما ترشده من آن لآخر حتى يتقي تلك الحفرة أو ذاك المرتفع، ولكنه سقط في النهاية على وجهه منغرزًا في الأرض الموحلة وهو يمد ساقه لكي يعبر قناة صغيرة، فبان الألم في وجه سما وهي تساعده على النهوض، وتحاول إزالة الوسخ عن ملابسه بقدر ما تستطيع، وقد راحت تعتذر له مرارًا وتكرارًا وهي تنتحب في أعماقها وتقول لنفسها: تُرى أي ذنب جناه هذا الشاب اليافع حتى يتحول إلى هذا الشبح البائس؟ والذي فقد بصره وأمله في الحياة، وضاع مستقبله، وابتعد عن أهله وأصحابه، وكل ذلك لأن ضميره الحي قد أبى عليه أن يتخلَّى عن واجبه الأخلاقي، وعن إنسانة بريئة في محنة، محنة مواجهة الموت نفسه من غير ذنب، وأنا هذه الإنسانة التي ضحى من أجلها بكل شيء، أفيعقل أن أتخلَّى عنه بعد ذلك!

وعندما عادت معه إلى داره الطينية المتهالكة، وراحت تراقب عن كثب وبدقة أكثر من أية مرة زارته فيها كيف يعيش، وكيف

obeikan.com

ينام، والمعاناة الهائلة التي يجدها وهو يأكل ويشرب وحين يقضي حاجته، فأي بؤس هذا وأية حياة تلك، وكيف تجسر بعد ذلك على النوم هادئة البال ومستريحة النفس في فراشها الوثير وهذا هو حال من وهبها الحياة مرة أخرى، ومن غير أن تشعر ترقرقت الدموع في عينيها، ففوجئت به يدير وجهه ناحيتها مبتسما وكأنما قد أحس بها وبتألمها من أجله، فشرع وبنبرة رصينة يقلب الآية من طرف خفي ويطمئنها هو بدلاً من أن تطمئنه هي قائلاً:

- لا تبتئسي من أجلي يا آنسة سما، عرفان بك وعدني أن بقائي هنا مسألة وقت لا أكثر.

- عرفان غانم اعتذر عن القضية منذ فترة.

سادت فترة صمت وجيزة على المكان، فترة كانت كفيلة لتغيير معالم وجه حربي الطحان كلية إلى النقيض، والذي انتصب واقفًا وقد صدمه على ما يبدو خبر تنحي عرفان غانم عن القضية وهو يتمتم بصوت مسموع أولاً، ثم زادت حدته تدريجيًّا بصورة عصبية هستيرية رهيبة:

- كيف، كيف، ولماذا تركني هنا وحدي أتعثر في ظلام عيني، وأين الحكومة والنيابة، عرفان غانم ذهب في داهية فهل أذهب أنا أيضًا في داهية تأخذني، أفيتركونني وحدي أكتوي

في هذا الجحيم اللاهب، وفي هذا المكان الخانق الذي لا يطاق ألست إنسانًا أم أنني محض حيوان دنيء في نظرهم.

قال حربي ما قاله وهو يدفع الأشياء بكلتي ساقيه في سبيله بشكل جنوني، وسما التي أزعجها الأمر بشدة دعتها إلى القفز مسرعة نحوه وهي تحاول تهدئة روعه بكل السبل، وهنالك أمسكت يده بيدها، وراحت تجفف بالأخرى العرق المتساقط على وجهه وخصلات شعره الجعدة التي انتفشت، ودقات قلبه المتلاحقة، ودنت منه للغاية وهي تتمتم بصوت مفعم بالحب الأسطوري:

- لا عليك يا حبيبي، ومن قال أنك وحدك، ألست معك، و ألم أعاهدك من قبل أنني سوف أكون راهبة في محرابك أيها الحبيب الخالد، وسأبقى خادمة تحت قدميك إلى الأبد.

- وما ذنبك أنتِ؟

- ...!

صمتت سما لفترة وهي لا تدري بأية كلمات أخرى يمكن أن تنطق بها، وبأية أحاسيس أو لغة يمكنها أن تعبرعن مكنون مشاعرها الفائرة في سويداء نفسها كالمرجل، ثم انفجرت مجهشة بالبكاء وقد ألقت برأسها على كتفه المرتفع وهي تهمس بالكاد وكأن قلبها سوف يفط من حلقها:

- بل ما ذنب كل هذا الحب الذي أحسه نحوك حتى وقبل أن أعرفك، بل ربما قبل أن أعرف نفسي ذاتها، حربي لا تتصور كم أنت أسطورة في نفسي، أنت بالفعل أسطورة نادرة الوجود.

●●●

obeikan.com

(١٥)

طار خبر زواج سما القاياتي من حربي الطحان بصواب العائلة، وارتج قصر الزمالك من أَسِّهِ حتى قمته؛ ومن أدناه إلى أقصاه، واجتمعت العائلة في هول القصر الكبير ترغي وتزبد فيما يشبه مجلس الحرب، كان الشقيق الأكبر ماجد والأخ الأصغر لبولا الأم عدنان الخالدي على رأس مائدة الغضب وقد التف من حولهما بقية الأشقاء شوكت القاياتي، وزوجته فاطيما ودينا القاياتي وزجها فادي الألفي، وخالتهم رمزية هانم الخالدي، وكذلك ارتشق البعض الآخر من أفراد عائلة الخالدي في أنحاء متفرقة من المكان، والذين كانوا يقيمون جلهم في أجنحة القصر المختلفة، عاشوا طويلاً معًا تحت سقف واحد ولكنهم كانوا شتى لا يعرفون بعضهم البعض إلا قليلاً، كذلك كانوا نموذجًا للأرستقراطية العاطلة، التي تركب القطار الذي ينطلق إلى الخلف وليس إلى الأمام، إلى الماضي وليس إلى المستقبل أو حتى الحاضر على أقل تقدير، وقليلاً ما كانوا يلتقون على قضية واحدة اللهم إلا إذا مست هذه القضية أو تلك مجد شرفهم العائلي. وما كانوا ليجتمعوا على هذه الهيئة غير مرتين في العمر الطويل؛ بدواع النعرة والعنجهية

الأرستقراطية التي دقت ناقوس الخطر في حنايا القصر الكبير، فبالأمس البعيد وحدتهم تلك العصبية المقيتة ضد حسين القاياتي يوم تقدم لابنتهم بولا، فحسين لم يكن في ناظرهم غير قن من الأقنان الذين انقلبوا على سادتهم الإقطاعيين، وأخرجوهم من معادلة الحياة غير مأسوف عليهم بمحض لعبة انقلابية حقيرة، وأنهم سيكون مصيرهم مثل نبلاء فرنسا الذين قتلهم الرعاع والدهماء تحت أشفار المقاصل الرهيبة، أو مثل أسرة رومانوف في روسيا والذين أجبرهم الثوار البلاشفة على كنس الطرقات ليلاً وإزاحة الجليد جانبًا من سبيل المارة، ووقتها ضحك حسين طويلاً وهو ينصت إلى تلك الأراجيف التي كانت تروج لها العائلات الأرستقراطية، وعدها من الشائعات السخيفة، وطلب منهم أن يحمدوا الله أن مصر ليس فيها جليد في الطرقات، وراح يدافع عن الثورة بكل بسالة؛ والتي لم تأت لتذل الأكابر وتجعلهم من الأصاغر، بل لتجعل الناس كلهم سواسية في العيش والمصير تحت مظلة اشتراكية عريضة تسع الجميع من غير استثناء، وأن الكثير كثير بنفسه وبمواهبه وبما يضيفه لذاته، والقليل فإنما بمحض اختياره. ولكن كان هناك من العائلة من هبَّ في وجهه وألقى في وجهه بوشاح الغضب والاتهام بأنها محض شعارات جوفاء يتوارى بها وأمثاله لإخفاء كل مظاهر الحقد الطبقي، وأن غدًا لناظره قريب وما هي إلا أشهر قليلة وربما أسابيع وأيام وربما لحظات

وينكشف عوار الثورة، ويظهر الثوار على حقيقتهم، ولكن حسين باغت لحظتها عدنان الخالدي صاحب هذه التهم الرهيبة التي انفلتت من فمه كطلقات نارية من الرصاص، ودنا منه قائلاً بذات الابتسامة الرائقة التي كانت قلما تفارق وجهه:

- ما تقوله يا عدنان بك غير مستبعد، فكثيرًا ما تكون النوايا حسنة وخالصة، ولكن تبقى الحقيقة التاريخية الأمر من السم نفسه، وأننا دائمًا إزاء النفوس التي لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، فهي تتغير وتتلون وتتقلب وتصبح على أهون سبب ألعوبة في يد الهوى والمنفعة الشخصية، ولكن حسبنا أن مثلي على الأقل، والبعض الآخر من الشرفاء أصحاب النوايا الثورية الطيبة سوف يظلون على عهدهم بمبادئ الثورة الخالدة التي قامت من أجل كرامة الإنسان وليس من أجل إهانته، ولهذا قطعت العهد على نفسي أن أظل دومًا الغصة المميتة التي تقف في حلق أي ثوري يجنح به الهوى بعيدًا عن الأهداف النبيلة التي قامت من أجلها ثورة يوليو المجيدة، أو تطاوعه نفسه على تشويه صورة العهد الجديد للأمة الناهضة.

ولقد كان حسين شابًّا نابغة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكان فارسًا لسنًا لا يُشَقُّ له غبار في ميدان العزة والأخلاق

الحميـدة، ومترفعًـا عـن الدنايـا، ومتواضعًـا أمـام كل مـا يمـت للإنسـانية مـن قريب أو بعيـد بصلـة، فلقـد كان متعاطفًـا مـع الأغنيـاء والنبـلاء وباشـوات وبكـوات المجتمـع، وضـد إهانتهـم أو تحقيرهـم وإذلالهـم، وأنهـم لا ذنـب لهـم فيمـا جـرت بـه المقادير طويـلاً وحـين لـم يكـن لمصـر نظامهـا السياسـي المسـتقل الـذي يخلقـه ويحكمـه أبنـاؤه الشـرفاء بأنفسـهم، كمـا كان بالقـدر نفسـه وربمـا أكثـر متعاطفًـا مـع فقـراء وبؤسـاء المجتمـع، ولقـد كانـت الثـورة تمثـل في ناظريـه المثاليـة التـي يجـب أن يصبـو إليهـا المجتمـع بأسـره، غيـر أنـه في الوقـت ذاتـه كان واقعيًّـا إلـى أقصـى درجـة؛ ويعلـم جيـدًا أن المثاليـة هدفًـا بعيـد المنـال، ولكنهـا يجـب أن تظـل هدفًـا علـى أيـة حـال، وأن المجتمـع لـو سـار في سـبيلها عـدة أشـواط تقربـه مـن هـذه المثاليـة؛ لكفتـه هـذه الخطـوات الهينـة مؤنـة العـوز والفقـر والحقـد والصـراع الطبقـي. ولهـذا بـدا حسـين بسـلوكه وأفكـاره الراقيـة كمـن تربـى في بيت أرسـتقراطي صميـم وهـو القـروي البسـيط الـذي تربـى في كنـف الفلاحـين والبسـطاء وربمـا المعدمـين أيضًـا، ولعـل موقـف العائلـة منـه وقتهـا لـم يكـن أمـرًا صادمًـا لـه بقـدر مـا كان متوقعًـا، والتـي اجتمعـت في ذات الصـورة التـي تنبعـث منهـا أدخنـة الغضـب، غيـر أن بـولا كان لهـا رأي آخـر؛ وهـي الأكثـر منهـم جميعًـا تطرفًـا وعنصريـة، وقالـت في مجلسـهم الخـاص للأصـوات المعارضـة لزواجهـا مـن حسـين القاياتي:

- لنكن برجماتيين نفعيين على الأقل حتى تمر هذه المحنة التي خسرنا بسببها كل شيء.

- سحقًا لهذه البرجماتية المتعفنة، وماذا عن تقاليدنا الأرستقراطية الرفيعة؟

- سوف نحافظ عليها بأرواحنا ما حيينا.

- هه أنتِ واهمة يا بولا، وإياكِ أن تُغَرِّرِي بنا، فيبدو أنكِ معجبة بهذا الفلاح القُحّ.

قالها عدنان وهو ينكت بعصبية طرف غليونه في زاوية شفتيه، فالتفتت بولا نحوه قائلة:

- بل عانيتِ طويلاً يا سيد عدنان حتى أجد من صفوف خصومنا الشخص المناسب ومن يمكنه معاونتي على عدم انفراط عقد العائلة، ومكابدتي الحقيقية سوف تبدأ بلا شك مع لحظة اقتراني به واستمرار الحياة معه، وربما بسببه لم يطلب منا أحد حتى الآن مغادرة القصر، هه أو أنك قد تكون واهمًا أن الباشوات الجدد لا أكثر الله من أمثالهم الذين أخذوا منا كل شيء قد سمحوا لنا بالإقامة في القصر هكذا عن طيب خاطر.

- ربما في القريب العاجل طردونا منه.

obeikan.com

- أتصور أن مظاهر الحقد الطبقي التي أشم رائحتها القذرة، سوف تدفعهم ربما إلى ما هو أكثر من ذلك، فقد يعقدوا لنا المحكمات الصورية، ويزجون بنا في السجون إن لم يعلقوننا على المشانق.

- معك حق يا رمزية هانم، عبد الناصر يخشى بشدة من الثورة المضادة، ومن المؤكد أنه لن ينظر إلينا بعين الرضا، بل بعين الترقب والترصد.

كان هذا نذرًا يسيرًا مما دار بين أفراد العائلة، ولكن شخصية بولا الطاغية تدخلت حينذاك لتحسم الموضوع كلية وقالت:

- ولهذا دعوتكم للانحناء قليلاً حتى تمر تلك العاصفة الهوجاء، ولا تنسوا أن حسين قريب من قيادات الثورة، وزواجه مني سوف يكفل لنا على أقل تقدير البقاء في قصر الأجداد الذي أممته الدولة.

وصمتت قيلاً ثم قالت مستطردة فيما يشبه النبرة التآمرية:

- وأتصور أنه سوف يكون خير ستار لنا، لأننا وأكابر البلد ممن ضربتهم الثورة من قريب أو بعيد مثل فلول جيش قد انهزم، وتفرَّق شراذم في الأرض، ثم ما تلبث أن تشم نفسها من جديد، وتعقد العزم على التقارب والالتفاف حول هدف واحد لا سواه.

ولكن مضت الأيام والسنوات الطوال، ولم تفلح القلاقل التي كانت تحدث من آن وآخر في ضعضعة أوتاد الدولة التي صارت راسخة، وأصبح حسين من غير إعلان رسمي هو كبير هذا القصر والذي بدا كأثارة أخيرة من آثار الملكية البائدة، وكان هو من تحمل وحده أعباء ونفقات هذا القصر الكبير، بل قام على رعاية شئون أفراده، والذين كثيرًا ما كانوا يتخذونه ملجأً لهم ليقضي لهم حوائجهم ومصالحهم الحياتية، فتحسنت صورة الرجل القروي في أنظارهم إلى حد لم يتصور حسين نفسه أن يتعداه في يوم من الأيام، إذ صار بحسب وصفهم التهكمي «ملك القصر الصعلوك»أو «الثوري القح النبيل»

وها هي ذي الأيام تمر وتأتي ابنة لهم بصعلوك آخر؛ ربما كان في نظرهم أكثر قحة من حسين والذين قبلوه على مضض في يوم من الأيام، ولكن ترى أي داع يدعوهم هذه المرة لقبول هذا الصعلوك الكفيف المدعو حربي الطحان، والذي كان يعمل والده عبد السلام علي قادوس الطحين في الأرياف فلُقِّب بالطحان، بل المؤشرات كلها تؤكد على أن هذا الشخص الوضيع يبدو مقطوعًا من شجرة كما يقولون، أي بلا عائلة ولا نسب ولا حسب ولا مال، فكان قرارهم طرد سما نفسها ليس من القصر ولكن من العائلة بأسرها، ولتمضي إلى البراري ككلب أجرب ضال مع الكلب الذي

تزوجت منه، هكذا راحوا يرددون، كما عقدوا النية على إخفاء هذا الأمر المشين بشكل مؤقت عن بولا الخالدي والتي كانت لم تزل بعد مقيمة في لندن عند ابنتها لمياء وزوجها الدبلوماسي المصري حامد عبد الرءوف. فكان وجود بولا في الصورة كفيلاً بجعل الحياة كلها تنقلب إلى جحيم دام، كما خشيت دينا على أمها المريضة بالقلب من أن ينزل عليها مثل هذا الخبر نزول صاعقة من السماء على جبل فتجعله دَكًّاء، كما أن بولا قد زادت حدة عصبيتها إلى حد لا يحتمل في الآونة الأخيرة وصارت مرتعشة اليدين مع ضياع حلمها بعودة أمجاد الماضي، غير ما حدث لابنتها سما ابنة الحسب والنسب وسليلة العائلات الكبرى بعد اتهامها بأبشع التهم التي تقير وجه تاريخ أي عائلة، فكيف يبلغ بها الحال إذن وقد تزوجت ابنتها من صعلوك رعديد جاءت به من الشارع المليء بالحثالات من البشر، ولتذهب كل الحجج التي قدمتها أو التي يمكن أن تقدمها سما إلى الجحيم.

ولقد كانت سما على علم مسبق بما سيدور من لغط وغضب وثورة عارمة في أبهاء قصر الزمالك المبهرة، وذلك لكونها كانت تعلم جيدًا إلى أي أسرة تنتمي، وأي عقلية ونفسية تحكمها، ولكنها كانت ماضية في تنفيذ قرارها المصيري بكل شجاعة وجسارة، وربما كانت متوترة في أعماقها من رد فعل العائلة

وطريقة استقبالهم لها ولزوجها، وبخاصة شقيقها ماجد وخالها عدنان والشهيرين بالحدة والعصبية المفرطة، وربما حمدت الفتاة الله في سرها لكون أمها كانت متواجدة في الخارج في تلك الأثناء. وبالرغم من كل هذه الوساوس التي كانت تقلقها وتقض مضجعها إلا أنها بدت متماسكة أو حاولت أن تبدو كذلك، لِمَ لا وهي تجد في نفسها الكثير من المبررات المنطقية للإقدام على ما فعلته، فلم تكن الأحاسيس فقط التي دفعتها للزواج من حربي بل إيمانها المطلق بضرورة ذلك، وهي الضرورة الأخلاقية التي لا مفر منها حيال هذا الإنسان الذي قدم أعظم ما يملكه المرء من أجل الانتصار للمبدأ والأخلاق.

●●●

obeikan.com

(١٦)

كانت سما قد عقدت عزمها على العيش في شقة مفروشة بالقرب من عائلتها مع زوجها وحبيب عمرها حربي، إلا أنها آثرت في البداية أن تقدمه لأسرتها، والإعلان عن كونها لا تخشى أن تزف خبر زواجها الشرعي ممن أحبت وهفا إليه قلبها الرقيق إلى العالم كله ثم ليكن ما يكون، ولقد كان ماجد بالفعل على رأس العائلة والتي وقفت صفًّا واحدًا في سبيل الفتاة وقد ولجت داخلة من باب القصر الحديدي الكبير وهي تقبض بحب جم على يد محبوبها حربي الطحان، وعلى الفور طارت النظرات الحارقة تمسحهما من فوق لتحت ومن تحت لفوق، فارتبكا بعض الشيء، وحاول حربي التراجع والذي رأى بعيني إحساسه الداخلي مظاهر الرفض والثورة العاتية التي كانت في انتظارهما؛ ولكن سما همست إليه أن يثبت في مكانه، وكطلقة الرصاص طائشة اندفع ماجد ناحية أخته، وشدها بعنف من شعر رأسها الكستنائي، وهو يصرخ كالمجنون في وجهها؛حتى تصل بها الجرأة إلى حد إحضار مثل هذا الصعلوك الدنيء ربيب الشوارع إلى قصر الخالدي الباشا، ذلك القصر الذي لم يدخله مخلوق قط غير العظماء

والمشاهير، وأَفينحدر به الحال في نهاية المطاف وحتى يصبح مثل هذا الكفيف القح ليس فقط أحد زواره، بل ربما أحد نزلائه وقاطنيه. لِمَ لا وإحدى بنات العائلات الكبرى وسليلة الحسب والنسب قد اختل عقلها وتزوجت من إنسان لا أصل له ولا فصل، ثم ها هي ذي تأخذه من يده بكل تحد وتقتحم على العائلة خلوتها الأسطورية، وتمضي به مختالة خلال أبهاء القصر العريق، فأي هوان هذا الذي لحق بذيل العائلة، وأي هوان ذلك الذي كان يلقاه وقتها الشاب الأسمر الفارع الطول حربي الطحان وقد وقف واجمًا مرتبكًا بلا أي حول أو قوة، بل ربما وقف متحاملاً على ساقيه النحيلتين المرتعشتين وهو يُمَنِّي النفس أن تنشق الأرض وتبتلعه، قبل أن يُنَفِّذُ عدنان الخالدي تهديده ووعيده بتفريغ رصاص مسدسه الذي رفعه هو الآخر وسدده مباشرة إلى رأس ذلك الفتى الغريب الحقير، ولكن سما كانت تراه عملاقًا شامخًا مثل جبل أشم لم تهتز شعرة واحدة في مفرق رأسه، كانت تنظر إليه كالمسحورة، وقالت وهي تخص بحديثها خالها العنيد الأرعن عدنان الخالدي:

- اقتله إن شئت، فمثله لم يهب الموت يوم وقف يدافع عن الحق وعني بل عنكم جميعًا، أفيهابه الآن بعد أن عرفني وصار واحدًا منا.

- اخرسي وإلا قتلتكِ معه، وسويت بكما التراب.

- اقتلنا، ولكن أي خطية تلك التي ستكلل رأس العائلة العريقة، وأي عار سيلحق بها وهي تقتل بيدها من خَلَّصَهَا للتو من العار والفضيحة.

- تقصدين خَلَّصَكِ أنتِ يا مجرمة.

- بل خلَّص واحدة منكم، واحدة شئتم أم أبيتم تحمل لقب ذات العائلة التي ننتمي إليها جميعًا.

- كل عائلة فيها الطيب والخبيث، انتماؤك إلينا لا يمثل أي عار يتوجب أن تتحمله العائلة على كاهلها، بقاؤك بيننا بعد جلب العار هو عين العار نفسه الذي من المستحيل أن تقبل به عائلتنا.

- عائلتنا عائلتنا عائلتنا، أفيقوا من الأوهام أيها السادة، دماؤكم ليست زرقاء، ألم تعلموا بعد أنه لا توجد دماء زرقاء، هي محض أسطورة سخيفة اختلقها شواذ النفوس من أجل السيطرة على الآخرين، هيه، انتبهوا فقط إلى الأطلال التي تحمل وجودكم المرتعش، اليوم فوق الأرض وغدًا في باطنها، رميم يغشى رميم، فأي سيد هذا وأي عبد ذاك! هممم هل من مجيب؟ بل من يقدر أن يجيب إذا صارت الأجساد كلها خليط من الثرى والدود والقذر والنمل والنبلاء والبلهاء...

وهنالك قاطعها عدنان بحدة قائلاً:

- أنتِ ترددين عين الحديث التافه النجس الذي ظل يردده لسنوات طوال من بث فيكِ منذ البداية دماء الفلاحين والغوغاء؛ حتى صرتِ واحدة منهم، بل أكثر وضاعة من أي وضيع فيهم.

- أحسبك تقصد يا خال الرجل الذي عشت ترتع طويلاً في كنفه وخيره تحت سقف بيته.

- اخرسي.

قالها عدنان وهو يلطمها بيده الغليظة كالمطرقة على خدها، لطمة كانت قاسية للغاية أسقطت سما أرضًا وأسفل قدمي حسين القاياتي مباشرة، والذي انشقت الأرض عنه فجأة وقد هم يأخذ بيدها وهو يقول بإعياء شديد:

- البنت لم تخطئ يا عدنان حتى تصفعها مثل هذه الصفعة القاتلة.

- بل أخطأت، ولسوف يكون مصيرها الموت المحتم إذا لم تأخذ هذا الكلب الأجرب وتمضي به من هنا في الحال.

كان ماجد هو من قال هذه العبارة وقد وقف شاهرًا فوهة مسدسه في اتجاه حربي، ولكن سما نهضت مسرعة وراحت تقف كحائط صد بين شقيقها الأرعن وبين زوجها البائس والذي بدا في غاية الذهول، كان حسين القاياتي لحظتها يكابد آلام كثيرة اعتورت نفسه منذ زمن ليس بالقريب، ولكنها استفحلت في الآونة الأخيرة ومع مرور ابنته سما بتلك السلسلة المتلاحقة من النكبات، وربما كان يعلم في قرارة نفسه أن زواج ابنته المفاجئ من ذلك البائس المدعو حربي هو كارثة بكل المقاييس، ولكن ماذا عساه يفعل حيال الأقدار التي ساقت ابنته إلى مثل هذه الحال العجيبة، بداية من التهمة البشعة التي ألصقت بها ظلمًا؛ وانتهاءً باهتدائها الأسطوري لمن كان سببًا في نجاتها من حبل المشنقة. بل كيف يقف حائلاً بينها وبين من وهبها، بل وهبه هو نفسه الحياة من الجديد، وبعد أن صعدت في كليهما الروح إلى الحلقوم، وكانا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، ولكن يا لها من معادلة صعبة إن لم تكن مستحيلة حين يجد المرء نفسه مخيرًا بين أمرين أحلاهما مُرٌّ، ومن ذا الذي يمكنه أن يقبل لابنة الحسب والنسب والمال والجمال ذاك البائس المجهول المعدم الكفيف؟ ومن تراه يقوى على مواجهة دموع الفتاة وقد ركعت تحت قدمي والدها ترجوه ألا يقف في سبيل تلك الزيجة، وسؤالها المشوب بكل أشكال المنطقية الوجيهة؛ والواقعية العنيدة يوم سألته:

obeikan.com

- أيهما كنت ستختار يا أبتِ ابنة قُتِلَت ظلمًا لأن العدالة فشلت في إظهار براءتها، أم ابنة تطوعت مخلصة ترد شيئًا من الجميل لِمُخَلِّصها وبطلها الأسطوري، ابنة آلت على نفسها ألا تدع من ضحى بحياته من أجلها نهبًا لحياة الظلام والفقر والهوان، فهي وإن لم تفلح في إعادة النور إلى عينيه اللتين انطفأتا من أجلها؛ فلا أقل من أن تبث في قلبه عناقيد من نور الأمل في الحياة، وأن تضحيته لم تذهب هباءً على يد حفنة من الأوغاد والأنذال، وأنها من المحال أن تكون أقل إنسانية منه.

ويا له من حديث ممتد دام طويلاً بين الأب وبين ابنته، والذي راح حسين يجتره في نفسه لحظة وقوفه محنيًّا عند الأريكة، وهو يجيل عينيه الكليلتين في تفاصيل تلك الصورة العبثية، صورة كانت تستدعي من داخله البطل القديم الذي صال وجال طويلاً من أجل الفقراء والبؤساء، فماذا أصابه حتى يقف مثل هذا الموقف الضعيف الآن؛ وهو الذي لم يكره في حياته غير الضعفاء والمتخاذلين والعاجزين عن نصرة الحق والعدل والضعفاء والمعوزين، بل تُرى من يقف الآن في موقف العاجز والضعيف المحتاج بكل تأكيد لمن يدعمه ويحميه من أولئك المنفلتين عصبيًّا؟ بالطبع ليس مخلوقًا عاديًّا! وإنما المخلوق الذي فاق الجميع مكانة وحبًّا في نفسه.إنها

ابنته وكل شيء في حياته، أفيصح أن يخذلها ويتخلّى عنها وهو الذي لم يتخلَّ في حياته قط عن محتاج أو لاجئ إليه، وهل من المعقول أن تطرد على عين حياته ابنته الحبيبة إلى نفسه وقلبه من بيته على هذا النحو المشين، وعلى يد من شقيقها! كانت بلا شك لحظة فارقة وحاسمة في تاريخ العائلة التي راحت تغتال براءة الابتسامة الرائعة التي تلألأت طويلاً في مُحَيّا ابنتهم التي انقلبوا عليها في لحظة، وراحوا يحكمون عليها وعلى زوجها بالموت الزؤام، وهنالك انتفض حسين ثائرًا في نفسه وإن قال بهدوء جم ليحسم الجدل الدائر، وقد مَدَّ يده مباعدًا بين فوهة المسدس الذي يمسك به ابنه ماجد وبين ابنته سما وزوجها الذي وقف متواريًا في حماها:

- ليُصْغِ إليَّ الجميع.

ثم التفت في اتجاه ماجد وكأنما يخصه بالحديث وحده دونًا عن الجميع:

- أختك ساقت لي مبررات كثيرة، مبررات قد نختلف في كونها واهية أو منطقية، وأن حربي الطحان بطلٌ وفارسٌ أو محض إنسان عادي ساهم بالصدفة في براءة فتاة وعائلتها من العار والفضيحة، ولكن يبقى أنها قد اختارت بمحض مشيئتها الحرة المضي في سلك الرهبنة في محراب الزوجية، هو قرار

مصيري يخصها هي وحدها ولا يخصنا نحن، هي استأذنتي بخصوص هذه الزيجة، وأنا والدها قد قبلت وإن كان على مضض.

- مثل هذا القرار الخطير لا يليق أن تنفرد به وحدك يا سيد حسين، إنه شأن العائلة بأكملها، والتي لن تقبل بحال من الأحوال وجود هذه المارقة بينها.

فنظر حسين قائلاً لعدنان الخالدي الذي قال ذلك للتو بعصبية مفرطة:

- يبدو أنك لم تسمعني جيدًا، لقد قلت ليُصْغِ إليَّ الجميع، لأنني لم ولن أفتح حوارًا للمناقشة في شأن يخص ابنتي وحدها.

- ماذا تقصد بالضبط؟

- أقصد أن ابنتي جاءت اليوم زائرة فقط، بهدف عقد أواصر الود والمحبة بينها هي وزوجها وبين حضراتكم وهي عازمة في نفسها على الرحيل.

ثم صمت قليلاً وأردف قائلاً كمن يلقي بقنبلة باردة على الجميع:

obeikan.com

- ولكنها نزولاً على رغبتي سوف تبقى في بيتها ولن ترحل، وأظن أنه لا يليق بك أنت يا سيد عدنان أن تتصور خطأً أن الضيوف يبقون وأصحاب البيوت هم الذين يرحلون.

فوجئ عدنان ومن حوله من أفراد العائلة بهذه اللهجة الجديدة التي لم يتكلم بها معهم حسين القاياتي من قبل، كانت كلماته قليلة ولكنها كانت قاطعة ووقعها أثقل من جبل طور سيناء نفسه على رءوسهم ، فقال عدنان محتداً:

- حسين، هل جننت، من المؤكد أنك قد شخت وتهذي، حتى أنك نسيت من هم أصحاب البيت الأصليين ومن هم اللصوص الذين جاروا على كل شيء.

- أمسك عليك لسانك يا هذا، وحذار من التجاوز معي أكثر من ذلك.

- أظن أنك أنت من تجاوز الحد كثيرًا يا سيد حسين، كما أظن أنه لن يقف في سبيلك وفي سبيل تصرفاتك الرعناء أحد غيري أنا.

تطلع حسين طويلاً إلى قائل هذه العبارة الأخيرة والحسرة تملأ عينيه، وهزَّ رأسه بأسًى شديد قائلاً فيما يشبه الهذاء:

- آه يا ابن أمك، من صلبي ولحمي ودمي، ولكنك كنت دومًا بعيدًا عني، غريبًا عليَّ، بل عدوًا يتربص بي الدوائر.

كانت سما لحظتها منهارة وهي ترى عائلتها وقد استلت خناجر الغضب من صدورها، وراحت فيما يبدو تتأهب للحظة كانوا ينتظرونها طويلاً، لحظة الانقضاض على حسين القاياتي والدها المريض الذي انزوى جانبًا، وارتكز فوق ساق رعشاء وأخرى كانت تغوص به من الوهن في أرض البهو الجرانيتة الحمراء، كانت أنفاسه قد ضاقت عليه تمامًا، وقد مرق كالبرق بخاطره شريط الذكريات، وكيف عاش بينهم نعم الرفيق لهم، وخير زوج راع لابنتهم وأبنائها، وكيف بذل جهدًا خارقًا كي يحافظ لهم على مجدهم العائلي الغابر، وكيف استفاد منه الجميع، بل سمح لبعضهم بالتسلق على كتفيه حتى بلغوا مرادهم الذي كان يسعون إليه ويخططون له دائمًا، حتى ماجد نفسه لم يكن ليصل لهذا المنصب الرفيع في الدولة من غير مؤازرة والده واسمه وتاريخه الحافل بالنضال والذي كان بمثابة المفتاح السحري للكثير من الأبواب المغلقة التي فتحت له. وها هي الأيام تمر ويقف الابن الناكر للجميل ضد أبيه ومناصرًا لعائلة أمه المتمردة على الحياة والواقع، كانت كلمات ماجد أشبه بالخنجر الذي نُكِتَ في قلب الأب مباشرة، وكانت نظراته أشبه بفوهة مخيفة انشقت فوق قمة جبل

عالٍ وانبعثت منها ألسنة النار الحارقة، فلم تجد سما مفرًّا غير التدخل السريع لفض الاشتباك، ومحاولة الفتك المتعمد بوالدها الذي تملكه الوهن تمامًا، وأصابته الصدمة في مقتل، فوقفت بين الجميع وهي تشد حربي من ذراعه معلنة عزمها الرحيل، الرحيل الأبدي، ولكن آنذاك حدث ما لم يكن يتوقعه أحد بالمرة.

●●●

obeikan.com

(١٧)

كان نعيم الضو مُلِمًّا بالكثير من تفاصيل الأحداث التي دارت في العلن وربما في السر أيضًا داخل أبهاء قصر الزمالك العريق، تلك التفاصيل التي بنى عليها الكثير من التوقعات والاستنتاجات، وكان من بين ما توقعه أن يحدث مثل هذا الصدام العنيف في لحظة ما، فهيَّأ نفسه للتدخل في الوقت المناسب من أجل مساندة صاحبه البائس المريض حسين القاياتي، وها قد حانت تلك اللحظة، وها قد حانت في الوقت ذاته لحظة نزوله إلى أرض المعركة. ولم يكن مجيء نعيم صدفة كما تصور الجميع بما فيهم صاحبه المستشار نفسه، بل جاء نعيم بناءً على أخبار وصلته من قلب القصر بواسطة رجله المخلص بيومي النمس موظف الأمن الذي يقف مع الحراسة عند البوابة الخارجية، ولم تَبْدُ على نعيم علامات الحدة والغضب لحظة وُلُوجِه إلى داخل بهو القصر الكبير، بل كان هادئًا للغاية، وخطواته الرصينة تبدو متزنة وفي غاية الثبات وقد اتجه رأسًا إلى حسين القاياتي وقال وكأن الأجواء الملتهبة من حوله لا تعنيه من قريب أو بعيد:

Obeikan.com

- معـذرة حسـين بـك، السمسـار الإنجليـزي لـم يمهلنـي فرصـة للانتظـار وتحديـد موعـد للحضـور، لقـد طيـر النـوم مـن عينـي بكثـرة إلحاحه علـيَّ في الآونـة الأخيـرة بعد رفـع المشترين سقف البيـع إلـى مليـار دولار.

نظـر حسـين بدهشـة بالغـة لنعيـم والـذي لـم يدعـه ينطـق بحـرف واحـد واسـتطرد قائـلاً وهـو يوجـه حديثـه للجميـع:

- يـا لهـا مـن صدفـة رائعـة أن أزف هـذه البشـارة العظيمـة في وجـود كل أفـراد العائلـة تقريبًـا، وأظـن أن مبلـغ المليـار دولار مناسـب تمامًـا كثمـن لهـذا القصـر البديـع وحديقتـه الهائلـة، وكل مـا نحتاجـه هـو مجـرد التوقيـع باسـمك يـا سـيد حسـين.

كانـت كلمـات نعيـم صادمـة ومفاجئـة للغايـة بالنسـبة للعائلـة بأكملهـا، كمـا بـدت كرسـالة مباشـرة لهـم؛ وأن سـيد هـذا القصـر الحقيقـي هـو ذاك القـروي القـح الـذي يقـف بالكاد على سـاقيه وليس هـم أصحـاب الياقـات العاليـة، والحـق أنهـم كانـوا يعرفـون جيـدًا منـذ قـديم الزمـن مـن هـو صاحـب هـذا القصـر، والـذي بمحـض إشـارة منـه يمكـن أن تنقلـب بهـم الأوضـاع كلهـا ويصبـح حالهـم غيـر الحـال؛ وبخاصـة بعـد هـذا الخبـر القنبلـة الـذي فجـره منـذ قليـل محاميـه الداهيـة نعيـم الضـو، ولكنهـم كانـوا يرتكنـون كعادتهـم علـى أخـلاق الرجـل وزهـده في الحيـاة بـل في كل شـيء، ولكـن مـن كان يدريهـم أن

يستمر الحال على ما هو عليه، وماذا سيكون مصيرهم إن تغيرت الأحوال وأصبحوا خارج القصر لا داخله. ولاشك أن كل واحد منهم راح يفكر في الأمر من زاويته الخاصة وبحسب قانون المنفعة الذاتي، والذي يترجمه العامة بالمثل الشعبي الشهير: «أنا ومن بعدي الطوفان» فمنهم من كان سيخرج من الأمر برمته بخفي حنين لكونه لا يملك ذرة واحدة من تراب هذا القصر الهائل المساحة، وعاش قدر ما عاش في هذا القصر مرتكنًا على أخلاق صاحب القصر وسماحته المثالية لا أكثر، ولهذا راح هذا البعض المفلس يقاتل ويناور ويداور بدعوى تاريخ ومجد العائلة، أما البعض الآخر وممن علم جيدًا أنه سوف يناله الشيء العظيم من الثروة والمال لصلة الدم التي تربطهم بصاحب القصر فقد شخصوا في داخلهم، وراحوا يحسبون حظهم من هذه الثروة الهائلة التي قد يحوزونها من خلال أبيهم السيد الكبير لهذا القصر. ولعل ماجد الابن الأكبر كان أول من بانت على ملامحه علامات الانقلاب إلى النقيض في موقفه المتعسف إزاء أبيه وشقيقته المارقة وزوجها الشعبي، بل من كان يملك وقتها القدرة على الملاحظة القوية لأدرك على الفور كم تباعدت المسافة بين ماجد وبين خاله عدنان الخالدي أقرب الأقرباء إليه فكرًا وسلوكًا، وكيف ضاقت جدًّا المسافة التي كانت تفصل بين الابن المتمرد وبين أبيه حسين القاياتي، ولعل هذه البلبلة وهذا الاضطراب وتفريق الصفوف،

وتغيير معالم الخريطة العائلية المتماسكة ظاهرًا إلى النقيض هو ما سعى إليه منذ البداية نعيم الضو؛ والذي راح يلعب كالثعلب الماكر على هذا الوتر طويلاً، وقد مضى مختالاً بين الصفوف وهو يقول بلهجة حكيم ناصح وهو يبث السم الزعاف نفسه في طوايا عباراته:

- أعرف جيدًا أن وراء جدران هذا القصر العريق تاريخًا خالدًا، ومجدًا عظيمًا، وأحاسيسًا سامية لا يمكن وصفها، ولكن الواقع في الخارج له أحكامه القاسية التي تدمر أي تاريخ ومهما كان خالدًا وعظيمًا وساميًا، هيه الحياة أصبحت غابة كبيرة يأكل فيها القوي الضعيف، والقوي في هذا الزمان هو من يملك المال وليس أي شيء آخر، وأحسب أن الأبناء سوف يلومون والدهم طويلاً إن ضيع هذه الفرصة الذهبية؛ لأن الثمن الفعلي للقصر من المحال أن يصل إلى مثل هذا المبلغ، ولكنها المضاربة بين المتنافسين على شراء هذا القصر التاريخي العظيم هي التي رفعت ثمن القصر إلى عنان السماء، ولكن لِمَ لا نعيش على الأمل، وأن نوفق في البيع بهذا المبلغ الأسطوري.

صمت نعيم لفترة طويلة أجال خلالها البصر في جموع الواقفين من حوله، ولعل ابتسامة خافتة لاحت أثناء ذلك على

وجهه وهو يرى آثار الانقسام الجم الذي أحدثه معول كلماته في جمعهم، ثم استدار بكليته ناحية حسين وقال:

- ولعلك يا سيد الكلمة في هذا القصر لن تبخل على أبنائك بحيازة مستقبل أفضل لهم ولأبنائهم، كما أنني أتصور أنك وأنت المعطاء الجواد دائمًا لن تتخلّى عن العائلة الكبيرة بحال من الأحوال.

كانت هذه الجملة الأخيرة كفيلة بوضع كل شخص في القصر عند حده الطبيعي، لِمَ لا وقد علم كل فرد في العائلة أن مصيره قد يكون الشارع بين ليلة وضحاها، وأنه لم يعد له غير أمل واحد في الحياة وهو أن يواصل السيد العطاء والإغداق عليهم من عطفه، وفيض خيره العميم، ويا له من أمل قاتل أن يقترن وجود المرء في الحياة بانتظار النعمة ممن يمقته وهو يطوي الكثير من الغلّ والحقد في نفسه تجاهه، وهي ولا شك الغصة التي ألقاها نعيم الضو في حلوقهم وقد أجبرهم على الانصراف الصامت إلى مضاجعهم المشتعلة بنيران الغضب والضيق. وأصبح بقاء سما القاياتي وزوجها حربي الطحان في القصر قرارًا وأمرًا نافذًا على الجميع كالسيف.

وفي هجعة الليل وقد لاذ الجميع بغرفهم يوارون فيها أكبادهم التي تحترق غيظًا، دوت في حجرة نوم حسين القاياتي قهقهة

عظيمـة، كان صاحبهـا نعيـم الضـو الـذي وقـف في منتصـف سـاحة الحجـرة الفسـيحة وهـو يمـط شـفتيه للأمـام ويضـرب كفًّـا بكـف علامـة أنـه لا يوجـد بالمرة شـيء من هـذا القبيل، فنظـر إليـه حسـين القاياتـي مـن تحـت غطائـه الثقيـل بدهشـة وهـو يحـاول الاسـتواء جالسًـا، فقـال نعيـم:

- صحيـح أنـه لا يوجـد سمسـار إنجليـزي أو مشـترٍ أو مليـار دولار، ولكـن يوجـد سـيد واحـد لهـذا القصـر، هـو أنـت بـكل تأكيـد، معالـي المستشـار هـذه هـي الرسـالة التـي أردت إيصالهـا للجميـع الليلـة.

- بالكذب بالخداع!

- مـا يدهشـك في أمـر كذبـة صغيـرة أطاحـت بعـروش الكـذب المهولـة التـي تعشـش في هـذا القصـر منـذ زمـن بعيـد، أم تـراك لـم تنتبـه إليهـم وقـد انقلبـوا علـى بعضهـم البعـض، الـكل ظهـرت حقيقتـه، والسـيد ماجـد أقصـد سـمو البرنـس ماجـد القاياتـي الـذي كان أول مـن رفـع السـلاح في وجـه أختـه، وبعـد كذبتـي البريئـة هـذه كان أول المرحبـين بهـا وبزوجهـا الصعلـوك حربـي الطحـان.

نظر حسين بحيرة بالغة في اتجاه صاحبه وقال وهو يتنهد تنهيدة طويلة:

- هيه عجيب أمرك حقًّا يا صاح، تتحدث في تفاصيل دقيقة كما لو كنت مقيمًا معنا هاهنا.

ضحك نعيم طويلاً ثم قال بدهشة مصطنعة وهو يجلس بالقرب من الفراش الذي يرقد فيه صاحبه:

- كما لو كنت! هه لا عليك بي، ما يهمني حقًّا أن تجدني إلى جانبك في الوقت المناسب.

- تقصد في اللحظة التي أنهزم فيها.

- لا تسمِّ ما حدث هزيمة، ولكن مثالية تودي بصاحبها إلى نتائج غير مثالية بالمرة.

- الهزيمة التي أعنيها ليست أمام العائلة بجلالة قدرها، ولكن أمام ابنتي والتي وقفتُ أقاتل من أجلها، وأنا أكثر الجميع رفضًا للحماقة المقيتة التي ارتكبتها في حق نفسها قبل أي إنسان آخر.

- هيه وأية حماقة.

- ولولاها لكشفت اليوم في قلب البهو الكبير أنك محض مهرج كبير يلهو بالمليارات وهو مفلس خالي الوفاض.

- ...!

- نعم من أجلها سكت، ومررت مزحتك السخيفة وألاعيبك العبثية كي تبقى سما في القصر تحت ناظري.

بانت علامات الدهشة في وجه نعيم الضو، وأنزل ساقه من على ساقه الأخرى وقال باستغراب جم:

- لقد تصورت أن كذبتي قد انطلت عليك أيضًا كما انطلت على الجميع.

- بغض النظر عن كونك كنت كاذبًا أم صادقًا، فإن ما أعنيه أن أُعَيُنَك - التي أعرف جيدًا منذ زمن أنك تبثها من حولي في كل مكان - قد عجزت عن كشف حقيقتي كلها لك.

ابتسم نعيم ابتسامة باردة وقد حَيَّرته لغة الألغاز تلك التي يتحدث بها حسين القاياتي، وتململ في جلسته وبدا كمن يجلس على الشوك، وقد تعلقت عيناه بشفتي حسين الذي شرع يواصل حديثه الغامض قائلاً:

- لعلك مندهش لوصفي إياك بالمهرج الكبير، وذلك لأنه قد فاتتك الحقيقة الأهم أيها الصديق الصدوق وأنت تتحدث بثقة عمياء عن سيد هذا القصر؛ لأن أعينك التي تدسها في القصر وربما في حجرة نومي، هي محض أعين عمياء بكل

تأكيـد.

صمـت حسـين طويـلاً ثـم اسـتطرد قائـلاً كالشـارد وكمـن يلقـي بقنبلـة داويـة في قلـب السـكون الدامـس الظـلام:

- هيـه لقـد كنـت في الحقيقـة تتحـدث عـن سـيد وهمـي لا السـيد الحقيقـي لهـذا القصـر.

●●●

opeikan.com

(١٨)

أزاحـت كذبـة نعيـم الضـو السـتار عـن حقيقـة الكثيريـن ممـن عاشـوا لسـنوات طـوال تحـت سـقف مـكان واحـد وكأنهـم لا يعرفـون بعضهـم البعـض، كان أكثرهـم يعيـش مُقنَّعًـا بوجـه كاذب غيـر وجهـه الحقيقـي الـذي يخفيـه في سـريرة نفسـه، والآن هـا هـم يسـيرون عـراة النفـوس وإن ارتـدت أبدانهـم أكثـر الملابـس فخامـة ووجاهـة، وكان عدنـان الخالـدي الـذي أمسـى مؤمنًـا بالمجـد والتاريـخ العريـق؛ قـد أصبـح تحـت مطرقـة الواقـع الجهنميـة كافـرًا بـكل مـا يعتقـده، ولبـس بيـن ليلـة وضحاهـا قنـاع النفـاق والتزلـف، وراح يتحـدث عـن الواقعيـة البنـاءة، وأنـه لا بـأس مـن الانحنـاء حتـى ملامسـة الأرض بالجبـاه إذا هبـت عاصفـة الحيـاة العاتيـة؛ لأنـه إذا كان لا مفـر مـن مـرور العاصفـة فـلا مفـر أيضًـا مـن الانحنـاء أمامهـا حتـى لا تحصـد مزيـدًا مـن الـرءوس المعانـدة المتطايـرة. فقديمًـا اشـتعلت النيـران في النسـوة اللائـي اختشـين مـن شـدة الحيـاء، بينمـا نجـت مـن حريـق حمـام الثلاثـاء الشـعبي الشـهير النسـوة اللاتـي لـم يسـتحين ولـم يخجلـن مـن أن يخرجـن مـن الحمـام إلـى الطرقـات عاريـات، لقـد جئنـا إلـى الدنيـا عـراة ولسـوف نخـرج منهـا أيضًـا عـراة هـذه حقيقـة لا تجعـل مَلِـكًا

يبكي على حلته وطيلسانه، ولا شيخًا على جبته وعمامته، كما لا يجب أن نبكي نحن على مجد فانٍ وتاريخ غابر، ومادام لا مفر من مرور عاصفة الخطر فلماذا لا نتلون كالحرباء بألف لون حتى نحيا. وماذا يمنعنا من ارتداء أقنعة شتى من أجل بلوغ هدف واحد، ثم ما الخطأ في «الميكافيلية» التي قالت بأن الغاية تبرر الوسيلة وبخاصة أن غايتنا هو العيش في الحياة وليس امتلاكها، فإذا امتلك خصمك الحياة فما المانع من مصانعته ومخادعته حتى مجيء اللحظة المناسبة والتي تنقض فيها على عنقه وتخنقه الخنقة القاضية، وتنتزع منه الحياة لنفسك انتزاعًا، وهكذا باتت هذه هي فلسفة عدنان الخالدي والتي ربما فاق بها فلسفة ابن أخته من حيث الأثرة والأنانية الذميمة. أجل لقد كانت هذه هي فلسفة ماجد القاياتي في الحياة منذ البداية؛ وحيث استولت عليه تمامًا فكرة تحقيق المجد القديم من طريق المال والثروة العظيمة، أما خاله فلقد كان جل همه في يوم من الأيام ألا يُطرد إلى عرض الطريق هو وأسرته إذا جاء من يبتاع هذا القصر التاريخي، ليس هذا فحسب كان حلمه وهدفه، بل كان من بين ما سعى إليه أن يظل محافظًا على حياة العربدة والمقامرة والمغامرات العاطفية السرية، والتي كان حسين القاياتي يمولها عن طيب خاطر وربما بغير دراية منه، أما اليوم فقد تغير عدنان إلى النقيض، وجرى ريقه الناشف كلما دوى في أذنيه رقم المليار دولار، فقرر أن يكون

منافقًا إلى أبعد حد ممكن وكي لا يخرج من المولد بلا حمص كما يقولون، ولهذا راح عدنان يزاحم ابن أخته ماجد القاياتي في مشهد الحفلة التنكرية الهزلي والتي يرتدي فيها المرء قناعًا غير وجهه الحقيقي. ليس هذا فحسب بل جرفه الشطط إلى حد امتداح ثورة يوليو، وأخذ يهتف بحياة أبطالها الذين قضى أكثرهم نحبهم، وأن مصر والعروبة قد خسرت الكثير بموت الزعيم الراحل العظيم جمال عبد الناصر، وأن ثورة يوليو كانت أقوى من أية ثورة مضادة، وإن حدث وثار الناس في يوم من الأيام فليس هذا إلا من قبيل تنشيط الثورة الأم بثورة أخرى، ثورة تكون مُجَدِّدَة لا مُغَيِّرَة للمبادئ الرصينة التي أرستها ثورة يوليو المجيدة، وهنالك ضحك حسين القاياتي القابع في فراشه ضحكة ساخرة وهو يتابع حديث عدنان المندفع كالصاروخ وقال مقاطعًا إياه بسؤال مباشر:

- ولكنك كنت تتحدث كثيرًا عن ثورة تنقلب على الضباط الأحرار وتعيد مجد الإقطاع الغابر؟

- أنا!، لا لا، ربما أختي بولا، زوجتك هي التي كانت تنتظر مجيء مثل هذا اليوم بفارغ الصبر والذي أظنه لن يأتي أبدًا.

وهنالك شرد حسين طويلاً في لا شيء؛ وقد نشط حديث عدنان الخالدي على ما يبدو إحساس ما في داخله، ذلك

الإحساس الذي كان يراوده دومًا، إحساسه الثوري بماهية الثورة الحقيقية، ولكن أكثر الناس لا يفهمون ماذا تعني الثورة، وماذا ينبغي عليها أن تفعل، وإلام يصير الحال بعد مجيئها، فالثورة فكرة وليست مجرد حركة غاضبة تضرب بأيادي البطش كل من يعترض سبيلها، هي فكرة سلمية أخلاقية ولكنها أقوى في وسائل مواجهتها وفرض أحكامها من دانات مدافع الدنيا بأسرها. ويوم تَقَبَّل الكثير من المصريين ثورة يوليو فإنما لكونها فكرة كانت عاقدة العزم على التغيير السلمي للأفضل، أو هكذا التمس فيها بعض الناس حسن النية، بل حسين نفسه ظنها كذلك، وعاش عمره كله يبث فيها روح الفكرة الأم كي تبقى، ولكي يزول إلى الأبد شبح المجتمع الذي بعضه حفنة من الأسياد الأثرياء وأكثره من العبيد الأقنان الفقراء، وعندما رصد في بعض الأوقات مظهر من مظاهر الانجراف بعيدًا عن مبادئها طفق يعيدها إلى سبيلها السوي، ويضيق الخناق على الانتهازيين وأصحاب المنافع الشخصية ممن يحاولون الانحراف بها عن أصولها، ولكن ها هو راقد الآن كجثة هامدة في فراشه أمام شاشة التلفاز التي تبث كل ما يدعو إلى الحسرة والرثاء، ولعله أحس لوهلة ما أن الجميع قد أخفوا وجوههم بذات القناع الذي يرتديه الآن عدنان الخالدي وكذلك ابنه ماجد وغيرهما من أفراد العائلة. صحيح أن الأقنعة تختلف من شخص لآخر؛ ولكن الأشخاص كلهم قد باتوا

يخفـون تحـت أوجههـم المزيفـة التـي يلبسـونها أوجههـم الحقيقيـة، يـا للعـار ويـا للشـنار، هكـذا راح يـردد حسـين في نفسـه وهـو يـديم النظـر إلـى عدنـان، ويتسـاءل كذلـك: أَبَلَـغَ الرجـل هـذا الحـد مـن الغبـاء حتـى يتصـور أننـي لا أعرفـه علـى حقيقتـه وأنـه محض أَفَّـاق منافـق، أم تـراه يحسـبني المائـدة التـي يقامـر عليهـا وهـو ونصيبـه، فـإن ربـح فخيـر فعـل، وإن خسـر فالخسـارة شـر كان يتوقعـه وبمـا يفـوق الاحتمـال نفسـه، وأنهـا آتيـة لا ريـب في ذلـك، ولكنهـا الرغبـة الذميمـة في المقامـرة ولـو بالشـرف والمبـادئ العصمـاء ذاتهـا؟

ولعـل سـما القاياتـي كان أكثـر مـا يعجبهـا في فتاهـا الضريـر أنـه بـلا أقنعـة يضعهـا علـى وجهـه، اللهـم إلا قنـاع الغضـب الظاهـر والـذي يخفـي بـه بـراءة طاهـرة تنضـح بهـا مـن الداخـل نفسـه الشـفافة غيـر الملوثـة، وكثيـرًا مـا كانـت تتأمـل في وجهـه وهـو نائـم كأم تنظـر مبتسـمة إلـى وجـه طفلهـا البـريء وهـو يغـط في النـوم العميـق، وكثيـرًا مـا شـردت طويـلاً في حالهـا وإلام كان سيصبـح مصيرهـا لـو لـم يظهـر هـذا الفـارس في الوقـت المناسـب، ويضحـي بحياتـه مـن أجـل إظهـار براءتهـا ونقـاء سـريرتها، فحياتـه لـم تهمـه كثيـرًا، بـل تصـرف كمـا لـو كانـت حياتـه لا تعنيـه بالمـرة، هكـذا يقـول واقـع الحـال. وأن فيديـو براءتهـا كان ثمـن ظهـوره هـو ثـورة شـياطين الأرض ضـده، وأن عصابـات التهريـب الكبـرى لا ترحـم؛ وبخاصـة تلـك التـي يكـون

obeikan.com

محركيها أشخاص سريون ولكن لهم وضعهم المعتبر في المجتمع؛ ويخشون من افتضاح أمرهم، وظهورهم على حقيقتهم المشينة أمام عامة الناس، والذين اعتادوا أن يبدو أمامهم كقديسين وليسوا كمجرمين ومهربي مخدرات، ولا ريب أن هذا الفتى الوطني الجسور قد واجه هذا النوع البغيض من العصابات المسلحة، والتي هبت تنتقم لنفسها منه بلا رحمة وحاولت إخراسه إلى الأبد؛ ليس هو وحده فحسب بل كل من تُسَوِّل له نفسه أن يكون شريفًا وحريصًا على مصلحة الوطن وأبنائه. ولم تشك سما للحظة في دقة استنتاجاتها، وأن فتاها المغوار وربما من سوء طالعه قد وقع على هذا النوع من العصابات التي يحركها من الخفاء أفراد من صفوة وأكابر المجتمع؛ وإلا ما السر في هذه المماطلة التي تبدو متعمدة في خط سير العدالة، ومن تراه يعطل سير الأحداث أو يمضي بها هكذا إلى السراب، بل من يتصفح الجرائد والمجلات ويحاول تقصي أخبار هذه القضية من وسائل الإعلام المختلفة، والتي كانت إحدى بطلاتها في يوم من الأيام سوف يخيل إليه أن القضية قد حفظت إلى الأبد، أو أنه في حقيقة الأمر إنما يبحث عن سراب لا وجود له من الأصل!

تنهدت سما تنهيدة ساخنة وهي تمسح على شعر رأس حبيبها الجعد وعيناها تدوران في محجريهما حوله، وراسمة في الوقت

ذاته إطار وجهه الخارجي ذي الذقن الرفيعة المدببة بشعاع من نور عينيها المفعم بالحب والإكبار، ولكنها فجأة أحست به يمسك عنقه بيديه، ويرتجف ويتقلص في نفسه، وينكمش ويتمدد، وتصدر عنه أصوات رعب، وأَنَّات فزع دفين وكمن لبسه جني أرعن، وبسرعة البرق الخاطف راحت تجفف عرقه الذي أغرق مُحَيّاه الأسمر، وهي تهتف به أن يستيقظ، فهب الفتى من نومه صارخًا، فقبضته بسرعة خاطفة إلى صدرها، وضمته بشدة إليها وهي تلثم بشفتيها الناديتين الحمراوين كل أنحاء وجهه، بل كل خصلة من خصلات شعر رأسه قائلة:

- لا تخش شيئًا يا حبيبي، أنا بجوارك ولن أتخلَّى عنك أبدًا.

ولكن فجأة عقدت مفاجأة ما لسانها عن المضي في الحديث أكثر من ذلك، وشهقت شهقة كتمتها بسرعة بيدها، كان حربي الطحان يبدو أمامها آنذاك كمن يجلس في بركة من المياه، وقد تبلل الفراش من تحته تمامًا وفاحت رائحة كريهة في المكان، وهنالك بكى حربي بكاءً مريرًا كطفل صغير وهو يقول:

- ألم أقل لكِ من قبل أنني مجرد بعوضة حقيرة هائمة في الوجود.

- لا، لا تقل هذا، أنت بطل ومثلك كان يستحق التكريم لا أن يكون هذا هو حاله.

- هه بطل يبول في سرواله وهو نائم، يا لفضيحتي، يا للعار، لقد انتهيت، لقد انتهيت.

قالها وهو يلطم على خديه، وقد دخل في نوبة عصبية حادة، ولكن سما اندفعت مسرعة تأخذ بيده بعيدًا عن الفراش وهي تقول مطيبة لخاطره:

- لا تقلق يا حبيبي، لا تقلق، أنت بخير، ولا توجد فضيحة في الأمر بالمرة، كلنا قد نمر بمثل هذا الموقف، فما بالك أنت أيها البطل وبعد كل ما مررت به من محن، لا تستهن بما أصابك وبما قد يصيبك مستقبلاً، أنت تعرضت لمحاولة قتل جنونية والله وحده هو الذي شاء أن تبقى حيًّا، أجل أنت بقيت من أجلي، من أجلي أنا فقط وليس من أجل أي مخلوق آخر، أو حتى من أجل نفسك.

- بل بقيت من أجل العذاب والمهانة والعمى، وها قد أصبحت مثل كلب مريض أجرب، أو رضيع أخرق يبول في فراشه ولا ينقصه غير حفاضة يواري بها سوءة قذارته.

- حبيبي ثق فيَّ، وأن الأمور كلها سوف تمضي على ما يرام،

وقريبًا جدًّا سوف أصطحبك إلى أكبر أطباء العيون والأعصاب في مصر، بل قد نسافر إلى الخارج لتتلقى العلاج في أكبر المؤسسات العلاجية في العالم.

قالت سما ما قالته وقد شرعت تزيل مثل أم رءوم الآثار الكريهة العالقة بالفراش، وسرعان ما راحت تقلب المرتبة على الناحية الأخرى وتستبدل الملاءة بأخرى نظيفة معطرة، وتفتح النافذة كي تخرج الرائحة الكريهة ولتتسلل من خلالها أشعة الشمس الساطعة في الخارج، وبعد مرور وقت من الزمان أخذت حربي من يده في اتجاه الحمام وهي تقول له:

- سوف آخذك يا زوجي العزيز لكي أحممك بنفسي، لِمَ لا ألست صغيري الحبيب.

كانت حديقة قصر الخالدي كبيرة للغاية، كما كانت توجد بها أنواع نادرة من الأشجار التي جلبها محمد علي باشا إلى مصر، هذه الأشجار النادرة كانت تبدو للناظر من بعيد وكأنها في نوبة حراسة لهذا المكان العتيد، كما كانت توجد في أنحاء متفرقة العديد من المسابح، والتي يخص كل مسبح منها فرع من فروع العائلة – التي ما زال الكثير من أفرادها يقطن في القصر منذ زمن بعيد – وحول هذه المسابح وأسفل أشجار البامبوزيا العملاقة كم حيكت في وقت من الأوقات الكثير من المؤامرات والمخططات

للخلاص من نظام حكم عبد الناصر والضباط الأحرار. وهنالك ضحكت سما ضحكة طويلة وهي تمضي الهُوَيْنَى في رفقة زوجها حربي الطحان خلال ممرات الحديقة البديعة وهي تقول:

- يبدو أن بولا أمي كانت تُمَنِّي نفسها بحكم مصر.

- بولا! اسم غريب، هل هي أجنبية؟

- مصرية ولكن من أصول شركسي.

- شركسية وتريد أن تحكم مصر! هه وألم يكفها ثروات مصر التي نهبها السادة على مَرِّ الأزمان، وجعلوا أولاد البلد يعيشون طويلاً في ذل وفقر وحرمان، أي عقل هذا الذي يقبل بأن تعيش أسرة واحدة في هذا القصر الكبير ذي الحديقة المترامية الأطراف والآلاَف من أبناء الشعب يعيشون في الكهوف وفي الطل والعراء.

صمت حربي هنيهة ثم قال مستدركًا لسما:

- آسف يبدو أنني قد تجاوزت حدودي بشأن الهانم أمك.

- لا تأسف على شيء أنت مؤمن به.

- مؤمن! هه المسألة ليست مسألة إيمان بالمرة، الفقر والجوع والعوز يجعلون المرء يكفر بكل شيء، فعن أي إيمان تتحدثين؟

هنـاك مـن يعيشـون في النعيـم تحـت الأشـجار العاليـة والمسـابح الزرقـاء الخياليـة، وتحـت أقدامهـم خـدم بؤسـاء يلعنونهـم ليـل نهـار، ويـودون مـن كل قلبهـم أن تنقلـب الآيـة، ويصبـح العبيـد أسـيادًا والأسـياد عبيـدًا.

صمـت حربـي مليًّـا ثـم تمتـم معتـذرًا للمـرة الثانيـة، وأنـه قـد تجـاوز حـدوده وقـال مـا لا يليـق أن يقـال علـى هـذا النحـو الفـج، كـان حربـي يبـدو عصبيًّـا دائمًـا كلمـا تحـدث، وكانـت سـما تمنحـه مـن فورهـا صـك الغفـران، ليـس فقـط علـى مـا بـدر منـه بـل علـى مـا قـد يصـدر منـه في أي وقـت لاحـق وإلـى أبـد الآبديـن، ولهـذا اكتفـت بالابتسـام ولـم تُعَلِّق بحـرف واحـد، مـا دعـا حربـي إلـى أن يَمُـدَّ يـده في عمـاء الوجـود السـرمدي متلمسًـا يدهـا، وقـال برفـق جـم هـذه المـرة:

- لعلك تقولين عني الآن في نفسك يا له من حاقد طبقي.

- لا، ولكنـي أحـبُ فيـك قلبـك الأبيـض المتسـامح، فقـط تَمَـنَّ معـي أن نحيـا في عالـم طيـب بـلا أسـياد وبـلا عبيـد.

قالـت عبارتهـا شـاردة ثـم دسـت ذراعهـا في ذراعـه ومضـت معـه تجـوب بقيـة أنحـاء الحديقـة، وقـد تعلقـت بهمـا أعـين الأقربـاء السـاخطة مـن هنـا وهنـاك، فالفتـاة كانـت تبـدو في ناظـري أفـراد

obeikan.com

العائلـة محـض فتـاة مارقـة وكمـن بدلـت عقيـدة بعقيـدة أخـرى، وانسـلخت مـن جلدهـا وطبقتهـا، وأدخلـت عليهـم مثـل هـذا القـح الوضيـع ليجالسـهم موائدهـم ويسـاكنهم حجراتهـم، ويستنشـق مثلهـم ذات الهـواء الـذي يتنفسـونه، ولكـن الضـرورة وضغـوط الواقـع جعلتهـم يلتزمـون الصمـت، ويقبلـون بالأمـر الواقـع ولـو إلـى حـين قريـب.

وسـاعة الغـداء جلـس جمـع مـن أفـراد أسـرة القاياتـي حـول المأدبـة، وفي اللحظـة التـي تقدمـت فيهـا سـما مـع زوجهـا نحـو المائـدة للجلـوس، هبـت واقفـة في اللحظـة ذاتهـا أختهـا لميـاء وزوجهـا شـادي بغيـة الانصـراف؛ كنـوع مـن الاحتجـاج علـى وجـود حربـي الطحـان معهـم علـى مائـدة واحـدة، وكانـت هـذه هـي المـرة الأولـى التـي تصـر فيهـا سـما علـى الجلـوس برفقـة زوجهـا علـى مائـدة السـفرة، وربمـا عارضهـا حربـي نفسـه في البدايـة لكونـه لـم يجلـس مـن قبـل علـى مثـل هـذه المائـدة الملكيـة الفاخـرة ذات الحـواف الذهبيـة، وأن مَلِـكَ مصـر بجلالـة قـدره قـد جلـس إليهـا ذات مـرة وتنـاول عليهـا الطعـام بنفسـه. ولكـن سـما التـي روت لـه هـذه الروايـة بعفويـة اعتـذرت لـه، وشـجعته علـى الجلـوس كملـك نفسـه وملكهـا علـى أقـل تقديـر، وعاهدتـه أنهـا سـوف تكـون دومًـا إلـى جانبـه ولـن يشـغلها عنـه شـاغل، وهـا هـي الصدمـة الأولـى يتلقيـاها لحظـة اقترابهمـا مـن المائـدة الممتـدة، فهنـاك مـن أظهـر علـى الفـور العـداء والامتعـاض

مـن الجلوس إلـى مائدة يجلس إليها ذلـك الفتـى الأسـمر الرعديد، فتسـمر حربـي في مكانـه وعـزف عـن التقـدم خطـوة واحـدة، فانتبهـت سـما بالتبعيـة إلـى شـقيقتها لميـاء وزوجهـا اللذيـن يغـادران المـكان، فارتبكـت بعـض الشـيء، ووقفـت متسـمرة هـي الأخـرى في محلهـا، وإن أدهشـها أكثـر هـذا الإحسـاس الفـوري الـذي صـدر بشـكل عفـوي مـن حربـي وكأنمـا يـرى الأشـياء جيدًا بعينيـه ومـا جعلـه يتراجـع إلـى الـوراء بغيـة الانسـحاب مـن المـكان. ولكـن وقبـل أن يتـأزم الموقـف تدخـل علـى الفـور حسـين القاياتـي والـذي كان يجلـس في مقعـده الـذي يتصـدر رأس المائـدة، والـذي سـدد نظـرة عتـاب قاسـية ناحيـة ابنتـه لميـاء وزوجهـا، وهنالـك تدخـل ماجـد لينهـي ذلـك الموقـف بإشـارة مـن يـده لأختـه، والتـي كانـت مصحوبـة بنظـرة مـا مـن عينيـه وعلـى متنهـا الكثيـر مـن الرسـائل والتـي اعتـاد أفـراد عائلـة الخالـدي علـى تبادلهـا فيمـا بيـن بعضهـم البعـض، فجلسـت لميـاء مـن فورهـا مضطـرة وهـي تنفـخ بضيـق وكذلـك زوجهـا وقـد بانـت عليهمـا علامـات الهـم والاغتمـام الشـديد.

كان حربـي بطبيعـة الحـال لا يجيـد فـن الإتيكيـت، كمـا كان فقدانـه لبصـره دخـلاً أيضًـا في إعطـاء الصـورة المزيـد مـن الهزليـة، ولهـذا بـدا كصعلـوك يتنـاول طعامـه بشـكل مقـزز، ومـن ركـن خفـي راحـت سـما تهامسـه أن يسـتخدم أدوات المأدبـة لتنـاول الطعـام

وهي ترسم ابتسامة مفتعلة على وجهها، وعندما أحست أنها قد فشلت في توجيهه التوجيه الأمثل راحت تطعمه بيديها، وتمسح ما تساقط على جانبي شدقيه وعنقه وصدره، وهنالك لم تتمالك لمياء نفسها من الاشمئزاز وبادرت بمغادرة المائدة وهي تدبدب على الأرض برجليها قائلة:

- يا له من شيء مقزز.

خيمت لحظات من السكون على المكان، فقال حربي بعدها والذي بدا في غاية الحرج:

- آسف.

- لا عليك يا بني، أكمل طعامك.

قالها حسين والذي لم يرفع وجهه البتة عن صحن الطعام، وعن كثب كان ابنه ماجد يسدد نظرة عتاب ما لشادي، وكأنما يقول له أن يوصي زوجته لمياء بالصبر حتى يأتي الفرج، ولعل الفرج قريب ويأتي ذلك المشتري الذي سيدفع مئات الملايين من الدولارات ثمنًا لهذا القصر التحفة، ولكن من قال أن حسين القاياتي سيقبل ببيع القصر بمثل هذه السهولة، وإن قبل فتراه علام ينوي وكيف سيتصرف؟ وكم سيكون نصيب كل فرد من أبنائه في هذه الثروة الطائلة، كان هذا هو فحوى ما يدور ليس في

obeikan.com

خلد الابن الأكبر فقط بل في أذهان الكثيرين من أفراد العائلة، وبعد فترة من الترقب والصمت، تنحنح ماجد قبل أن يقول موجهًا حديثه لوالده:

- هل من جديد يا أبتِ بخصوص المشتري الأجنبي؟
- أي مشترٍ؟
- مشتري هذا القصر بطبيعة الحال.
- آه، لا جديد.

سادت فترة أخرى من الصمت الممزوج بصوت حركة بعض الملاعق في الأطباق، بعدها قال ماجد بشكل واضح:

- حسين بك، أظن أنه من حقنا جميعًا أن نعرف شيئًا عن مصيرنا المستقبلي، وأظن أنك وحدك صاحب الحق الآن في تقرير مصير العائلة، فَهَلاَّ أخبرتنا عما تنوي عمله لاحقًا فيما يتعلق بالقصر وبمصائرنا نحن أيضًا؟

لم يحر حسين جوابًا مباشرًا، واكتفى بدس وجهه في صحيفة الطعام التي أمامه وكأنه لم يسمع شيئًا قط، فنفخ ماجد بضيق باد وتبادل النظر مع زوجته ميرنا ثم مع بقية من حوله اللهم إلا سما التي كانت منهمكة في إطعام زوجها كطفل صغير، وكان

الحوار الدائر في السرائر قد احتدم إلى حد الصدام المحتمل فقال شوكت وهو كالعادة أقل أبناء حسين القاياتي تَكَلُّمًا:

- أبي، نحن جميعًا ننتظر منك جوابًا محددًا حول مصير هذا القصر، وأرى أن الخطوة المثلى هي بيعه؛ وإن كنت أشك في الرقم الفلكي الذي ذكره صاحبك المحامي الأستاذ نعيم.

ولعل سكوت حسين الذي دام طويلاً قد أحدث كثيرًا من اللغط بين المتحلقين من حول المائدة، أو في المكان بأسره، وكشف عن حقيقة نواياهم التي صرحوا بها جهرًا أو سرًّا، وأنهم قد بنوا كل خططهم المستقبلية على الملايين التي سيجنونها من وراء بيع القصر، وليذهب التاريخ والمجد العائلي إلى الجحيم، وهنالك تساءلت سما في داخلها والتي أبت على نفسها أن تدلي بدلوها في هذا الموضوع: «تُرى ماذا سيكون موقف أمي من مسألة بيع القصر، لا شك أن الأمر سوف يسبب لها صدمة أليمة، بل قد تذهب حياتها أدراج الرياح مع ذهاب هذا القصر، فروحها لصق كل زاوية وكل حجر فيه» ولم تتملك سما الحيرة التي تملكت من حولها إزاء صمت والدهم العجيب، فقد فهمت من تلقاء نفسها أن مثل هذا الرجل العظيم والذي لا يعنيه هذا القصر كثيرًا من قريب أو بعيد، إنما يفكر في زوجته، وفي نفسيتها ومدى ارتباطها بهذا القصر أكثر مما يفكر في الملايين التي سيجنيها من وراء

obeikan.com

بيع هذا القصر القديم الرابض كشبح متهالك بالقرب من نهر النيل الخالد. وبالليل تساءل إليها حربي بدهشة بادية عن السر وراء عزوف أبيها عن بيع هذا القصر القديم الكالح الجدران، والمسابح البالية، والأرضيات الرخام المتهشمة، والأعمدة الجرانيتية المشققة، فضحكت سما وهي تقول متسائلة إليه بدهشة:

- أنت تصف القصر بدقة متناهية! وكيف عرفت بكل ذلك أيها العبقري؟

- مسألة إحساس، فراسة ومتابعة عفوية للغط الدائر بينكم ليس أكثر.

- معك حق، أما بخصوص أبي ذلك الإنسان العظيم والذي تجري في عروقه دماء ملائكة لا بشر مثلنا، من المستحيل أن يقدم على مثل هذه الخطوة من غير موافقة أمي، والاطمئنان إلى أن عملية بيع القصر لن تؤذي مشاعرها.

هرش حربي في شعر رأسه متفكرًا ثم قال:

- وماذا عساه سيفعل لو رفضت أمكِ بيع القصر، فهل سيضحي بالمليار دولار بمثل هذه السهولة.

- بل بكنوز الدنيا كلها.

ثـم دنـت مـن حربـي تمامًـا وقالـت وهـي تعانقـه والهـة وتلفـح بأنفاسـها السـاخنة شـحمة أذنـه الرقيقـة:

- هـل تعـرف أن فيـك الكثيـر مـن طبـاع والـدي، الرقـة، الإنسـانية، رهافـة الأحاسـيس.

- ولكنـي أعتقـد أن أخـاك ماجـد علـى صـواب، الحيـاة صعبـة للغايـة، والمـال أصبـح يمثـل فيهـا كل شـيء، والإنسـان في هـذا البلـد لا يكـون إنسـانًا تـام الإنسـانية مـن غيـر المـال والمظهريـة البراقـة، والأسـتاذ حسـين، سـعادة المستشـار أقصـد يجـب أن يلبـي نـداء العقـل إن لـم يكـن مـن أجلـه فعلـى الأقـل مـن أجلنـا نحـن، أعنـي مـن أجلكـم أنتـم.

كانـت سـما آنـذاك نشـوانة في عالـم آخـر غارقـة مـع فارسـها العمـلاق في طوفـان مـن الحـب والقبـلات الرقيقـة الدافئـة، كانـت تصغـي إلـى مـا يقولـه بقلبهـا لا بأذنيهـا، وتملكتهـا رعـدة لطيفـة وهـو يهامسـها بأعـذب كلمـات العشـق والغـرام، وأن قُـدِّرَ لـه ولام أحـدًا – وهـو الـذي غفـر للجميـع حتـى مـن عذبـوه ونَكَّلُـوا بـه وأفقـدوه بصـره وعافيتـه –فـإن ذلـك المُـلاَم هـو الحـظ التعـس الـذي جعلهمـا يلتقيـان ومتأخـرًا جـدًّا في هـذا العالـم النكـد وليـس في أي مـكان آخـر، حيـث جـداول الميـاه الرقراقـة الصافيـة، والسـماء اللبنيـة الرائعـة، والأزهـار والأشـجار والأطيـار، والعاديـات البيـض ذات الشـعور

المخملية المهفهفة تمرق على مرمى البصر في عالم أشبه بجنات النعيم لا كوكب الأرض الأزرق المعتم البئيس، وهنالك أحس حربي بها مستلقية بين ذراعيه مخدرة الأحاسيس، فقال بنبرة أخرى مختلفة أكثر عذوبة ورقة:

- لنؤجل حديث القصر إلى وقت آخر.

فأفاقت من شرودها ولهانة وقالت:

- فارسي النبيل، هَلاَّ حملت ملاكك الجميل إلى الفراش.

ابتسم حربي ابتسامة تنمُّ عن سخرية ثم تركها ومضى متعثرًا في ظلام عينيه إلى الفراش، فيما كانت سما تلف وتدور حول نفسها كفراشة هائمة في أنحاء الغرفة الفسيحة، كانت تلبس ملابس النوم الرقيقة اللامعة التي تكشف عن فتنة طاغية، فجمالها حق وهبته لزوجها ولو كان ضريرًا لا يرى شيئًا، ولكنه لم يفقد بعد نعمة الإحساس والذوق الرفيع، وحين اقتربت من الفراش فوجئت به يجذبها من ذراعها جذبة قوية جعلتها تسقط من فوق فرس أحلامها، وترتمي في الفراش بطولها، ثم أحست بظله العملاق يتمدد ويغشاها كُليةً في طرفة عين، ثم كان ما كان من غير سابق إنذار أو مقدمات.

●●●

(١٩)

جاء يوم الخميس الموعود والذي كانت تنتظره العائلة، وعُلِّقَت الزينات على كل مداخل ومخارج القصر، وبين الفينة والأخرى كانت تسمع الزغاريد الممزوجة بصوت الموسيقى الغربية الصاخبة، وكانت سما قد فرغت من ارتداء ملابس السهرة الرقيقة، والتي أبرزت أنوثة بريئة من الإثارة الفاحشة وعلى عكس ما اعتادت الظهور به قريناتها من بنات العائلة في مثل هذه المناسبات، واقتربت مندهشة من حربي الذي كان يجلس إلى طرف الفراش مكتئبًا وهو يوليها ظهره، فجلست سما قريبة منه وقالت بنبرة رقيقة:

- تُرى ماذا يغضب فتاي الجميل حتى أنه لم يرتدِ ملابسه حتى الآن؟

- أظن أنني لن أكون شخصًا مرغوبًا في وجوده في مثل هذه الحفلة العائلية، عائلتك تحتقرني، أشعر بغربة شديدة بيني وبينهم، لست أدري لماذا؟ هل لكوني شخص بسيط، أم لكوني كفيف ويتساقط الطعام على جانبي فمي وتبدو هيئتي مقززة.

obeikan.com

أطرقت سما لفترة وجيزة، ومالت على كتفه تحتضنه من الخلف، وقالت وعبرة تتساقط من عينيها:

- لا تقل هذا يا حبيبي، أنت سيدي وسيدهم جميعًا، هذا مكانك أنت، هم الغرباء في هذا المكان وليس أنت، بعض هؤلاء المتعالين يعلمون جيدًا أنه لا مأوى لهم غير الشارع، أما القصر الذي يقيمون فيه فتفضلاً من والدي الطيب القلب.

صمتت لفترة كانت تلثم فيها كتفه بسلسلة من القبلات المتلاحقة وهي تتمرغ بوجهها في عظام ظهره الناتئة، ثم أردفت قائلة:

- ابْقَ هنا أو تعالَ إلى البهو الكبير إن شئت، لن أجبرك على شيء، وثق أنك مدعاة فخر هذه العائلة رغم أنفهم جميعًا؛ وإلا هل كان ماجد شقيقي يجرؤ على وضع ساق على ساق ومصاهرة أكبر وزراء البلد والذي قبل بابنته زوجة لأحد أنجاله، أنت من مكنه أن يرفع رأسه اليوم هو وكل أفراد العائلة ومن غير أن يطاردهم شبح الفضيحة المقيتة التي كادت تدمر حياتي وحياتهم جميعًا في يوم من الأيام.

نهضت سما بغية الانصراف إلى الخارج، ولكنها توقفت قليلاً ثم استدارت نحوه وقالت مستدركة:

- في مقدورنا أن نغادر المكان في أي وقت شئت، لسنا في حاجة إلى أحد، لديَّ مدخراتي، كما يمكنني العودة إلى عملي الذي أربح من ورائه الكثير.

انصرفت سما مغادرة حجرة النوم، وبقي حربي الطحان وحده في الحجرة، كان مستاءً للغاية من موقف العائلة منه، ولكن كلمات سما نزلت كبلسم شاف على صدره، كلمات جعلته يقف على ساقيه متطاولاً، ونفخ صدره، ورفع وجهه بزاوية لأعلى وهو يجتر كلمات سما على شفتي ذاكرته:«تَصَرَّف كصاحب مكان، الحياة ملحمة يا فارس عمري، ولا يليق بالفرسان الانخذال في الملاحم الكبرى» كما راح يتذكر روايته لها يوم سألته عن العصابة المجرمة التي حاولت أن تقضي على حياته وأفقدته بصره جزاءً وفاقًا لما فعله، وهنالك علَت وجهه ابتسامة زهو عريضة.

- كانت لحظة عصيبة في حياتي، كنت لا أعرف حقًّا من هي الفتاة البريئة التي صورتها متعمدًا بهاتفي المحمول، صحيح أن صورتك الرائعة بهرتني، ولكن لم يكن إعجابي بكِ هو الدافع في الحقيقة لتقديمي الفيديو إلى السلطات المختصة، إنه ضميري الحي وواجبي الأخلاقي، وكنت أعلم مقدمًا أنني قد أدفع حياتي ثمنًا لهذه التضحية الكبيرة، ولكنني لم أهب الموت، ولكم تكون حياة المرء رخيصة للغاية إن هو تخاذل

عن نصرة الحق والمظلومين مثلك، ولكم تكون الحياة غالية للغاية إن هي أزهقت متوجة بأكاليل الغار المترفع عن الدنايا وأفعال البشر الخسيسة، وماذا يكون شأن الحياة يا تُرى إن تقاعس كل الناس عن أداء الواجبات الكبرى التي تمليها عليهم ضمائرهم. من أجل هذا وبالرغم من التهديدات المرعبة التي وصلتني من أشخاص مجهولين وربما مسنودين من آخرين لهم ثقلهم في البلد، أقصد بكوات وباشوات البلد الديكة المنفوشة التي تدهس كل شيء في سبيلها بلا رحمة أو شفقة، إلا أنني عقدت العزم على تسليم الفيديو ثم ليكن ما يكون »

كان هذا هو ما دار في ذهن سما الشاردة في تلك الأثناء وهي واقفة كالمغيبة بين الحضور من أفراد الطبقات العليا، أحسَّت بالاختناق والغربة الشديدة حتى وهي لصق أقرب الأقرباء إليها، فلوت عنانها عائدة إلى حجرة النوم وهي تلوم نفسها أشد اللوم لكونها تركت حربي بمفرده، وكادت تعتلي أعلى مكان في الدرج هاتفة بالجميع، بل راجية إياهم أن يهللوا ويصفقوا لهذا البطل الأسطوري كي يخرج إليهم بدلاً من أن يبقى وحيدًا في محبسه. فالقضية ليست ماذا نلبس ومن نكون وإلى أي عائلة ننتمي، وإنما علام تنطوي أنفسنا وقلوبنا، فكم من نبيل رفيع بديع الهيئة وتفوح منه أطيب روائح العطور العالمية وهو في حقيقة الأمر يطوي في نفسه

روح حقيـرة نتنـة لا تطـاق، وطبيعـة وضيعـة جبانـة لا تجسـر على القيـام بذرة ممـا قـام بـه زوجهـا البطـل حربـي الطحـان، بل أليـس مـن قامـوا بالعـدوان علـى هـذا النبيـل الفقيـر حربـي هـم مـن أولئـك الذيـن قـد يحسـبهم المـرء للوهلـة الأولـى مـن أشـراف البلـد، وذلـك مـن فـرط وجاهتهم وعلـو مراتبهم؛ وهـم في حقيقـة الأمـر أنـذال حقـراء يستحقـون كل أصنـاف العذاب والهـوان. فلـم يُعَـذَّب النبيـل ويُكَـرَم الخسـيس الذليـل، كانـت الخواطـر تنثـال في هيئـة دفقـات مـن السـيل المنهمـر علـى رأسـها، فأفسـحت في خطاهـا صاعـدة الـدرج المـؤدي إلـى الطابـق العلـوي حيـث يقبـع الجنـاح الـذي تنـزل فيـه مـع زوجهـا الكفيـف، ولـم تأبـه بالنـداءات المتكررة باسـمها مـن هـذه الناحيـة أو تلـك، لقـد كانـت عازمـة علـى شـيء واحـد فقـط ألا وهـو إرسـال إشـارة واضحـة إلـى الجميـع، فحواهـا أنهـا لا يشـرفها التواجـد في مـكان يرفـض زوجهـا أو يخجـل مـن وجـوده فيـه، ولعـل حسـين القاياتـي كان أول مـن استقبـل هـذه الإشـارة وهـو يـرى ابنتـه تنسـحب مهرولـة علـى هـذا النحـو المثيـر للدهشـة، فمـال جانبـًا حيـث يجلـس بالقـرب منـه ابنـه ماجـد وتسـاءل إليـه أن هـل وَجَّـه الدعـوة لـزوج أختـه لحضـور حفـل الخطوبـة، فارتبـك ماجـد قليـلاً ثـم مـا لبـث أن راح يبـدي دهشـة مصطنعـة، وأن أصحـاب المـكان ليسـوا في حاجـة إلـى دعـوة. وربمـا كانـت هـذه الحجـة ذاتهـا هـي التـي سـاقاها

بالفعل إلى نفسه حربي الطحان، فعقد العزم في نهاية الأمر على الظهور في الملأ، وقال في نفسه: «لِمَ لا وقد صرت واحدًا من هذه العائلة شاء من شاء وأبى من أبى» ومن فوره مضى خارجًا من الحجرة في اللحظة التي اندفعت فيها سما جارية عبر الممر الكبير بين أجنحة القصر صوب الحجرة ذاتها، ولكنها توقفت فجأة وقد أدهشها الخروج المفاجئ لحربي زوجها من جناحهما، فقالت له:

- إلى أين كنت تنوي الذهاب؟

- لم أشأ أن أغضبك في مثل هذه الليلة المفترجة، فأنتِ لستِ فتاة عزباء، بل امرأة لها رجلها الذي تحبه ويحبها.

قال ذلك وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة رائعة وهو يمد ذراعه نحوها لكي يتأبطها من ذراعها، ولأول وهلة ارتبكت أحاسيسها وتراوحت بين السعادة وبين شعورها بالحرج لكون حربي لا يرتدي الملابس المناسبة ولا الحذاء المناسب لمثل هذه السهرة الرسمية، وارتجت بين رغبتها في الإقدام واقتحام العالم بهذا الفارس الأريب وبين شعورها بالحرج من جرح مشاعره إن هي أخبرته بضرورة الظهور بالشكل اللائق، واستغرقتها اللحظات طويلاً بين هذه الرغبة وبين ذلك الشعور، فتململ حربي في مكانه وهو لا يزال يمد ذراعه نحوها، فإذا به يرخيها ويهم مستديرًا

على كعبيه بغية العودة إلى ملاذه حزينًا، فقفزت سما مستفيقة من حالة الوجوم التي انتابتها لفترة قائلة:

- ماذا دهاك يا حبيبي؟
- أنتِ خجلانة مني، عيناكِ قالتا ذلك للتو.

فابتسمت سما وقالت:

- وهل رأيتهما؟
- كُفَّ بصري نعم، ولكن إحساسي لم يُكَفّ بعد.

وهنالك راحت تسحب ذراعه برفق وتعقدها بذراعها، ثم مضت به رافعة هامتها إلى عنان السماء وهي تقول هامسة له:

- أقسم أنني لم أتمن عودة النظر إليك في لحظة ما من لحظات حياتي مثلما أتمناها الآن، لكي ترى بعينيك الساحرتين كيف تمضي جارية مطيعة مختالة في رفقة سيدها الفارس العظيم بين جموع الناس.

كان نزول سما إلى البهو الكبير في رفقة زوجها حربي الطحان على هذا النحو بمثابة الصدمة التي نزلت كالصاعقة على رءوس الكثيرين من أفراد العائلة وكذلك ضيوفهم، وسرعان ما سرت التمتمات الهامسة بينهم وبين بعضهم البعض، وقد

obeikan.com

راحوا يلاحقون سما بنظراتهم وكأنها تمشي متأبطة شيطانًا وليس إنسيًّا عاديًّا، ولعل لمياء أختها كانت أكثر الجميع تطرفًا فتملصت بالكاد من بين يدي زوجها شادي الذي جهد نفسه كي يمنعها من الاندفاع إلى ما لا يحمد عقباه، فلقد اتفق أكثر أفراد العائلة أن تصريحًا أو تلميحًا على اتباع سياسة الانحناء حتى تمر العاصفة، وحتى يصلوا إلى حل ربما يخلصهم إلى الأبد من حسين القاياتي، أو ذلك الصعلوك الذي نَصَّبَته الأقدار رَغْمًا عن أنوفهم ليكون سيدًا لهذا القصر، اللهم إلا لمياء التي فقدت صوابها والقدرة تماماً في السيطرة على مشاعرها المهتاجة، فقفزت كنمرة غاضبة لتقطع الطريق على شقيقتها وزوجها الكفيف قائلة بالفرنسية وهي تسحق ضروسها ببعضها البعض من الغِلّ وقد نظرت بازدراء جم في اتجاه حربي تحديدًا:

- إكسيلانس حربي، أي أبله هذا يا ترى الذي أخبرك أن هذه حفلة تنكرية؟

وعلى الفور بان الغضب في قسمات وجه سما والتي نظرت أولاً بذعر إلى حربي خشية على مشاعره، ثم راحت تقول فيما يشبه الهمس لأختها وبالفرنسية التي تجيدها أيضًا:

- أظن أنه لا يليق أبدًا بابنة ذوات مثلك أن تتصرف على هذا النحو المخجل، والذي قد يفسد أجواء هذه المناسبة السعيدة.

- الأجواء فسدت بالفعل منذ أن أَدْخَلَتِ علينا تافهةٌ مثلك تافهًا مثلها، هه والذي ربما يكون شريكًا لكِ في المصائب والجرائم التي ارتكبتيها.

- لمياء تأدبي.

- بل أنتِ من لم يجد في حياته من يؤدبه ويعلمه أن الفارق كبير جدًّا بين السادة وبين العبيد.

كانت المناقشة قد احتدمت للغاية بين الأختين، وبدأت تلفت إليهما أنظار البعض، فاندفع ماجد نحوهما ليرى ماذا في الأمر، وآنذاك مال نعيم الضو بشفتيه قريبًا من أذن صاحبه حسين القاياتي قائلاً:

- انتبه لنفسك، يبدو أن وجود هذا الشخص سوف يعجل بحدوث مزيد من المؤامرات ضدك.

- هيه أي شيطان أنت يا نعيم.

انفلتت ضحكة من نعيم لحظتها تشبه الصرخة، ولكنه بسرعة تماسك وقال وهو يسوي بيده - وبمحض حركة مفتعلة - خصلات شعر رأسه:

- أعلم جيداً أنك من أكثر الرافضين لنظرية المؤامرة، وتفضل تسميتها فرضية لا نظرية لكونها أشبه بقضية علمية لم تثبت بعد يقيناً.

- ومن قال، غاية ما في الأمر أنني أكره تلك الأشياء التي تلوث أفكار المرء.

- أنصحك أن تلوث أفكارك هذه المرة فقط، أم تراك نسيت كم من مؤامرة شهدتها أبهاء ومسارب قصر الخالدي من أجل إفشال ثورة يوليو المجيدة والانقلاب على عبد الناصر، وبزعامة سيدة المؤتمرين والمؤتمرات الداهية، هل نسيت ماذا فعلت بالضبط، والحفلات الكثيرة التي كانت تقيمها في القصر من أجل الترويج للشائعات البغيضة ضد نظام ناصر ورجاله...

فقاطعه حسين وهو يتساءل إليه بدهشة:

- تُرى من تقصد بسيدة المؤامرات الداهية هذه؟

- بولا هانم الخالدي، وهل يوجد غيرها يا رجل.

وهنالك انفجرا في الضحك، وأضاع صخب المكان الصادح بالموسيقى صدى ضحكاتهما التي أخذت وقتاً طويلاً حتى تسكن عاصفتها، في لحظة كانت الدموع فيها قريبة من أعين أخرى،

obeikan.com

حيث البسطاء الذين لا مكان لهم في مثل هذه المناسبات الراقية، هي مناسبات تعيسة بالنسبة لهم وسعيدة بالنسبة للبعض الآخر، أنا لست حشرة تُدهس بالنعال الفخيمة، أنا رسالة من عالم آخر بعيد لم تُحل شفرتها بعد ولكن من يفهم ذلك، ومن يا ترى له القدرة على افتضاض محتواها القدسي، أنا الحب جاءكم في هذه الهيئة التي تنكرونها وتخجلون منها، أنا نقيض الأنانية والذاتية المقيتة، أنا من ضحى بنفسه من أجل سعادتكم، أنا التمثال الحي الذي قبل أن ترجمونه بنظراتكم الحادة كي يمنحكم لحظة هناء تبتسمون فيها طويلاً، لِمَ لا وإهانة الناس للناس تصنع في النفوس هالات من الكِبّر والعظمة المهولة. أنا أهينك فأنا إنسان رفيع وأنت محض مخلوق وضيع، حسبكم ألا ترون جوادي المارق الذي جئتكم به من بعيد جدًّا، بل أبعد بكثير مما تتصورون كي أنتشل ضائعة بريئة منكم، ثم أمضي لتوي عائدًا إلى عالمي المخفي، فليس هاهنا مكاني ولكن أبقاني فيه قلبي وحبي، أجل حبيبتي لقد بقيت من أجلك أنتِ، واحتملت ما لا يقدر مخلوق عادي على احتماله من أجل الحب الذي ربط قلبينا ببعضهما البعض منذ زمن بعيد، ولكن لا تتوهموا أنني سأبقى طويلاً، ولا تسعدوا لكوني ماكثًا بينكم قليلاً؛ لأنني إن مضيت فلسوف يكون الحب كله راحلاً معي، ولسوف يصبح عالمكم كئيبًا وبغيضًا من غير حب ومحبين.

وعندئذ نظرت سما هائمة إليه وكأنما تقول له بلغة أخرى غير تلك التي يتحدث بها البشر: ليتنا نمضي معًا بعيدًا عن هذا العالم، كنت قد تهيأت بالفعل للرحيل الأبدي من هذا العالم، ولكنك جئت وغيرت مصيري، ومنحت جسدي الروح، وقلبي الحب، أفاتَّضَنَ على بعد كل ذلك برغبتي العارمة في أن أرتدفك فوق صهوة حصانك الناصع البياض كالنور، والمنطلق إلى ذلك العالم اللبني الخلاب، لحظتها طفرت الدموع من عينيها ممتزجة بنهنهة منبعثة من أعماقها وضحكات وثرثرات ثملة منبعثة من هنا وهناك، وموسيقى صادحة لا تخفت لها حدة حتى مع مضيها بعيدًا بفتاها الحربي خلال دروب حديقة القصر الكبيرة، وإذا به يرتج بين يديها ويستدير منزعجًا ولكأنما رأى شيطانًا آخر من جملة الشياطين الكثيرة التي رآها في تلكم الليلة غير التقليدية، فأفاقت سما من خدرها اللذيذ المفعم بترانيم العشق السماوي، لِمَ لا وقد كانت تُحلِّق للتو في أجواء سامية لعالم آخر غير ذلك العالم الآني. وعاشت أحاسيس استثنائية حالمة لو عرف بها العشاق لقاتلوها عليها، فما بال هؤلاء العشاق لو سمعوا شيئًا مما كان يهمس به ذلك الحبيب منذ لحظات في أعماق نفسها، ولعلها لعنت اللحظة التي انتبهت فيها من جديد إلى عالمها الواقعي، حيث الصخب والموسيقى والأجساد المنتصبة كِبرًا داخل أرديتها الفاخرة، ولكنه كان لا مفر من الانتباه وفارسها المُفدي

ينتفض مروعًا ويستدير بكليته على عقبيه، ودقات قلبه تعلو وتعلو حتى كادت تطغى على أصوات الصخب المزلزل لجنبات القصر، وقبل أن تتساءل إليه: ماذا أربكك أيها الحبيب، وجعلك تجفل مِنِّي هكذا! فوجئت بالمحقق عرفان غانم يدنو منهما وعلى وجهه ابتسامة ما، كانت خليطًا من الدهشة والترحاب القلبي المكظوم عندما يرى الحبيب حبيبه سلته، فعرفان غانم كان لم يزل بعد يطوي الكثير من الحب في قلبه لسما، بل كان من سخريات القدر أنَّ قلبه قد وقع في أحابيل ذلك النوع من الحب الذي تزداد ناره اضطرامًا مع مرور كل لحظة في العمر؛ فهو لم ينس البتة تلك الفتاة قط، ولعله وبعد أن صدته من قبل كان يدبر ويخطط في نفسه للظهور بشكل أو بآخر في حياتها مرة أخرى. ولكم كان محظوظًا عندما منحه القدر تلك الفرصة الذهبية لكي يكون في رحاب فتاته، يراها وتراه عن كثب بلا حواجز وأسوار القضايا ودهاليز النيابة العتيقة، فمنذ يومين اثنين وصلته دعوة رسمية من عَمِّه الوزير لحضور عقد قران ابنه على فتاة من عائلة القاياتي التي تقيم في قصر الخالدي؛ فلم يصدق عرفان نفسه، وقَبِلَ الدعوة من غير تفكير، وراح يتأهب لتلك اللحظة التي سيرى فيها الفتاة التي يحبها حبًّا جمًّا، ولكن ها هو القدر يواصل معه لعبة المفاجآت والألغاز المثيرة، فما أن وطأت قدماه حديقة القصر حتى لمح فتاة أحلامه تمضي في رفقة شخص آخر،

وقد لا تكون هذه الصورة هي المُدعاة للعجب كله فحسب؛ بل كون حربي الطحان هو ذلك الشخص تحديداً فذلك هو العجب الأشد من العجب نفسه، وعلى الفور قطعت سما كل سبيل أمام عرفان وكأنما قد اطلعت بحسها الأنثوي المُرهف على كل ما يدور في نفسه، وقالت وهي تنظر آنذاك مندهشة من زاوية عينيها لزوجها المرتبك والذي انكمش في نفسه تمامًا:

- حربي عبد السلام الطحان زوجي، مفاجأة أليس كذلك حضرة المحقق.

- زوجك! يا للمهزلة البغيضة، وأي عبث هذا الذي يجمع الأضداد والمتناقضات في إطار واحد، من المؤكد أنكِ تزوجتيه أيتها البلهاء بوازع الشفقة وإحساس طاغ بالجميل، أو ربما بالذنب من أجل ما أصابه بسببكِ، من المحال أن يكون الحب هو سبب تلك الزيجة المختلة غير المتكافئة بالمرة.

لم يقل عرفان غانم ذلك بشفتيه ولسانه، وإنما بنظرات عينيه المصدومة التي وشت بكل شيء تقريبًا، غير أنه تماسك، وقال بصوت تباينت مخارجه بين الارتفاع والهبوط:

- حربي عبد السلام الطحان يا للمفاجأة حقًّا، عندما لم أجدك في مخبأك الذي أودعتك إياه تصورت أنَّ مطارديك قد وصلوا

إليك وقتلوك ومَثَّلوا بك شر تمثيل، هه بل تصورتك موجود في أي مكان في الدنيا ولكنني لم أتصور أن تكون هنا أبدًا.

- حكم الأقدار عرفان بك.
- حربي، كان من الواجب أن تخبرني كما طلبت منك مسبقًا عند أي مستجد يجد في حياتك.
- علمت أنك قد تركت القضية.
- نعم تركت القضية ولكنِّي لم أترك الحياة بعد.
- على أية حال أنا لم أرتكب جريمة حتى تلومني عليها.
- كنت أسعى فقط للحفاظ على حياتك.
- وهل تُسَمِّي حياتي في هذا المكان المقطوع الذي أودعتني إياه حفاظًا على حياتي.
- كان ذلك لفترة مؤقتة، وعلى أية حال انتبه لنفسك جيدًا، ومبارك زواجكما بإذن الله.

لم يمش عرفان بعدها مباشرة بل آثر التطلع طويلاً في وجه حربي الذي كان يديم النظر في سوادات عالمه المعتم الكالح الكئيب، بعدها استدار عرفان منصرفًا ولكنه أعاد الكرة بسرعة مثيرة للريبة، واستدار ليقول لهما بنبرة ما وهو ينظر لحربي على وجه التخصيص:

- أنا موجود في مكتبي بالنيابة إن حدث واحتجتما لأي شيء في المستقبل.

مضى عرفان غانم منصرفًا ليس إلى داخل القصر؛ لكي يقدم واجب التهنئة للعروسين كما هو مفترض منذ البداية ولكن إلى خارجه، بعدها قال حربي وهو لم يزل بعد يديم النظر شاردًا في قسمات وجه عالمه المعتم اللاشيء على وجه الإطلاق:

- عرفان غانم رحل غاضبًا، هه وكأنما قد جاء لفرحه هو وليس لفرح قريبه كما كان يَدَّعِي.

عقدت الدهشة لسان سما تمامًا عن النطق، وظلت تتفرس في وجه حربي الطحان لفترة طويلة، وقد أدركت في ثنايا نفسها أنها أمام رجل غير تقليدي بالمرة، وأنه يبصر جيدًا بأحاسيسه الداخلية ما تعجز أعين الأسوياء أنفسهم عن رصده بأي شكل من الأشكال.

●●●

obeikan.com

(٢٠)

كان ظهورها في هذا التوقيت بالذات على مسرح الأحداث بمثابة القنبلة المُدوية، وبين عشية وضحاها صدقت نبوءة نعيم الضو وأنَّ القصر وبالرغم من الأحداث الملتهبة التي مرَّ بها في الآونة الأخيرة؛ إلا أنها لا تُعد شيئًا يُذكر إذا ما قورنت بوجودها، بل كان حسين القاياتي يضمر في نفسه من الأسرار الكثيرة التي تجعل وجود مثل هذه المرأة يعجل بحدوث كارثة مُحَقَّقَة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبخاصة أنها تتسم في تصرفاتها بالخرق والتسرع والاندفاع غير المحسوب، ففي اللحظة الأولى التي وطأت فيها قدماها أرض قاهرة المعز اتصلت مباشرة بمحاميها سمير زعفران في أمر لا يحتمل التأجيل، وفي أقل من نصف ساعة كانت السيارة الليموزين - التي أقلتها من أمام صالة مطار القاهرة الدولي القديم بعد وصول الرحلة الجوية القادمة من المملكة المتحدة - قد تقاطعت في طريقها أمام بوابة القصر الكبير مع سيارة سمير زعفران التي يقودها بنفسه وهو في غاية العجلة من أمره. ولم تُرِح بولا الخالدي خاطر الرجل المشتعل بعشرات الأسئلة بكلمة واحدة اللهم إلا لحظة وقوفها تتحدث في قلب البهو

الكبير بلهجة امرأة حديدية لا تأبه لشيءٍ في الحياة، أو كملكة أسطورية جاءت لتهدم وتدمر وتنكل بالآخرين، فقد كانت غاضبة للغاية، وبخاصة أنَّ أخبار القصر كانت تصل إليها تَتْرَى من آن لآخر، حتى كانت الطامة الكبرى وبلغها خبر زواج ابنتها الكارثي من صعلوك حقير جلبته من الشارع، ثم فرضته وبمساعدة والدها على الإقامة معها في القصر بالقوة ورَغْمًا عن أنف الجميع، ثم ها هي لحظة الحساب العسير قد حلت، اللحظة التي يجب أن يلزم فيها الجميع حدوده، تلك اللحظة العصيبة التي كانت تنذر بتفجر الأحداث إلى ما لا يُحمد عُقباه، بل لعل الكثيرين – ممن وقفوا في الحلقة الواسعة التي ارتسمت حول بولا هانم وهي تصرخ وتنهر – كادوا يقطعون عليها السبيل ويمنعونها من المُضِيّ قُدُمًا بالتحدث على هذا النحو البالغ الحِدَّة؛ حتى لا تتجاوز أكثر من ذلك فيغضب سيد القصر الغضب الذي تكون نتائجه كارثية ويُضَحون جميعًا بين طرفة عين وانتباهتها في الشارع بلا مأوى أو معيل. ولكن بولا كانت حازمة وصارمة وبدت وكأن في جعبتها مفاجأة من العيار الثقيل؛ والتي ما تلبث إذا انفجرت أن تغير كل مقاليد الأمور وعلى عكس ما كان يظنه الجميع!

كان سمير زعفران آنذاك ينتظر دوره وهو يصغي باهتمام جَمّ لحديث بولا هانم التي شرعت تُعَنِّفُ الجميع؛ لرضوخهم بهذا الشكل المهين واستكانتهم للأمر الواقع قائلة:

- إذا كنت أنا وعائلتي قد أخطأنا في يوم من الأيام وقَبِلْنَا صاغرين بدخول الصعاليك في القصر، وأننا إذا كنَّا قد سمحنا مضطرين بوجود صعلوك قح بيننا فلا ينبغي أبدًا بقبول صعلوك آخر أكثر وضاعة وحقارة، واليوم عائلة الخالدي العريقة ليست مضطرة إلى شيء غير تصحيح هذا الخطأ التاريخي السخيف.

ثم تقدمت من حسين زوجها والواقف واجمًا في ركن قَصِيّ من المكان وقالت مسترسلة وهي تخصه بحديثها الناري من دون الجميع:

- وإذا كنت قد خدعتهم مع صاحبك الحقير الآخر نعيم الضو في غيبتي؛ فها هو ذا سوء طالعك يقودني إلى هنا اليوم لكي أكشف خدعتكما القذرة، وأنه لا سماسرة ولا مشترين لهذا القصر هذا شيء، أما الشيء الآخر فليت السيد حسين يجيب عليه بنفسه، فبأي صفة كنت ستبيع القصر وأنا مالكة القصر الحقيقية؟

دوت المفاجأة التي ألقت بها بولا كالقنبلة في جنبات المكان، وسرعان ما لفت الجميع نوبة من الذهول العارم، فقد عاشوا لفترة طويلة يظنون أنَّ حسين القاياتي هو سيد هذا القصر ومالكه وصاحب الحول والطول فيه، ولكن ها هي بولا الخالدي تقلب

الحقائق الراسخة والدنيا كلها رأسًا على عقب، وزوجها ساكن بلا حراك لا يبدي أدنى أشكال الاعتراض، ثم ها هي ذي أخلاقه وفروسيته النبيلة تودي به إلى سبيل لا يعلم نهايتها غير اللّه وحده، ففي يوم استرجع القصر للعائلة من الحكومة بعد فك الحراسة عنه، اضطر من أجل ذلك إلى دفع مبلغًا هائلاً من المال ليس من جيبه فقط بل من جيب عائلته أيضًا، والتي راحت تسانده بكل ما أوتيت من قوة، وتبيع أملاكها من الأراضي والمحاصيل الزراعية والعقارات من أجل ابنها البار حسين القاياتي، والذي بدوره قطع على نفسه عهدًا أن يوفي بدينه لعائلته مهما كان ثقيلاً. وربما كان قليلون فقط من المقربين إليه هم الذين يعلمون أنه ظلَّ حتى فترة ليست بالبعيدة يسدد من حُرِّ ماله هذا الدين لعائلته الطيبة التي تقطن في حوش عيسى، أمَّا الذي كان لا يعلمه أحد على الإطلاق حتى أقرب المقربين إلى إليه، أنه وبمحض إرادته تنازل طواعية عن ملكية القصر لزوجته بولا الخالدي، وأنه يوم وقع في الشبكة التي نصبتها له منذ البداية فإنما كان بمحض إرادته، فلقد اختارته بعناية فائقة من بين أبناء الثورة التي تمقتها بشدة ليكون السبيل لبقاء العائلة، وطوق النجاة الذي ينجيها من الغرق في طوفان المد الشعبي الكاسح الذي طغى حينها على كل مظاهر الأرستقراطية الراقية. فلقد قرَّ قرار بولا على الاحتفاظ ظاهريًّا على الأقل بالشكل العام الخارجي للعائلة، وإن ظلَّ الجوهر فارغًا

من محتواه القديم الذي كان أيام الملكية. وكان حسين القاياتي هو خير من يعينها على هذه الرغبة، ولذا راحت وهي الفتاة الآية في الحُسن والرُّقِي والجمال تتودد إليه وتصانعه وتوهمه أنها معجبة به، وتفتح أمامه كل الطرق المؤدية إلى قلبها كي يُقبل عليها ويُحقق لها بغيتها التي كانت تُسرها في نفسها، وبالرغم من أنَّ الرجل لم يلمس أي أمارة من أمارات الصدق فيما كانت تبوح به من كلمات ومشاعر ظاهرية، إلا أنه كان يحبها من قلبه حقًّا، وكان يطوي شيئًا من التعاطف معها هي وعائلتها، ويسعى لإسعادها ولنيل رضائها بشتى الوسائل، ولعله أيضًا لم يجد قربانًا يتقرب به إلى حبيبته وأُمِّ أبنائه أفضل من هذا القصر الفخيم، فلقد كان حسين زاهدًا ولا يرجو من الحياة أكثر مما أعطته، كما أنه أراد أن يثبت عمليًّا لزوجته - في يوم من الأيام - أنَّ ثورة يوليو المجيدة - التي هو واحد من أبنائها وفرسانها المخلصين -لم تأتِ لتُجَرِّد الناس من ثرواتهم ومظاهر رفعتهم وألقابهم الرفيعة؛ وإنما لتقول أنَّ الناس سواسية يعيشون تحت مظلة الاشتراكية التي لا تُفرق بين الناس وبين بعضهم البعض. فقد كانت هذه هي نيته يوم قَدَّم إليها هذا القصر التحفة على طبق من ذهب، ولكن ما ذنبه إذا انحرف القطار عن القضيبين اللذين يحملان مساره، بل لقد كان دومًا ممن يحاولون بإخلاص وتفانٍ جَمٍّ إعادة قطار الثورة إلى مساره الطبيعي كلما ندت عنه إيماءة تشير إلى كونه قد انحرف

أو أنه قريب من ذلك، ولكم عُومِلَ من بولا لحظة إهدائه القصر إياها أحسن معاملة بعد أن أذاقته الكثير من الهم والنكد، ثم ما لبثت أن تخلت عن سياستها الجديدة تلك شيئًا فشيئًا واستبدلت بها سياسة الإهمال والتجاهل والجفاء الشديد، ولقد كان من بين السياسات التي اتبعتها بولا الخالدي معه - في الكثير من أيام حياتها - الاستفادة هي وأهلها من هذا الثوري القح قَدْر الإمكان، كما أنها تكتمت على إهدائه هذا القصر لها حتى عن أهلها وأقرب الناس إليها خشية من أن يتسرب الخبر إلى الحاقدين من الدهماء الثوريين فينقضوا على القصر انقضاضًا وينتزعوه عنوة من أصحابه، وربما كانت هذه هي نصيحة حسين القاياتي نفسه لها. ثم ها هي الأيام تلف وتدور ويجد حسين القاياتي نفسه رهين القرار الذي توشك بولا الخالدي أن تنطق به جهرًا أمام الجميع، بل إنها لأول مرة تشي أمام الجميع علنًا أنها كل شيء في هذا القصر وما عداها فلا قيمة له تُذكر؛ اللهم إلا إذا منح منها هي بنفسها شيئًا من القيمة والاعتبار، وعلى الفور فهم الجميع أنَّ هذه الثورة الجائحة والكلمات الجارحة، وعملية التجريد الواضحة من كل قيمة وأهمية لا تعني بها أحدًا غير شخص واحد فقط هو حسين القاياتي نفسه.

كانت سما في تلك الأثناء تقف متصنتة وراء باب حجرة الجناح الذي تنزل فيه مع زوجها حربي، كما كانت دقات قلبها تتفاوت ارتفاعًا وانخفاضًا مع كل كلمة كانت تترامى إلى مسمعيها من ناحية البهو الكبير في الطابق السفلي، وربما كان الصوت لا يصل إليها جيدًا، ولكنها كانت تعرف مُقَدمًا النتيجة النهائية لهذا الوضع الذي من المحال أبدًا أن تقبل به أمها الهانم، وفي الحقيقة لم يكن خوفها على نفسها؛ فهي قد حزمت أمرها منذ زمن، وكانت نيتها منذ البداية العيش مع زوجها وحبيبها وفارس أحلامها في جزيرة بمفردهما بعيدًا عن القصر والعائلة والمتاعب الكثيرة التي قد تأتي من وراء ذلك، ولكن إصرار والدها هو الذي أبقاها في قصر الخالدي حتى هذه اللحظة. والآن فجل خوفها على هذا الأب الحنون والذي تفاقمت حالته الصحية إلى الأسوء من السوء نفسه، وربما تضاعفت مخاوفها تلك ناحية أبيها بعد القنبلة التي فجرتها أمها منذ قليل وأنها هي سيدة هذا القصر والمالكة الوحيدة له وليس أي مخلوق آخر، وهنالك دنا منها حربي وقال هامسًا لها بنبرة تنم عن قلق شديد وهو يحاول أن يصيخ السمع مثلها:

- ألا توجد وسيلة ما ناجعة لدى والدك كي يوقف بها هذه المرأة المتسلطة.

فتنهدت تنهيدة ساخنة ثم قالت بنبرة عتاب رقيقة:

- حربي هذه المرأة هي أمي لا تنس ذلك، كما أنني لا أريدك يا حبيبي أن تخشى من أي شيء ما دمت حية.

فطأطأ حربي رأسه علامة الاستجابة لكلامها وهو ينطق معتذرًا بالكاد لها على ما بدر منه من تجاوز في حق أمها بولا الخالدي، والتي هتفت آنذاك بمحاميها سمير زعفران قائلة وسط حالة من الترقب الغير عادي التي سادت بين الجميع:

- سمير زعفران، ليعلم الجميع هنا أنني سيدة القرار في هذا القصر، وهذا القصر ليس للبيع، ولن يبقى فيه إلا من أذنت له أنا فقط بالبقاء فيه، والآن جِدْ لي الصيغة القانونية المناسبة التي يمكنني بها إخراج هذا الرجل المخرف من حياتي إلى الأبد.

نظر حسين طويلاً إلى بولا التي هانت عليها عشرته الطويلة وراحت تهينه هكذا بصراحة وبلا مُوَارَبَة، وأنَّ الموقف الذي أخذه من قبل من أجل ابنته سما قد حانت اللحظة الحاسمة لمعاقبته عليه العقاب العسير، وبان له أنَّ بولا عازمة على الانفصال عنه شكلاً وموضوعًا، والتي اقتربت منه للغاية وقالت بلهجة آمرة:

- والآن لتحزم أمتعتك وترحل إلى الأبد من قصر أسيادك أيها القروي المقزز.

وهنالك لم تقل نظرة عينيه الطويلة إليها أنَّ هل هذا هو جزائي في نهاية المطاف! كما لم تسبها أو تلعنها وتتهمها بالخسة والوضاعة، ولكن قالت عيناه شيئًا مغايرًا تمامًا ولم يكن مُتَوَقَّعًا بالمرة، وكانت الأيام المقبلة هي الكفيلة وحدها بترجمة معنى تلك النظرة اللغز!

●●●

obeikan.com

(٢١)

بصورة مريبة اختفى حسين القاياتي من القصر، ولم يعرف أحد عن مصير هذا الرجل المريض شيئًا يُذكر، حتى رجال أمن القصر أنفسهم أقسموا بأغلظ الأيمان أنهم لا يعلمون شيئًا البتة عن حسين بك وأين هو الآن، وهل غادر القصر من بوابته الرئيسية بلحمه ودمه أم خرج متخفيًا وكأنه دخان أو سراب؛ وهذا إن كان قد غادره من الأصل، أما الصورة الأكثر إثارة - والتي زلزلت أركان القصر زلزلة عظيمة وكادت تهيل الجدران على رأس من فيه - فقد كان أبطالها بعض أبناء العائلة والذين انزعجوا جدًّا من قرار بولا الخالدي المتسلط بعدم رغبتها في بيع القصر، ولعل ماجد كان أكثر هؤلاء الجميع تحمسًا لفكرة البيع، وبخاصة أنَّ لدى والده المشتري الجاهز لشراء القصر بمبلغ مليار دولار، وهنالك انفجر سمير زعفران في نوبة من الضحك وقال وكرشه يهتز بين يديه:

- ألم تقل لكم بولا هانم أنه لا يوجد أي مشترٍ من الأصل، وأنَّ السيد الوالد ومحاميه الأبله كانا يستخفان بكم ، ويوهمانكم بوجود مشترٍ أجنبي للقصر مستعد لدفع مبلغ خيالي، وهذا

مستحيل لأنَّ القيمة السوقية لهذا القصر ومهما بلغت فلن تصل حتى لعُشر هذا المبلغ المزعوم فلا تكن ساذجًا يا بُنَّي.

- كنت أعرف من البداية بأنَّ المبلغ يفوق التصور، ولكن أنا أتحدث عن مبدأ البيع نفسه، أم أنه قد كتب علينا أن نعيش كمجموعة من التحف داخل متحف كبير، ونحن فقراء لا نملك شيئًا يُذكر لمستقبلنا ومستقبل أولادنا.

وسرعان ما سرت همهمات الانقسام بين أفراد العائلة وبين بعضهم البعض في قلب البهو الكبير، ثم ما لبثت أن تحولت إلى جلبة وضجيج شديد وشيء من الصدام، فصرخت بولا الخالدي صرخة مدمدمة في وجوههم جعلتهم يلتزمون الصمت في الحال، وقالت وهي تنظر في نهاية حديثها الحازم بطرف عينيها لأعلى حيث تتراص في هيئة نصف دائرة هائلة المساحة أجنحة القصر العتيد:

- لتغلقوا باب المناقشة في هذا الأمر إلى الأبد، أنا سيدة هذا القصر، وأنا الوحيدة المنوط بها هنا إصدار القرار الذي أراه مناسبًا لمصلحة العائلة، والآن دعوني فلديَّ ما هو أهم من هذه البلبلة السخيفة التي تثيرونها هكذا مثل السوقيين بمنتهى الغباء.

كانت الحياة قد اسودت في وجه سما أكثر مما هي سوداء، ولعل ما جرت به المقادير من أحداث خطيرة في الآونة الأخيرة داخل جنبات القصر؛ قد قلبت لها كل ترتيباتها رأسًا على عقب، فلقد كانت تُمَنِّي نفسها دومًا بحياة هانئة مستقرة مع زوجها حربي الطحان، وأنَّ مثل هذه الحياة الوادعة الآمنة لن تتأتى من غير أن يعود زوجها شيئًا فشيئًا إلى طبيعته قبل حادث الاعتداء الحيواني عليه، وعندما يعود إليه بصره، ويُعَالَجُ بدنيًّا ونفسيًّا مما حدث ويبدأ في نسيان ما أصابه، وهنالك سوف تلقى فيه بكل تأكيد فارسها الكامل الهُمام الذي كانت تحلم به على الدوام، ولكن هيهات أن يكون للمرء شيئًا مما أراد وهناك قوة طاغية تسيطر على مقاليد الأمور وتفسد عليه كل شيء. وربما كان يمثل لها والدها وعلى ما فيه من مرض عضال قبسًا من النور وشيئًا من القوة التي مكنتها - إلى حد ما - من أن تواجه طغيان العائلة التي أذاقتها وزوجها الكثير من أشكال المهانة والاحتقار، أمَّا الطامة الكبرى فتمثلت في ظهور شخص الأم المتجبرة على مسرح الأحداث، والتي لا تعرف شيئًا عن لغة التفاهم أو الرحمة والشفقة، بل زادت الطينة بله بعد الاختفاء المريب لهذا الوالد الطيب حسين القاياتي، فحزنت الابنة من أجله أشد الحزن، كما حزنت من أجل نفسها وأجل زوجها ومصيرهما المجهول في المستقبل المنظور، وهنالك أدركت أنه لا عيش لها في هذا المكان،

obeikan.com

وأنها بعد خروج والدها من اللعبة فقد أضحت وزوجها كفريستين مكشوفتين في العراء أمام عُقَاب فَتَّاك حادّ البصر مُحلِّق في السماء، وأنهما قد صارا محض لقمة سائغة للأم والتي لن تتردد عن افتراسهما وإذاقتهما كل أشكال الذل والهوان، فشرعت من تلقاء نفسها تحزم حقائبها في صمت تام وتستعد لمغادرة القصر ربما إلى الأبد.

كان حربي الطحان في تلك الأثناء يُوَلِّي سما زوجته ظهره عند النافذة المطلة على حديقة القصر المترامية الأطراف، وقد دَسَّ سيجارة في فمه وراح يدخنها بعصبية غير خافية، وكان قليلاً ما يتكلم بلسانه، ولكنها كانت تسمعه دومًا في داخلها ينطق بأعذب الألحان وأشجاها لا مجرد الكلمات العادية التي يتكلم بها البشر، فتركت ما في يدها، ودنت منه، ثم همت تعانق كتفه المرتفع من الخلف، وتطبع كعادتها باسمة لثمات رقيقة على ظهره وقد أشجتها كلماته الساحرة، والتي يتردد صداها في أعمق أعماقها، وأنه لِمَ يجزع الإنسان ومما يخاف؟ وعلام نرهب الحياة ونحن معًا، وإلى الأبد سوف نظل معًا وما دام لن يتخلَّى أحدنا عن الآخر. وهيهات أن يقدر الموت نفسه على قلبين متلاحمين ونفسين ذائبتين في روح واحدة، فليأخذنا إن جَسُر على ذلك معًا، أو يتركنا ويمضي في حال سبيله لأنه لن يتخلَّى أحدنا

عن الآخر ومهما كانت موجة الإفناء عاتية، فكلانا قد أفنى نفسه في الآخر، واختلطت قطرات الدماء ببعضها البعض وبات من رابع المستحيلات التمييز بين دمينا، ودَمِ مَنْ هذا ولِمَنْ يكون هذا الدَمُ؛ فقد أسقط حبنا الكبير كل اعتبارات الحياة المادية التي تحدد معالم الأشياء في محض صور وهمية، وصرنا معًا كواحد في اثنين، ولكن تظل الحقيقة - التي لا قِبَلَ لأحد على إنكارها - أننا واحد في جسدين، وهنالك راحت سما تتململ في وقفتها وتلتصق به أكثر فأكثر وكأنها تريد اختراقه، والذوبان فيه إلى الأبد، فأخذتها سِنَةٌ من العشق اللطيف التي حسبها أن تدغدغ أوصال المرء ولو كان الموت نفسه يقف على بُعد عِدَّة أشبار منه.

وعن كثب وقفت كنَمر متمرد ترمقهما شذرًا بعينيها الحادتين، فالتفت حربي بذعر ناحية الباب الذي كان قد فُتِحَ فجأة، وأفاقت سما من نوبة الهيام التي كانت غارقة فيها لشوشتها، وتطلعت هلعة إلى أمها التي كانت تقف بالباب وبالقرب منها سمير زعفران:

- ساقطة قذرة.

قالتها بولا الخالدي وقد اندفعت كالصاروخ نحو ابنتها ولطمتها بقسوة على خدها، ثم مدت يدها بذات الحدة وأمسكت حربي من تلابيبه وهي تصرخ في وجهه بعصبية - لا قِبَلَ لأحد بها - قائلة وهي تكاد تسقطه أرضًا:

obeikan.com

- وأنت أيها الكلب الأجرب، يا من نسيت نفسك وتجاوزت كل الحدود، طلقها فورًا، ولتغادر القصر إلى الجحيم.

- أرجوكِ خَلِّي يدكِ عنه.

- ليس قبل أن يطلقك أيتها السافلة.

- لا يا بولا هانم، أنا امرأة راشدة، وحربي هو اختياري الحُرّ، ولن يطلقني ولو انطبقت السماء على الأرض، أمَّا عن القصر فلقد كنا على وشك مغادرته في الحال، هو قصر فاخر نعم ولكنه في ناظري مجرد دمنة عفنة تأوي حفنة من الأحياء الذين يشبهون الأموات، حربي هيا بنا يا حبيبي.

قالت جملتها الأخيرة وهي تمد يدها لتأخذ بيد زوجها بغية الرحيل، ولكن بولا من فورها هتفت برجال أمن القصر كي يحضروا، وصرخت بحدة متناهية وهي تشد في الوقت ذاته ابنتها من شعر رأسها الناعم الطويل:

- لم يُخْلَق بعد من يتحدى بولا هانم الخالدي.

ثم أشارت لرجال الأمن الذين انتشروا في أنحاء المكان أن يمسكوا بحربي كمجرم عتيد في الإجرام، وأن يلقوا به إلى عرض الطريق ولتدهسه السيارات والنعال القذرة، أما سما فقد كانت أوامر وتعليمات بولا واضحة وقاطعة للغاية بالنسبة لها،

وأنها لن تغادر القصر إلا لكي تُدفن فقط في مقابر العائلة ما دامت عنيدة هكذا، ومصرة على تحديها وتحدي قوانين وأعراف العائلة، وهنالك اندفعت سما ناحية أمه وهي تقول منهارة بنبرة استعطاف ورجاء وقد شرع رجال الأمن يمسكون زوجها بحدة ويدفعونه بقسوة متناهية إلى الخارج:

- حربي ليس مجرمًا يا أمي حتى تعاملينه هكذا كمجرم إرهابي، حربي هو ذلك الإنسان البطل، والفارس النبيل الذي أنقذ سمعتي وسمعتكم من الفضيحة التي حلَّت بنا ظلمًا، وضحى بحياته ومستقبله ونور عينيه من أجل الحقيقة وليس من أجلي فقط، بل من أجلنا جميعًا أفيكون هذا هو جزاؤه في النهاية!

نظرت بولا بازدراء شديد لابنتها وقالت وهي تهز رأسها بامتعاض:

- أتصور أنَّ هذا التافه هو الذي تركتيني من أجله وهربتِ من الطائرة يوم كنا معًا، هو ليس بطلاً كما تدعين بل مجرمًا حقيرًا مثلك، تستر فيما يبدو على جريمتك البشعة التي لا تغتفر.

- أمي ماذا تقولين؟

أمَّـا سـمير زعفـران الـذي انتحـى جانبًـا كعادتـه فتدخـل ﻓﻲ الحديث لأول مـرة وقـال موجهًـا حديثـه لبـولا علـى وجـه التخصيـص:

- بـولا هـانم لا تَدَعِـي الغضـب يخرجنـا عـن طـور الحقيقـة، سـما أثبتـت النيابـة براءتهـا وكفـى، وهـذه صفحـة طويـت منـذ زمـن، فلمـاذا نفتحهـا الآن بهـذا الشـكل المسـيء لشـخصكم ولشـخص عائلتكـم الموقـرة.

ثم أدار وجهه ﻓﻲ اتجاه حربي الواقف واجمًا بين أيدي رجال الأمـن والذيـن توقفـوا بإشـارة منـه واسـتطرد قائـلاً:

- لا شـك أنـه ثمـة بعـض الرواسـب البغيضـة لهـذه القضيـة، والتـي علينـا أن ننقيهـا ﻓﻲ الحـال، اسـمع يـا بُنَـي يمكننـا أن ننهـي كل شـيء الآن بهـدوء وسـلام، وربمـا أيضًـا يمكنـك الخـروج فائـزًا مـن هـذه اللعبـة بمبلـغ جيـد مـن الـ...

ولكن بولا قاطعته معترضة:

- سـمير لا تدخلنـا مـع هـذا الحقيـر الفاشـل ﻓﻲ هـذا النـوع مـن المسـاومات القـذرة؛ لأنـه إن آجـلاً أو عاجـلاً سـوف يطلقهـا بإرادتـه أم بغيـر إرادتـه.

- مهـلاً يـا سـيدتي مهـلاً، الرجـل قَـدَّم بالفعـل خدمـة جليلـة، أمَّـا إذا اختـار معنـا العنـاد سـبيلاً وأبـى عَرْضَنَـا فـلا يلومـنَّ إلا نفسـه

حينها؛ لأنه ما أسهل الوصول إلى غايتنا من غير أن نبذل قطرة عرق واحدة.

ثم نظر إلى بولا الخالدي وكأنما يستأذنها في تخلية سبيل الرجل من بين أيدي حراسه وهو يقول بشفقة تشبه السخرية المُمِضَّة:

- خلوا سبيل الرجل، ولكن ليأخذ بيده أحدكم إلى الشارع، فقد يصطدم بشجرة أو بسيارة غادية أو رائحة في الطريق.

كان الحراس قد خلوا سبيل حربي الذي وقف حائرًا ومرتبكًا من تداعيات تدفق الأفكار المتضادة على رأسه، كما لم يكن أمامه من سبيل آخر فيما يبدو غير أن يقبل عرض محامي العائلة أو يرحل في صمت وليكن ما يكون، وكانت سما المنهارة - والتي أحست أن كل مجاديفها قد تحطمت تمامًا على صخرة الواقع الأليم - تنظر إلى فتاها العملاق نظرة الغريق المتعلق بقشة في قلب محيط هائج، وتَمَنَّت عليه في نفسها أن يأتيها بجواده الأبيض الناصع ويحملها عنوة كفارس أسطوري من بينهم، ثم ينطلق بها بعيدًا عن هذا العالم المقبض الكئيب.

مضت فترة ليست بالقصيرة كان خلالها سمير زعفران يقبض على يد بولا كي لا تستبق الأحداث وتفسد اعتقاد ما كان

يدور في نفسه آنذاك، وأنَّ الفتى سوف يقبل عرضه المادي وينتهي هذا الكابوس في الحال، ولكن طال صمت حربي زيادة عن اللزوم ففقدت بولا أعصابها، وصرخت في رجال الأمن وهي تدفع حربي من كتفه دفعة عنيفة نحو الخارج:

- اطردوا هذا الكلب من القصر فورًت فأنا لا أطيقه، أمَّا أنتِ ويا من تجري في عروقك دماء أبيك القذرة فلسوف تبقين حبيسة هاهنا ما حييت.

وهنالك جرت سما المنهارة لاحقة بحربي الذي كان يُسْحَبَ عنوة إلى الخارج وقالت له متسائلة:

- ألن تقل شيئًا؟

- ليس الآن يا سما، ليس الآن.

كان حربي يلوح أمام ناظريها من خلال نافذة حجرتها وهو يُسْحَبُ سحبًا عنيفًا من قِبَلِ رجال الأمن عبر مشاية الحديقة الطويلة والتي تنتهي بالبوابة الخارجية الكبيرة للقصر، كان يلتفت بين الفينة والأخرى إلى الوراء، لم يبدِ مقاومة تُذكر، ولكن تواترت إلى ذهنها رسائله تَتْرَى من سماء ذلك العالم البعيد الذي تاقت نفسها لسكناه مع حبيبها منذ زمن بعيد: «الحكمة اقتضت أن أصمت حتى أجد وسيلة ما أَحُلُّ بها مثل هذا الموقف العصيب،

الاندفاع في ادعاء البطولة شطط، وأموال الدنيا لم تكن لتثني عزمي عن مواصلة الحياة معكِ، أنتِ حبيبتي وقرة نفسي وعيني، لستِ سلعة للبيع، ولو وضعوا لي ملء السماء والأرض ذهبًا وفضةً ثمنًا للتخلّي عنكِ؛ فإنني أبذل حياتي نفسها في المقابل فداء الظفر الذي يطير من أصبعِ قدميكِ، وليتني كنت أملك ما هو أكثر قيمة من حياتي حتى أفديكِ به، فماذا تكون حياتي من غيرك؟ لا شيء. بل ماذا تكون الحياة نفسها بدونك يا سرَّ وجودي؛ محض أوهام وعبث سخيف، ولكن ها هي ذي المأساة تؤكد لي أننا معًا ولو لم نكن معًا؛ لأننا روح واحدة في جسدين، فما حاجتنا للجسد الذي يكشف وجودنا، ويكون سر عذابنا، وأما يكفي روحنا الواحدة أن تحلق مرحة في سماء الوجود دون أن ترصدها أدق أجهزة دنيانا قدرة على الرصد، حبيبتي نحن هكذا بمنأى عن العالم المتطفل، ولكنني أعدكِ أنه عما قريب جدًّا سوف نكون معًا بجسدينا وليس بروحنا الواحدة فقط»

راحت سما تودعه بعينيها من وراء قضبان واقعها الأليم، فها هي ذي قد عادت للحبس من جديد، ولكن في مكان غير المكان وظروف غير الظروف، ولم تكن نفسها لتشغلها على الإطلاق وهي الكارهة للحياة؛ تلك الحياة التي تراها قصة صرف بديعة ولكن أفسدها البشر بغبائهم المتعنت، وإنما كان شغلها الشاغل وسؤالها

obeikan.com

الـذي لا يكـف عـن التـردد في نفسـها هـو: كيـف سـيواجه حبيبهـا مصيـره وضروريـات الحيـاة؟ وهـو مـن اعتـاد في الآونـة الأخيـرة علـى أن تفعل مـن أجلـه كل شـيء بيديهـا، وهنالـك راودتهـا أحاسـيس الأم لا مجـرد الزوجـة والحبيبـة، ولهـذا بـدا مـن بعيـد لحظـة خروجـه مـن القصـر وهـو يقـف علـى قارعـة الطريـق بمفـرده كطفـل ضـال يبحـث عـن أمـه، ثـم ألفتـه يمضـي متلطمًـا في دياجيـر ظـلام شـمس النهـار - التـي كانـت سـاطعة آنـذاك - حتـى اختفـى مـن أمـام عينيهـا تمامًـا وإن لـم يختـفِ قـط مـن مخيلتهـا.

●●●

obeikan.com

(٢٢)

مضت عدة أيام على ما كان، أمَّا ما لم يكن بعد فما كان ليحسبه أحد أن يكون – اللهم – إلا في عالم الخرافات والأساطير ففي البداية فوجئت سما بمن يدير المفتاح في كوة باب حجرة نومها، ففهمت أنها ليست حبيسة فقط في القصر بل في حجرتها ذاتها، وما زاد من إحساسها بأنها في سجن حقيقي لا يختلف كثيرًا عن زنزانتها الكئيبة – التي أمضت فيها من قبل فترة عصيبة من حياتها – هي لحظة خروجها بين يدي أحد رجال أمن القصر، والذي قادها مثلما كان يفعل سجانها الصول سالم ولكن ليس إلى مكتب النيابة للتحقيق معها بل إلى مكتب أمها في المبنى الملحق بالقصر مباشرة من الجهة الخلفية. كان استدعاؤها على هذا النحو مدعاة لاجترارها لكثير من صور وجراح الماضي الأليمة، وكيف كان قلبها يكاد يتوقف بين أضلعها من شدة الخوف وهي في طريقها لمقابلة محقق النيابة عرفان غانم، أما اليوم وهي تعيش لحظات شبيهة بما جرى لها من قبل، إلا أنها كانت أكثر ثباتًا وكأنما وجدت المبدأ والهدف الذي يجعلها قوية وقادرة على مواجهة أي شيء في الحياة مهما كان طاغيًا ومخيفًا، وما هي إلا

دقائق معدودات اجتازت خلالها مشاية الحديقة الخلفية، ثم دخلت في رفقة حارسها إلى المبنى الذي يتضمن بين ما يتضمنه حجرة مكتب أمها الفاخرة، والتي أصرت أن تظل هيئتها على الطراز الملكي المبهر، حيث السجاجيد العجمية الحمراء التي تغوص فيها الأقدام، والأطقم واللوحات المذهبة، والثرايا الهائلة التي تتدلى من السقف البالغ الارتفاع، والذي تزينه الرسوم الزيتية المصممة بذوق لا مثيل له. مضت فترة وبعدها امتثلت سما واقفة كالمتهمة أمام أمها، كانت بولا جالسة حينذاك إلى مكتبها تدخن سيجارًا فخيمًا بعصبية مفرطة، وأمامها مباشرة بدا جالسًا الأستاذ سمير زعفران، والذي ابتدرها قائلاً وعلى شفتيه ابتسامة واثقة على الدوام وهو يشير في الوقت ذاته إلى أحد المقاعد القريبة من منضدة رصت عليها بعض الأوراق وقلم:

- اجلسي يا بُنَيتي هناك، معذرة فلدينا بعض الأوراق التي ينبغي أن توقيعينها الآن.

- أنا لن أوقع على شيء.

قالتها سما باندفاع جم لم تسبقه لحظة فضول، ولكن علام الفضول حقًّا ومحاولة افتضاض كنهه وهي العالمة بداهةً في نفسها ببواطن الأمور، وأنَّ جلسة جمعت أمها وهذا الرجل الداهية لن تنطوي على أي خير لها بحال من الأحوال، وهنالك اندفعت الأم

لكـي تقـول شـيئًا مـا،، ولكـن إشـارة مـن محاميهـا الثعلـب أسـكتتها حتـى حـين، والـذي انتصـب واقفًـا ثـم مضـى مختـالاً كالطـاووس في اتجـاه سـما وهـو يقـول:

- كان حريًّـا بـكِ أن تسـألينني ابتـداءً عـن ماهيـة الشـيء الـذي أريد منـكِ التوقيـع عليـه، وعَمّـك وحبيبـكِ الطيـب كان سـيجيبكِ بمنتهـى الوضـوح ومـن غيـر أي لَـفّ أو دوران.

- لـن أسـأل؛ لأنني عازمـة في نفسـي علـى قـرار واحـد فقـط لا غيـره.

ربمـا للمرة العاشـرة خـلال لحظـات قليلـة تمنـع نظـرة مـا – مـن عينـي الرجـل – بـولا الخالـدي مـن الاندفـاع ي الهجـوم الشـرس علـى ابنتهـا والتـي تراهـا متمـردة علـى الـدوام، وربمـا مـن يـوم ولدتهـا، وقـال وهـو لـم يـزل بعـد محتفظًـا بابتسـامة الواثـق علـى شـفتيه اللتـين ران عليهمـا شـيئًا مـن سـواد الزمـن الطويـل:

- أنـتِ لـم تسـألي ومـع ذلـك سـوف أجيـب علـى السؤال المفترض أن يكـون، هـذه الأوراق خاصـة بتوكيـل منـكِ لشخصـي المتواضـع، والـذي بموجبـه سـوف أرفـع قضيـة خلـع مـن أجلـك ضـد زوجـك المدعـو حربـي عبـد السـلام الطحـان المولـود بقريـة أبشـيط التابعـة للمحلـة الكبـرى، وهـذا كل مـا في الأمـر.

لم تنطق سما ببنت شفة، وحسبها أنها قد أعلنت عن قرارها بشكل قطعي، ولهذا استطرد سمير قائلاً بتحفظ على جملته الأخيرة لعلمه المسبق بنية الفتاة:

- أجل هذا كل ما في الأمر حقًّا ولكن ليس كل شيء على الإطلاق، ستقولين لعمك سمير لماذا؟ ولسوف أقول لكِ في الحال، نحن الكبار ومن نعلم أكثر منكم – أنتم أيها الصغار الأغرار – ما هو الشيء المفيد حقًّا لحياة المرء وما هو الشيء الضار الذي لا ينفعه أبدًا، وبناءً على معرفتنا بالصالح العام فقد لا تعوزنا الحاجة للإلحاح أحيانًا؛ لنيل بعض الأشياء التي نطلبها منكم أيها الصغار، فأنتِ حرة فيما تقررينه، ونحن أيضًا بكل تأكيد أحرار فيما سنفعله.

انتبهت سما القاياتي كل الانتباه، وبانت نظرة استفهام كبيرة في عينيها اللتين اتسعتا للغاية وكأنما قد أدركت أنَّ وراء مثل هذا الكلام من التهديد والوعيد وما لا تحبه أن يكون أبدًا، وهو ما كان بالفعل، فسرعان ما أردف الرجل قائلاً:

- معذرة للجوئنا إلى ما دفعتينا أنتِ بنفسكِ إليه، كان ينبغي أن تكوني عاقلة ومتفهمة في آنٍ واحدٍ؛ لخطورة الموقف، ونحن أيضًا بلغنا من العقل والصبر ما يجعلنا نصرف النظر إلى وقت معين عن أذية الولد حربي بأي شكل من الأشكال،

حسنًا لا توقعي على التوكيل؛ هه نحن سوف نوقعه من أجلك، وسمير زعفران لن يدقق معه أحد في شيء، كما أنه يستطيع أن يصل إلى ما يريده بأسرع مما تتصورين.

- ولكن هذا تزوير بحت!

- سَمِّيهِ تزوير، سَمِّيهِ احتيال، ولكن الشيء الهام في الموضوع أننا نحبك حقًّا، ونحب ألا تتلوث سمعة العائلة أكثر من ذلك.

- في هذه الحالة سوف أفضح العائلة أنا بنفسي.

- بنت.

قالتها بولا الخالدي زاعقة وهي تهب واقفة وتدق في الوقت ذاته على سطح المكتب الزجاجي بقبضة يديها المتشنجتين؛ فالتفتت سما ناحيتها وقالت بثبات ومن غير أن تهتز لها شعرة في مفرق رأسها:

- أنتم يا أمي اخترتم ذلك، ومن حقي أن يكون لي رد الفعل الذي أحمي به أسرتي، زوجي، حبي.

- أنتِ واهمة لأنكِ في قبضة يدي أنا، بولا هانم الخالدي، ولسوف تبقين البقية الباقية في حياتك رهينة حجرتك تحت الحراسة المشددة كأي مجرم رعديد، ومن غير أية وسيلة

اتصـال تربطـك بالحيـاة علـى الإطـلاق.

- هذا ظلم، ظلم.

- اخرسـي أيتها المتمردة السـافلة.

- قـد تقدريـن علـى ذلـك لفتـرة ولكـن ليـس إلـى الأبـد؛ لأنَّ اللّه لا يرضـى بالظلـم، ولسـوف يأتـي اليـوم الـذي أفضحكـم فيـه أمـام العالـم كلـه.

- هـه لـن يكـون هـذا اليـوم أبدًا.

ثـم دنـت منهـا للغايـة وقالـت وهـي تسـحقها بنظـرات ناريـة تشـع مـن عينيهـا الملونتـين كحبتـين مـن الجعـران:

- ألـم تنظـري إلـى نفسـكِ في المـرآة وكيـف أصبحـتِ مـن الضعـف والترهـل غيـر قـادرة علـى مواجهـة مجـرد بعوضـة، فعـلام كل هـذا العنـد والتحـدي، ومـن أجـل مَـنْ؟ حيـوان قـذر ليـس أكثـر، هـه أمـا إن كنـتِ تعولـين علـى عـودة والـدك فلقـد ذهـب في داهيـة ولـن يعـود أبـدًا، وإن عـاد فـلا لشـيء إلا ليـرى بعينيـه كـم هـو ضعيـف ولا قيمـة لـه علـى الإطـلاق.

عـادت سـما محطمـة إلـى حجرتهـا، التـي باتـت محبسـها المعتقلـة فيـه بصفـة مسـتمرة وهـي تهـذي، وتنـدب حظهـا السـيئ بعـد أن

obeikan.com

سدت أبواب الحياة كلها في وجهها، ونزعت منها كل الأشياء التي قد تعينها على اتخاذ أية خطوات معينة يمكن أن يهديها إليها تفكيرها، ولم تعد لديها أدنى وسيلة تتصل بها بالعالم الخارجي أو تدعه هو يتصل بها، فراحت تلفُّ وتدور في الحجرة كالمجنونة باحثة عن خرم إبرة يمكنها النفاذ منه ولكن بلا جدوى، وكلما سمعت صوت خطوات تمر من أمام باب الحجرة الموصد سارعت نحوه وهمت تنادي على أخوتها وأزواجهم وأبنائهم أو من أفراد العائلة من توسمت فيه خيرًا وأنه قد يقبل أن يمد لها يد العون ولو سرًّا. فلقد كان عليها أن تتصرف سريعًا حتى تفسد مخطط أمها ومحاميها الرجل الثعلب الذي لا تدري على أي شيء أَقْسَمَ يوم تَخَرَّجَ من كلية الحقوق، وعمل بمهنة المحاماة التي من المفترض أنَّ فيها بطبيعة الحال الشرف والعفة والنزاهة، وهنالك تذكرت نعيم الضو صديق والدها المحامي وودت من كل قلبها أن تجد وسيلة ما تساعدها على الاتصال به، فليس من المستبعد بل ربما من المؤكد أنه الوحيد الذي يعرف مكان والدها، والدها ذلك العطوف الحنون صاحب السحنة والقلب الملائكي، والذي لن يقبل بحال من الأحوال هذا الوضع الشيطاني الذي وضعتها فيه أمها الطاغية، فأمضت ليلتها كلها والليالي التالية تدعو الله في خلوتها أن يعيده إليها سالمًا، فمن غيره يقدر على وهبها حريتها مرة أخرى، فلكم تتوق إلى تنسم هواء الحرية والانطلاق إلى من تحب

وتعشق. ذلك الحبيب الذي تلتمس له كل العذر وتختلق من أجله كل الأسباب والأعذار بعد عجزه عن انتزاعها عنوة من بين براثن أهلها، ثم حملها على جواده المجنح إلى عالمهما اللبني البريء من كل مظاهر الشر والحقد والكراهية. فتُرى كيف حاله الآن وأين هو؟ وماذا يأكل وماذا يشرب؟ وكيف يسير في الأرض والظلمة ديدن حياته المقيتة؟ وفجأة امتقع وجهها بمئات الألوان وخفق قلبها خفقانًا مريعًا وهي تعدد في نفسها كَمَّ الشرور والأعداء التي في انتظار هذا الفارس الضرير، فلقد كانت تعده في حماها وحمى والدها العزيز حتى يعود إلى حالته الطبيعية، وها هو الآن يسبح في عراء الوجود وحده بلا أدنى مظلة تأويه، ولا ملاذ له أو قوة تدفع عنه العصابة التي تجهد نفسها بحثًا عنه لكي تقتله، وتمزقه إربًا إربًا بعد أن أفشل مخططها وفضح حقيقة إتجارها في المخدرات، بل ماذا تراه سيفعل أمام داهية مثل سمير زعفران والذي لن يتورع عن ارتكاب أية جريمة في الخفاء من أجل انتزاع الطلاق منه عنوة، ونيل رضاء الهانم التي هي أمها بولا الخالدي بطبيعة الحال. ولكنها راحت تطمئن نفسها وأن محاميًا شهيرًا مثل سمير زعفران لن يلجأ إلى جريمة قذرة قد تفضحه، وتلوث تاريخه إلى الأبد إن اكتشف أمرها، وذاع سرها، وأنَّ الرجل كان صادقًا معها إلى أقصى درجة، وكان يلعب معها على المكشوف كما يقولون، وأنه سوف يذهب إلى المحكمة بتوكيل مزور منها

لكي يخلعها من زوجها رَغْمًا عنها، فانهارت سما أمام هذا الواقع المرير، وراحت ترغي وتزبد وهي تردد في نفسها ألا ما أبشع هذا التدخل السافر في حياة الآخرين، وحرمانهم مما يحبون ومن أجله يحيون، وأنه لا بُدَّ إذن من وسيلة ما تفضح بها في أسرع وقت ممكن هذا المخطط الإبليسي الدنيء وقبل أن تفاجأ بأنها لم تعد على ذمة زوجها رَغْمًا عن أنفها. فجُنَّ جنونها وهي تجد أنَّ كل طريق مضت فيه بفكرها موصدٌ أمامها بالضبة والمفتاح، وأنه لا سبيل غير الاستسلام القسري لهذا الواقع الحالك الظلمة، وفجأة لمحت من بعيد «برهان» رجل الأمن الذي كثيرًا ما كان يتجاذب معها أطراف الحديث بكل مظاهر الود والصداقة وهو يمرق قريبًا من أسفل نافذتها المحكمة الإيصاد، فبادرت على وجه السرعة تكتب شيئًا ما في ورقة طوتها جيدًا، ثم راحت تمررها من خلال فرجة صغيرة للغاية في النافذة وتركتها لأجنحة الهواء تتهاوى بها بين أشجار الحديقة العملاقة إلى الأرض، وقد جعلت تتمتم بالدعاء لله أن تصل هذه الورقة إلى «برهان» نفسه وليس إلى أي شخص آخر، كان برهان في تلك الأثناء منهمكًا في الحديث عبر هاتفه المحمول، ولكنه فجأة لمح الورقة وهي تسقط تحت قدميه مباشرة، لم يأبه في البداية بهذه المُزقة وكاد يتجاوزها، بل ربما داس عليها بقدميه وتخطاها قليلاً، غير أنه سمع فجأة طرقات ما تأتي من أعلاه فرفع رأسه لفوق بشكل تلقائي؛ فلمح

سما واقفة وراء لوح نافذتها الزجاجي وقد ندت عنها إشارات انفعالية للغاية جعلته ينتبه إلى الورقة المطوية التي دهسها بقدميه قبل لحظات قليلة. وهنالك رقص قلب سما طربًا، وأحست أنها قد نجحت ف مسعاها، وأنَّ برهان الذي أحنى رأسه في اتجاه الناحية التي تشير إليها سما، ثم مال على الأرض سريعًا والتقط الورقة بخفة، وقرأها بنظرة خاطفة، لا ريب أنه ضالتها المنشودة والشخص الثقة الذي سوف يتكتم أمرها ويحقق لها مأربها في صمت وفي أقصر وقت ممكن.

مضت الدقائق عليها ثقيلة كالدهر، كانت تنتظر خلالها رد الفعل المأمول من رجل الأمن برهان، وعساه أن يجد وسيلة ما لكي يعطيها هاتفًا محمولاً كما طلبت منه عبر رسالتها الطائرة، والتي لم تنس أن تعده من خلالها بإعطائه نظير هذه الخدمة الجليلة مبلغًا طائلاً من المال، وظلت الفتاة قابعة في حجرتها منتظرة على أحر من الجمر مجيء الهاتف المحمول، والتي ستتمكن من خلاله الاتصال بالعالم الخارجي وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وفجأة فُتِحَ الباب على مصراعيه ووجدت من يمد لها يده بالهاتف المحمول!

●●●

obeikan.com

(٢٣)

مدَّ برهان يده بالهاتف المحمول الذي طلبته منه سما القاياتي، والتي وقفت تنظر إليه مذهولة وكأنَّ على رأسها الطير، فيما كان صوتًا هادئًا يرجرج الأرض من تحت قدميها رجرجة عنيفة وهو يقول:

- هيا أرينا مَنْ كنتِ تنوين الاتصال به؟

كانت بولا الخالدي واقفة بالباب وقد عقدت ذراعيها عند صدرها وهي تنظر إلى ابنتها نظرة تطق شررًا، لم تكن سما حينها تتوقع أن يصدر مثل هذا التصرف الخسيس من رجل الأمن برهان الذي كانت تكن له كل التقدير، فهمهمت قائلة وهي تنظر إليه بحسرة شديدة:

- الخيانة ودائمًا الخيانة هي سر كل النكبات البشرية.

أطرق برهان خجلاً ثم استدار على عقبيه منصرفًا وهو يخفي نظرة خجل في عينيه، أو هكذا توهمت سما والتي كانت تحسن الظن دائمًا بغيرها، فهي لم ترث الدماء القذرة من أبيها كما تزعم أمها الأرستقراطية سليلة المجد والشرف الرفيع،

obeikan.com

بل ورثت عنه نقاء السريرة وطيب القلب، ولكم تَمَنَّت في هذه اللحظة لو تمنحها أمها الفرصة فترتمي في أحضانها، وتعتذر لها على لحظة هروبها من الطائرة قبل مغادرتها أرض مصر متجهة إلى لندن، وأنها كانت في حالة سيئة للغاية، كما كانت لا يشغلها شاغل في الحياة غير الوصول إلى حقيقة ما جرى لها، ومعرفة أي فارس مغوار هذا الذي كان وراء براءتها التي حررت عنقها وشرفها من حبل المشنقة. والحق كل الحق أنها أخطأت يوم غافلت أمها وهربت منها لتبحث عن الحقيقة وعن فارسها الهمام، ولكن عزاؤها الوحيد أنَّ أمها بولا هانم لم تكن من صنف النساء اللائي يتسع صدورهن لأبنائهن، ويصغين إلى أحاسيسهم وشكاياهم، لقد كانت دومًا جامدة كحجر صوان، ولم تعرف الابتسامة إلى وجهها سبيلاً اللهم إلا في لحظة إحساسها بالزهو والفخار؛ لانتصارها على غريم ما أو بلوغ غاية من الغايات القصوى التي تملأ جوانحها كأن تقع كارثة لنظام عبد الناصر أو من خلفوه في الحكم، وهنالك دنت سما من أمها واكتست ملامحها بالرقة المعهودة وقالت لها بنبرة حانية تحمل كل آيات الود في شغاف نفسها:

- أعلم يا أمي أنكِ غاضبة مِنِّي، ولكن ألا تصدقينني، ما مررت به لم يكن سهلاً بالمرة، وكفى أن تعلمي أنني ارتديت في نفسي

ملابس الموت الحمراء في لحظة ما من حياتي، وتهيأت للرقاد في باطن الأرض لا فوقها، ورأيتهم يسوون لَحْدِي ويعدون نَعْشِي ثم رأيتني أموت أمام عيني ثم وقد وسدت الثرى، وارتفع الشاهد على قبري، هنا ترقد سما حسين عبد المنعم القاياتي نزيلة سجن النساء رقم ٥٥٧٠، والصادر ضدها الحكم بالإعدام شنقًا لضلوعها في جلب والإتجار بأخطر أنواع المخدرات، وإفساد الشباب والوطن، ولكن فجأة والحياة سوداء عابسة كئيبة تنشق عن ظلمة الليل العصيب أثارة من نور، تُحيل الموت إلى الحياة، والتهمة المشينة والفضيحة المريرة إلى البراءة المتوجة بأكاليل الغار، فكيف ترين من عادت إلى حياة بعد سنة من الموت، وتراه ماذا يستحق ذلك الفارس العظيم الذي كان هو بلا شك شعاع النور الذي أنار لنا جميعًا ظلمة الحياة؟

ظلت بولا واجمة لفترة مثل تمثال حجري جامد لا يلين، ثم قالت أخيرًا متنهدة تحت إلحاح نظرات عيني ابنتها المتسائلة:

- هيه، يطلقكِ أولاً ثم لنتناقش في أمر مكافأته فيما بعد.

- حربي لا يفكر في الأمور المالية كما تخالين يا أمي، بل لنقل هو إنسان فوق المعتاد، فارس بحق قلما جاد الزمان بمثله.

- لا تدعيني أدخل معكِ في رهان، الناس يذوبون كالشموع أمام لهيب المادة، ولعل حفنة من النقود سوف تكشف لكِ حبيبك هذا على حقيقته.

- بل أقبل الرهان.

- وأنا لا أقبل أن يساومني أحد، وبخاصة عندما يكون هذا المساوم صعلوكًا رقيعًا جاءنا من الشارع.

- حربي يا أمي ليس صعلوكًا بل رقيقاً حَسَّاسًا، وكفى أنه قد غادر القصر بهدوء ومن غير أن ينطق بكلمة واحدة، ولو أنه حقًّا...

- كفى كفى، لا تحدثيني عنه أكثر من ذلك، هو مجرد آفة تافهة لا أكثر، فليخرج من حياتنا إلى الأبد.

- برغبتي أنا لا برغبة أي مخلوق آخر، وما تدبرين له أنتِ ومحاميكِ لن يكون أبدًا، على جثتي؛ لأنني وهبت نفسي خادمة لهذا الرجل ما حييت.

- خادمة! قذرة، كنتِ ومازلتِ بعد أقول بكل أسى وألم أنكِ الوحيدة من بين أبنائي التي حملت في عروقها دماء نتنة دنيئة، ولكن هذه الحقيقة المخجلة لن أدعها أبدًا تلطخ اسم عائلتنا سليلة المجد والعظمة، والدك الفلاح القح أجبرتنا الضرورة

obeikan.com

عليه، ولكن ماذا يجبرنا الآن في رأيك على قبول حيوان آخر في عائلتنا الشريفة؟ من هو فوق سوف يظل في مكانه سيدًا ومهما كانت تقلبات الزمن، ومهما ارتجت الزجاجة ومهما انقلب الهرم؛ لأنَّ من هو تحت سوف يظل كما هو وإن رفعته أهواء البشر إلى عنان السماء، هذه بدهية، فحاذري من المُضِيّ معي في العناد أكثر من ذلك يا رخيصة الدماء.

- العناد الحق أن نرفض مشيئة اللّه الذي جعل الناس سواسية كأسنان المشط، وأنَّ أكرمهم عنده أتقاهم وليس أي شيء آخر.

كانت أبواب الحوار قد أوصدت من تلقاء نفسها شيئًا فشيئًا، ولم تبق غير لغة الأعين التي كانت تدور في محاجرها مثل دومات البحر الهادرة، وهنالك توقف الحوار بينهما تمامًا، فكلاهما كان يمضي بقوة نعم ولكن في الاتجاه الآخر المضاد، ولكن لم تشأ بولا الخالدي كطبعها المألوف أن تتصرف من غير أن تضع بصمتها الدامغة على الحديث، فاقتربت بوجهها ذي القسمات الحادة للغاية من ابنتها وقالت بصوت خفيض ولكنه حمل في طياته صخب المعاني المدمرة لكل شيء في سبيلها:

- لو كان موتك هو النتيجة الحتمية لهذا العناد فلا بأس عندي مطلقًا.

في تلك الأثناء لم يكن نعيم الضو في حاجة لأن يتصل به أحد؛ لأنَّ الكثير من المعلومات الخاصة بما يدور في قلب القصر من الداخل كانت قد وصلته بالفعل، ولقد وضعته هذه الصورة المؤسفة لما يحدث في أفنية القصر الداخلية في حيرة بالغة، وبخاصة أنه لم يكن يعلم حتى هذه اللحظة ماذا أصاب صاحبه حسين القاياتي على وجه اليقين، وأين عساه يكون في هذه الساعة؟ فقد كان اختفاؤه مريبًا بحق وحقيق ولكن كان ما حدث في إطار عائلي صرف، كما أنَّ مسألة طرد حربي الطحان من القصر والتحفظ على سما بهذا الشكل وجعلها حبيسة الأسوار العالية؛ لهو من قبيل الغصة التي تملأ النفس، والشوكة التي تسد الحلق ولا سبيل لانتزاعها، وأنَّ أي تدخل منه سوف يُقَابل على الفور بكلمة واحدة لا غير: وما شأنك أنتَ في هذه المسألة الصرف عائلية أيها المتطفل السخيف!

ظل نعيم الضو حتى ساعة متأخرة من الليل يقلب الأمور في رأسه بحيرة بالغة، وهو ينتظر إلى جوار هاتفه المحمول على أحر من الجمر، فلقد أجرى العديد من الاتصالات الهاتفية التي قد تعينه على الاهتداء إلى مكان صديقه حسين القاياتي، وها هو في انتظار أي خبر يأتيه من هنا أو هناك عن صاحبه الذي اختفى على هذا النحو المريب، وربما فكر أكثر من مرة في اقتحام جُدُر القصر الحصينة ومواجهة العائلة من أجل صاحبه وابنته البائسة

المحطمة الفؤاد، ولكنه كان يعلم بداهة أنَّ مثله على رأس قائمة الممنوعين من دخول القصر، ولكن كان عليه أن يتصرف وبسرعة قصوى حتى لا تتفاقم الأمور أكثر من ذلك، وتصل إلى الحد الذي لا يمكن لأحد السيطرة عليه بأي شكل من الأشكال.

في الهزيع الأخير من تلك الليلة الليلاء هبت سما من فراشها كالمخنوقة، هائشة الشعر، متحجرة العينين، وطيف والدها اللطيف يهيم بها، وصورة زوجها لا تبرح مخيلتها أبدًا، وربما أحست – إن صدقًا أو وهمًا – أنَّ أحشاءها قد بدأت تتحرك بروح جديدة، فراودتها رغبة الخروج من هذا المكان بأي ثمن، والانطلاق بحثًا عن حبيبيها ولو إلى أبد الآبدين، فراحت تصرخ وتضرب الحوائط من حواليها وتطرق الباب الخشبي للحجرة بكل ما تأتي لساعديها من قوة وغلِّ، وكأنما ترسل برسالة صاخبة إلى العالم بأسره، لأكن ثورة تقض مضاجع النائمين الهانئين الذين أقضوا مضجعي، وأَرَّقوا ليلي ونهاري، وبَشَّعوا صورة الحياة في وجهي، فهنيئًا لهم الإزعاج والصخب المدمدم، وليل سرمد لا تنجلي له ظلمة. وهنالك علا صراخها إلى حد الجنون عساهم يستيقظون وتفيق ضمائرهم من تلك السلبية المقيتة، وتنجلي غشاوة أبصارهم الكليلة التي لا ترى أبعد من أنفسهم المريضة، فانتفض جميع من في القصر هلعًا، وهرولوا إلى جناح الموت الذي تقيم فيه سما – التي كانت لم تزل تصرخ بشكل هستيري وتكاد تخلع باب الحجرة

الموصد من مصاريعه – وفي الحال اتفقوا فيما بين بعضهم البعض – إن تلميحًا أو تصريحًا – على ضرورة إيداع هذه المختلة عقليًّا في مصحة نفسية؛ فمن ذا يطيق مثل هذا الصخب المزعج، ومن يحتمل وجود إنسان خطير أصبح كالكلب المسعور، غير أنَّ ظهور بولا الخالدي في نهاية الردهة بين رجلي أمن القصر ألزم الجميع الصمت، وأوقف حالة اللغط العبثية التي انتابتهم، وراحوا في صمت يتطلعون إلى اللحظات المقبلة وما ستسفر عنه، بعد ثوانٍ معدودات فتح باب الجناح، ومن غير تفكير لُطِمَت الفتاة على صدغها لطمةً أسقطتها أرضًا، ولكنها نهضت مهرولة وقد بلغ بها الإعياء مبلغًا ناحية أمها الصارمة وهي تلهث قائلة:

- لماذا تفعلين هذا بي، أليس في قلبك ذرة من رحمة، ألست ابنتك، وأنتم أيها الميتون ساكني الأنفس الأنانية، ألست واحدة منكم، ألست ابنتكم وأختكم، أو على أقل تقدير إنسانة لا ذنب لها، ولم تجنِ على أحد، بل جنايتها على نفسها وحدها هي فحسب بزعمكم ...

تكلمت الفتاة التعيسة كثيرًا وطويلاً ولكنَّ أحدًا لم ينصت إليها، ولم يَدُقّ أي قلب في الصدور المتحجرة مجرد دَقَّة شفقة واحدة من أجل هذه البائسة؛ والتي اقتيدت عنوة أمام أعينهم بواسطة رجلي الأمن ليس إلى خارج القصر كما تصوروا ولكن إلى مكان مجهول فيه.

كان الجد الكبير للعائلة قد اعتاد فيما مضى على تأديب عبيده كلما أخطئوا في هذا المكان البشع المجهول من القصر، ذلك المكان الذي لا يعرفه أحد، حتى من يقيمون في القصر أنفسهم كانوا لا يعلمون شيئًا عن هذا المعتقل السري، اللهم إلا بولا الخالدي التي كانت تعرف دائمًا ما لا يعرفه أحد، والتي راحت تضع ابنتها بيديها في هذا المكان المُقبض كالمقبرة المسكونة بالجِنِّ والأشباح المرعبة، والذي لا يمكن تحديد كنهه ومكانه بحال من الأحوال، وهل هو فوق الأرض أم تحتها، أم هو محض مكان خرافي رهيب كالذي نسمع عنه في عالم الأساطير والألغاز! وقبل أن تمضي بولا مغادرة إياه قالت لسما التي كانت ترتجف فرقًا:

- يمكنك الصراخ هنا كما يحلو لكِ.

وفي الصباح الباكر دخل رجال الشرطة إلى القصر في رفقة نعيم الضو وهم يحملون إذنًا من النيابة بتفتيش القصر، والبحث في المكان بأسره عن كل من المدعو «حسين القاياتي» و«سما القاياتي» واللذان بحسب البلاغ المقدم من المحامي نعيم الضو اختفيا في ظل ظروف غامضة مريبة، وبعلم من بولا هانم الخالدي نفسها، فشرعت بولا تقول بهدوء وثقة متناهيتين للضابط الذي كان يتحدث إليها بأدب جم:

- بالنسبة لحسين القاياتي فقد طردته من قصري علنًا ولا

علم لِي بمكانه الآن، أما ابنتي فقد ذهبت مع زوجها حربي الطحان إلى أين لست أدري، وعلى أية حال تفضل بتفتيش القصر كله كما شئت، ولكن لا تمشِ من هنا قبل أن تثبت في محضرك أنَّ البلاغ المقدم من حضرة المحامي الموقر ليس فقط بلاغًا كاذبًا وكيديًّا، وإنما فيه من التشهير والتعريض بسمعة العائلة ما يوقعه تحت طائلة قانون السب والقذف العلني والإضرار بسمعة الآخرين؛ لأننا بطبيعة الحال كعائلة ذائعة الصيت لن نقبل بسلوك أولئك المحامين الذين يريدون تحقيق الشهرة على حساب العائلات الكبرى التي لها قدرها وسمعتها في البلد.

وهنالك أدرك نعيم الضو في خبيئة نفسه أنَّ بولا الخالدي قد حزمت أمورها بدقة متناهية، وأنَّ لهفته على صاحبه قد جعلته يتهور في تصرفه زيادة عن اللزوم، وأنه كما يبدو لم يتحقق جيدًا من المعلومات التي وردت إليه، وأنه قد وقع لا محالة في أحابيل امرأة شديدة الحيطة، ما تلبث هي ومحاميها - الداهية سمير زعفران - أن يورطانه في قضية تشهير ورد اعتبار وشرف، قد تصل عقوبتها إلى تعويض مالي هائل بمئات الألوف من الجنيهات، وربما إلى السجن نفسه!

●●●

(٢٤)

كانت سما قد وصلت إلى مرحلة الانهيار العصبي تقريبًا، إن لم تكن قد تجاوزتها بالفعل، فها هي ذي قد فقدت كل قدراتها في السيطرة على نفسها، فأخذت تبكي وتنوح بشكل هستيري، وتلف تدور في أنحاء المكان المقبض مثل حيوان جريح يبحث له عن ثغرة يفر منها، وينال من خلالها قسطًا من حريته السليبة، فما أروع الحياة وما أتعس الإنسان الذي حُرِمَ منها ومن استنشاق عبيرها الزكي، ولكن هناك من البشر من يصادرون على حريات الآخرين بدعاوى زائفة، ويقتلون أزهار الحب الرقيقة لا لكونهم لا يفهمون ما هو الحب وإنما لكونهم يكرهونه، ويكرهون الحياة، وربما يكرهون أنفسهم. فالحب هو السمو فوق كل الفوارق، وكل أشكال التناقضات التي نعرفها نحن البشر، الحب هو التجرد التام من الحقد والأنانية والعقد، هو الشفافية المطلقة ولهذا يمرض سريعًا، ويموت بطيئًا، ويعذب به المحبين ويكتوون، وبهم يتعذب الحب، والويل كل الويل لمن أصابته سكرات الحب أو شهد لحظة احتضاره في شغاف قلبه ومشاعره، تلك اللحظة التي ظلت سما تصارعها طويلاً، وابتهلت إلى الله ألا يدعها تشهدها في نفسها

هذه اللحظة أبدًا؛ لأنَّ الحب لا يموت ولكن يُقتل غيلة، ويُطعن غدرًا من الخلف وهو في محراب الخبت والسكينة، وسرعان ما ارتسمت صور قتلة الحب وما أكثرهم في الحياة على جدران المكان الكالحة، فانتابتها مجددًا حالة من الصراخ الهستيري، وهجمت على الحوائط تنبشها بأظافر أصابع يديها الواهنتين، وتمزق صور هؤلاء القتلة الذين ترصدوا لحبها بلا أي وازع من ضمير وبلا رحمة وشفقة.

هبَّ حسين القاياتي منزعجًا من سباته وهو يتصبب عرقًا ويلهث بشدة، وبدا لأول وهلة كمن رأى كابوسًا مزعجًا، فاستدار ناحيته عمُّهُ غريب والذي كان ينام إلى جواره على ذات الحصيرة الرقيقة، التي تمزقت في صفحتها المهترئة أعواد الصفصاف الجافة، كان وجهه متغضنًا وعتيقًا للغاية وقد انطبعت على خَدِّه أخاديد نتجت من رقاده الطويل على تلك الأعواد الخشنة، وقال بصوت في غاية الوهن:

- لعنة اللّه على هذا الكابوس الملعون الذي لا يفارقك أبدًا.

كان حسين قد استبد به المرض تمامًا منذ اللحظة التي قرر فيها مغادرة القصر فجرًا ومن غير أن يشعر به أحد، كان يريد أن يبتعد ليس عن القصر وحده فحسب، ولكن ودَّ من كل قلبه لو يسعفه الحظ ويخرجه من الدنيا بأسرها، فركب سيارته وانطلق

بها وهو يكاد يُغشى عليه ولكن إلى أين؟ كانت تلك هي المشكلة التي قابلته في البداية، فلم يشأ أن يذهب إلى صديق عمره نعيم الضو، كما استبعد نهائيًّا فكرة العودة إلى أهله البسطاء الطيبين في حوش عيسى؛ لا لشيء إلا لأنه أراد أن يختلي بنفسه في مكان لا يستطيع أحد الوصول إليه، مكان يستطيع أن يحاسب نفسه فيه على ما بدر منه خلال سنوات عمره الطويلة التي خلت، وبخاصة أنه كان يشعر في قرارة نفسه أنه قد أوشك على مفارقتها إلى الأبد. وليس هذا السبب وحده فحسب الذي دفعه إلى الفرار لهذا المكان المجهول وإنما لإحساسه بالفشل الذريع الذي ضعضع له كل أركان حياته، وأهال على رأسه تاريخه الطويل، فقد بدا في نظر نفسه محض تجربة فاشلة في الحياة ما تلبث أن تذهب هباءً ونسيًا منسيًّا، ثم يُهال عليها التراب إلى الأبد، فأي حياة تلك التي تنتهي بمثل هذه النهاية التعسة وتكون مساوية للصفر، فلم يكن هذا على الإطلاق هو حلمه ولا تخطيطه منذ بداية حياته، ويوم كان يسير صبيًّا بين الكبار في المظاهرات المناهضة للاحتلال البريطاني، ويوم خرج مساندًا للضباط الأحرار ضد القصر والظلم والطغيان، بل كان على رأس من خرجوا لإعادة ناصر إلى الحكم يوم تنحيه ليس لكونه عاشقًا له فقط؛ وإنما ليجعله يتحمل تبعات الهزيمة بنفسه من جيش العدوان الإسرائيلي. فلم تكن الهزيمة في نظره عسكرية بل كانت هزيمة في المبادئ والقيم العليا التي يمكن

من خلالها بناء المجتمعات الراقية والمتقدمة، ويوم مات عبد الناصر بكاه بشده كما لم يبكِ على أبويه، وكان عزاؤه الوحيد أنَّ الحياة ماضية لم تنته بعد، بل إنها لم تقف لأحد من قبل حتى تقف لهذا أو لذاك، ثم كان مدعاة للنقد والتجريح وقد راح ومن فوره يساند الرئيس السادات بكل ما أُوتِيَ من قوة، وتحمّل في سبيل ذلك العديد من التهم التي وُجِّهَت إليه، وأنه المنافق والمتملق والوصولي، ولكنه لم يأبه لأولئك المرضى الثرثارين؛ فلقد كان واثقًا دومًا أنَّ عشقه الحقيقي لمصر التي لا تتغير ولكن يتبدل عليها الأشخاص. كما كان زواجه من قبل من امرأة أرستقراطية مدعاة أيضًا لكثير من التهم والشتائم التي نالته أينما كان، ولكنه كظم غيظه، وراح يفصح عن فلسفته الراقية، وأنَّ زواجه بغض النظر عن كونه قد قام على الحب أم التمحك بأسياد الماضي ونيل رضاهم هو زواج بين ثورة بيضاء ذات أهداف شريفة وبين الآخر، فالثورة لم تأتِ من فراغ بل استدعتها الضرورة التاريخية في لحظة ما من لحظات التاريخ الحرجة، كما أنها لم تأتِ للقضاء على نبلاء الزمن الغابر وإنما لتلحقهم بركب المصلحة العامة للبلد لا المصلحة الشخصية، فالحياة سفينة ماضية في خضم البحار الهادرة وقد حملت الجميع بلا استثناء على متنها، ولا ينبغي لها أن تتخلى عن أحد أيًّا كان شأنه، وهكذا حاول حسين القاياتي أن يرسي بنفسه تلك المبادئ الراقية كقاعدة مجتمعية. ولكن كانت

الريح دائمًا تأتي بما لا تشتهي السفن، وكان كلما لاحظ مظهرًا من مظاهر الانحراف سارع بوسيلة أو بأخرى ينبئ من حوله بل عامة الناس أيضًا أنَّ كارثة ما سوف تَحُلُّ بالمجتمع إن آجلاً أو عاجلاً إذا لم يتم التصدي لهذا الانحراف أو ذاك، وربما جعلته ثقافته الواسعة سباقًا في فهم تداعيات الأمور، ولهذا ثار ثورة عارمة يوم هدد الرئيس عبد الناصر بإلقاء إسرائيل في البحر، واعتبرها من مظاهر البروباجندا الذاتية لا مِنْ مظاهر القوة العسكرية، وأنَّ العدو الصهيوني سرعان ما سيشعل في الغرب فكرة العداء للسامية والترويج لها في كل بقاع الأرض، وأنه سوف يستغلها أحسن استغلال لكسب كل أشكال الدعم المادي والمعنوي في حروبه المحتملة دائمًا ضد مصر والعرب، وأنَّ مصر قد تدفع الثمن غالياً في يوم ما. ولكن خاصة أصحابه نصحوه أن يكتم رأيه في نفسه لئلا يَلْقَى جحيمًا لا يُطاق، ولكنه لم يمتثل لما قالوه له، ومضى غير وَجِلٍ من مبادئه التي يعتنقها؛ فاعتقله زوار الفجر سرًّا، وكان من بين ما قاله لرفاقه في المعتقل أنه يعلم علم اليقين أنَّ الكثير من الأشياء السيئة تجري من غير علم الريس ناصر، ولكم ثار الثورة نفسها معترضًا على عصر الانفتاح الساداتي، ولم يكن وجه اعتراضه على فكرة الانفتاح على الآخر وإنما كان يرى ضرورة تربية وتثقيف الشعب ووضعه على سُلَّم الرفاهية الحق؛ بأن يكون شعبًا منتجًا أولاً قبل أن يكون مُسْتَهْلِكًا، وأنَّ الرفاهية

الحقة ينتجها الشعب لنفسه ولغيره. فالاستهلاك الأعمى من غير مصادر إنتاج ورزق كافية سوف تهدد على الدوام أمن الوطن وسلامته المجتمعية، ولسوف تنتج طبقات هامشية وأخرى عشوائية تجعل فكرة ثورة الجياع خطرًا يقضُّ مضجع البلد ليل نهار، وثورة خامدة على وشك الانفجار في أية لحظة وفي أي مكان، وهنالك ابتسم حسين بإعياء وهو يتذكر أنَّ كلامه هذا قد صَرَّح به لبعض المقربين إليه ليلة أحداث يناير الشهيرة في عام ٧٨، وهو لا يعلم بأنَّ اليساريين قد أمضوا ليلتهم يدبرون لهذه الأحداث العنيفة بينما كان الرئيس في زيارة لأسوان، وبعد يومين اقتيد للسجن بدعوى التحريض على العنف والثورة. ولم يقتنع وقتها المحقق بأنَّ الرجل كان مُحَذِّرًا من قيام غضبة شعبية لا محرضًا عليها، بل لم يتوان حسين عن توجيه النقد اللاذع للرئيس السادات يوم دفع بالتيار الديني ليقضي على الشيوعيين، وراح يقول لكل من حوله أنَّ هذا سوف يخلق لنا الغول أو العفريت الذي لن يستطيع أحد أن يصرفه بسهولة، وأنَّ التطرف سوف يُضَحِي عقيدة في حد ذاته ولسوف يجد معتنقين كثر له من الطبقات الجديدة التي صنعها لنا غول الفقر والجوع والعشوائية الذميمة. وكان أول ما كتبه على صفحات الجرائد يوم تولَّى الرئيس مبارك الحكم «يا سيادة الرئيس: عدوان لهذا الوطن التطرف والتظرف، التطرف في الدين والاستخفاف به» وراح يسرد أفكاره تباعًا أنه لِمَ لا

نعد إلى أفكارنا الثورية البسيطة، وتلك المبادئ السامية التي نادت بها ثورة يوليو أو حتى التي لم تنادِ بها، ولنجعل الحكمة ضالتنا، والحب ديدننا، ولنحب وطننا أكثر من أنفسنا، وإن كرهنا فلنكره الرشوة والمحسوبية والنفوذ ومراكز القوى والطغيان، وثورة التصحيح التي قام بها الرئيس السادات لم تكن إلا من قبيل التصدي لمظاهر الانحراف التي رانت على مبادئ ثورة يوليو، فلم تَدَعْ هذه الثورة المجيدة البتة لصناعة مراكز القوى التي تسيطر على مقاليد الأمور وعلى مقاليد حياة الناس ومعايشهم. ولهذا كان مقاله القنبلة الذي وجهه لمبارك «ثورة تصحيح جديدة يا ريس» فقد عاش حسين حقًّا في القصور طويلاً ولكن قلبه كان يسكن مع الفقراء في أعشاشهم، والصيادين في أكواخهم، والأحياء الذين يشبهون الموتى في دمنهم، ولكن هؤلاء جميعًا لم يكن حظهم في الحياة ليعدل حظ بعوضة في البقاء، ولولا تناسلهم الخرافي لانقرضوا من فورهم، ولانهال عليهم الفقر والمرض والجهل تقتيلاً وتمزيقًا، كما كان الرجل قلقًا في كثير من أيام حياته من الصعود الديماجوجي لبعض رجال الأعمال، أولئك الذين رُحِّلَ من أجلهم الموتى من قبورهم، والذين صاروا أعلام هذا المجتمع الذي نكس أعلام الحق والحرية والعدالة والمساواة من أجلهم، فغاظت هذه الصورة المستفزة حسين القاياتي فقال في الصحف ووسائل الإعلام وتحت قبة البرلمان ما قاله. فلقد كان محرضًا

نعم ولكن ضد الفساد والانحراف، وكان الكثيرون من رجال الأعمال الشرفاء أصدقاء له، وكم من مرة نصحوه أن يأخذ حذره ولكنه لم يرضخ للمخاوف الطبيعية التي قد توسوس للإنسان أن يخشى على نفسه ومنافعه الذاتية وأسرته، وأن يمرر ما يمكن تمريره لا بدعوى السلبية؛ ولكن إيثارًا للسلامة وتفضيلاً لقوة الواقعية الدامغة على قوة المثالية الواهنة، ولكن عشقه للوطن وللبؤساء الذين يحيون فيه دفعته لأن يقول جهرًا على شاشة إحدى الفضائيات «لقد أصبحنا يا ريس في عصر الديمقراطية، وأحذرك من هؤلاء الغيلان الذين تضخموا وأكلوا مال الشعب واليتامى والأيامى، وأفرزوا جيلاً من الوحوش الكاسرة التي لن ترحم أبدًا إذا افتكت نفسها من القيود التي تكبلها، أدعمك نعم ولكن ليس إلى الأبد، أحذرك لأنك أنت من سيدفع الثمن غدًا»

كان هذا التصريح بمثابة القنبلة التي انفجرت في وجه حسين نفسه، وجاءه يومها نعيم الضو وهو يقول له صارخًا وقد كاد يلطم على خديه فرقًا: «هل جننت يا رجل، لقد فتحت على نفسك طاقات جهنم وإني لأتصور أنك أنت من سيدفع الثمن» فراح حسين يقول في سره وكمن يهذي هذاءً لم يَخْلُ من منطقية هادئة « كلانا سوف يدفع الثمن « وها قد دفع حسين الثمن أو هكذا تصور يوم وقعت الواقعة لابنته الحبيبة سما. ولم يزل بعد يكتوي

بنيران الغضب من وجوده حيًّا حتى هذه الساعة، بل زادت الطينة بله يوم عادت بولا من إنجلترا لتهدم كل شيء على رأسه ورأس ابنته وزوجها التعس الكفيف، ولقد كان حريًّا به أن يقاومها وألا يستسلم لطغيانها، ولكن مرضه العضال أقعد قدرته عن أي رد فعل قوي أو حتى يمكن وصفه بالإيجابي؛ وصحيح أنه كان يملك القنبلة التي يمكن تفجيرها في وجه زوجته الطاغية ويقلب المائدة على رأسها تمامًا، فإذا به يؤثر السلامة وتأجيل قراره هذا حتى حين، ولعل بولا لو فهمت سر نظرته القوية هذه والتي سددها إليها لحظة طرده من القصر لأبقت عليه مثل ابنتها حبيسًا في القصر إلى الأبد.

- ماذا دهاك يا بني؟ أم تراك تتهيأ للحظة ما، اللحظة التي لا مَفَرَّ منها أبدًا.

- هيه، ربما، أو سَمِّهَا بالأحرى لحظة محاسبة الذات أو مراجعتها، الهام في الأمر أنني فشلت في كل شيء.

وهنالك اعتدل عَمُّه غريب في جلسته والذي ترك ديار أهله منذ زمن بعيد، وتزوج فتاة من السلوم، وعاش في كنف أهلها طويلاً حتى ماتت، ولكن لم تمت رغبته في البقاء في هذا البلد القريب من البحر والذي أحبه حبًّا جمًّا، وكم من مرة زاره فيه حسين القاياتي، وبخاصة كلما حزنه أمر وضاقت عليه الدنيا

بما رحبت، وها هي الأيام تلف وتدور ولا يجد حسين مفرًّا من الذهاب إلى عَمِّه الذي شاخ وكَبُر وأصبح يرى تحت قدميه بالكاد، وإذا تكلم فبعناء شديد:

- كنت أتابعك باستمرار يا بني، لقد كنت قويًّا على الدوام.

- وماذا جنيت من وراء القوة لا شيء.

- هيه.

- ما أصعب على المرء وحياته قاب قوسين أو أدنى من النهاية أن يجدها لا تساوي شيئًا يُذكر.

- ربما في المدة المتبقية فيها قد تساوي شيئًا ذا بال.

- هراء.

ارتعشت ذراع الرجل بشدة وهو يتكئ عليها محاولاً الاستدارة قليلاً على مقعدته؛ كي يكون في مواجهة ابن أخيه قدر الإمكان وقال:

- إن كان مَجيئُك هنا من أجل لقاء الموت فهيًّا امضِ إلى حال سبيلك.

- ماذا دهاك يا عماه ؟

- أجل هيَّا انصرف فبيتي ليس مقبرة، هنا يوجد أحياء فقط لا موتى ضعفاء يائسين من الحياة.

- يا إلهي، كم من مرة أتيت إلى هنا وعلى كاهلي من الهم والغم ما تنوء بحمله الجبال ولم تقل لي مثل هذا الكلام المؤلم؟

- لأنك يومها كنت قويًّا وعلى ما فيك من ألم ونصب.

- في هذه المرة الأمر يفوق الألم والنصب نفسه، إنني أموت حقًّا يا عم غريب.

- لتمت بعيدًا عن هنا.

أطرق حسين طويلاً وقد أحس بجرح شديد في كبريائه، فها هو عمه الحنون يذيقه مرارة القسوة كما فعلت به الحياة، ويطرده صراحة وبلا مُوَارَبَة من بيته الطيني المتواضع، فقام متهالكًا وعَبْرَة ساخنة تفرُّ من عينيه، ودس قدميه في حذائه اللامع ثم يمم شطر باب الدار بغية الانصراف، ولكن اخترق صوته الواهن أذنيه آنذاك مثل دانة انطلقت من مدفع عملاق وهو يقول له:

- اذهب ومت في قلب ميدان المعركة التي فررت منها، نحن ربينا رجالاً ولم نُرَبِّ فئرانًا مذعورة، كن أسدًا تكن الدنيا لك فريسة سانحة.

هنالك رانت على شفتي حسين القاياتي ابتسامة، واستدار قليلاً إلى الوراء ليلمح عمه بطرفي عينيه الجانبيين، كان الرجل ينتحب بحرقة ولوعة شديدة وقد استطرد قائلاً بصوت يُسمع بالكاد:

- اذهب يا بُني، ولتعد وأنت فوق صهوة جوادك العملاق لتَدْفِنَ عَمَّك عما قريب.

ومن فوره أكمل حسين استدارته نحو الداخل، وحث الخطى في اتجاه عمه ثم برك على ركبتيه أمامه مباشرة، وقَبَّل يده بأدب جم ثم انصرف مغادرًا المكان.

في تلك الأثناء أفاقت سما ذاهلة من إغمائها، كان الضعف قد دَبَّ في كل أوصالها تمامًا، وراحت عيناها تجولان في المكان الكئيب والذي جُهِّزَ منذ زمن بعيد لكي يكون معتقلاً يُعَذَّب فيه العبيد الآبقين، وفي زاوية قاصية من المكان لمحت خوانًا خشبيًّا صغيرًا رُصَّت بداخله بعض المأكولات والمشروبات التي تعينها على البقاء؛ فانهارت في نوبة من البكاء العصبي مرة أخرى وقد تذكرت أنها لم تزل بعد في الحياة، وأنَّ بقاءها رهين بهذه الأشياء التافهة التي ندسها في أحشائنا، ثم نخرجها في الخلاء طورًا آخر جَدّ عجيب، أهذه هي الحياة؟ وهل هذا هو سر البقاء فيها، كلا، بل من المؤكد لا وألف لا؛ فإنَّ الجسد إن قَبِلَ بمثل هذه الأشياء الحقيرة

سببًا للبقاء، فإنَّ الروح لا تقبل بأقل من الخلود في العالم الذي تبغاه سببًا وجيهًا تحيى به وفيه تهيم، فسرعان ما يموت في المرء الجسد، وتطير روحه اللطيفة محلقة به في أجواز الفضاء اللبني كفراشة من نور لا يمنعها مانع ولا يعوقها حاجز أو جدار.

●●●

obeikan.com

(٢٥)

كان من يرى حسين القاياتي وهو يجتاز مدخل قصر الخالدي عنوة يتصور أنَّ شابًّا متمردًا في العشرينيات من عمره هو الذي يفعل ذلك؛ فقد كانت التعليمات التي صدرت لكل حراس بوابات القصر صارمة وواضحة للغاية، وهو منع حسين القاياتي إن عاد من دخول القصر منعًا باتًّا، وربما لعب رجل الأمن بيومي النمس العين السرية في قلب القصر لنعيم الضو دورًا ما في دخول حسين القاياتي، ولكن من كان في وسعه آنذاك أن يتصدى لهذا المقتحم الجسور، والذي اندفع داخلاً إلى البهو الكبير في اللحظة كانت تهبط فيها بولا هانم الدرج وهي تهتف بعصبية مفرطة:

- يا أمن، يا حراس، يا خدم القصر، من سمح لهذا الكائن بالدخول.

- هه، وبأي صفة يا ترى تمنعينني من دخول القصر!

- بصفتي سيدة هذا القصر.

آنذاك خرج سمير زعفران مسرعًا من حجرة مكتب القصر الرئيسية الكائنة في أحد أركان البهو الكبير، وهي الحجرة التي ظلت مخصصة لحسين القاياتي لسنوات طويلة، وقال:

obeikan.com

- أجل يا حسين بك، وأظن أنَّ أوراق البيع والشراء التي لدينا تؤكد صحة هذا الكلام، ثم أنَّ الهانم من حقها أن تمنع من تشاء وتسمح لمن تشاء بدخول معقلها، وبخاصة لو كان هذا الشخص بينها وبينه قضية بالغة الحساسية كالتي بينكما، وأظنك كرجل قانون تعي هذه الحقيقة جيدًا.

هنالك تدخل ماجد في الحديث والذي جاء مهرولاً إلى البهو في رفقة بعض أفراد العائلة وقال متسائلاً باستغراب:

- أية قضية تعني يا أستاذ سمير؟

- الهانم فوضتني رسميًّا بشأن خلع الأستاذ حسين القاياتي من ذمتها.

لم يلح على وجه حسين أمارة واحدة من أمارات الدهشة التي ارتسمت على وجوه الواقفين، وقال ببرودٍ جَمٍّ وهو يخص بولا الخالدي بحديثه دونًا عن الجميع والتي كانت تقف لحظتها بالقرب من مدخل البهو الكبير هاتفةً برجال الأمن لكي يلقوا فورًا بحسين إلى خارج القصر:

- أحسبك تتعجلين الأمور دائمًا يا ابنة الأصول، ولكن لا بأس أن أخرج من هذا القصر الموحش البغيض، هيه، بل لا بأس أن نخرج جميعًا منه.

ثم استدار على عقبيه لاقتبال سمير المحامي بوجهه مباشرة ثم بولا نفسها وبدا كمن سيلقي قنبلة مدوية وهو يقول:

- أما بخصوص الأوراق التي تقول أنها لديكم - معالي المحامي النابغة – فلا قيمة لها على الإطلاق، أوه يا زوجتي العزيزة لقد أخفيتُ جملةً من الحقائق الصادمة عنكِ لعلمي أنكِ مريضة بالقلب، ولا تحتملين حقيقة أنَّ هذا القصر لم يعد مِلْكًا لأحد اللهم إلا الدولة المصرية.

انتبهت بولا وكل من حولها بجميع حواسهم، ولكن حسين القاياتي لم يمنح فرصة لأحد كي يتكلم غيره في هذه اللحظة، واستطرد قائلاً وقد علت وتيرة حديثه إلى حد الزعيق:

- الأبله هو من يتصور في نفسه الذكاء والعبقرية، وأنَّ غيره لا يساوون قطرة في بحر الغباء العميق، كانت القوانين التي تتغير من عصر لعصر قد سمحت لنا بالبقاء في هذا القصر كضيوف ليس أكثر، ثم قيل لنا أنه من الجائز ملكية هذا القصر في مقابل دفع مبلغ كبير، وهو المبلغ الذي تجشمت أنا وعائلتي الريفية البسيطة بدفعه، ويعلم الله إلى أي حد عانينا جميعًا، وكم قَدَّمَتْ أسرتي من تضحيات من أجل سداد هذا المبلغ الهائل. ولكيلا يضيع مجد العائلة العريقة التي أضحت من أسف كعائلتي، بل لا يتصور أحد ماذا فعل

المستشار حسين القاياتي لكي يرد الدين الذي طوق عنقه إلى الدولة من ناحية وإلى أسرته من ناحية أخرى، أجل لقد باعت عائلتي أفضل ما لديها من أراضٍ وبهائم في حوش عيسى من أجلكم، من أجل ثلة من التافهين الحقراء الثمالى أمثالكم.

- حسين، الزم حدودك.

قالتها بولا بلهجة ناهرة، ولكن حسين كانت نبرته أشد حدة وهو يقول مسترسلاً في الحديث:

- أنا الآن من يتكلم أيتها الشيطانة التافهة.

- أبي هذا لا يصح.

- ياه ه ه شوكت ولدي الطيب هو من يتحدث الآن وينطق على غير العادة كلمة أبي، آه منكم يا ساكني القصور العالية، ولسوء حظكم وربما من حسن طالعي أنَّ الحكومة وقتها تراجعت عن قرار تمليك القصر، وعَدَّت المبلغ الذي دفعته وقتها كقيمة إيجارية تظل سارية بقيمة إيجارية محددة ما دام العبد لله حيًّا، وبعدها يئول القصر بكل محتوياته للجنة تخصيص، وهي المنوط بها وحدها تحديد إلى جهة سيذهب هذا القصر، إلى هيئة قصور الضيافة الرئاسية، أو إلى وزارة

السياحة وربما إلى مجلس الوزراء نفسه، أما أنتم فكان من المحتم عليكم مغادرة القصر بمجرد خضوع القصر للدولة.

- مستحيل مستحيل مستحيل، هذه جريمة لا يمكن السكوت عليها أبدًا.

قالت بولا ذلك وقد بدت كمن يهذي، واتسعت حدقتا عينيها بصورة مخيفة، فيما دنا منها حسين للغاية وهو يقول لها بصوت خفيض ورقيق هذه المرة:

- كنت قد منحتك هذا القصر هدية من تلقاء نفسي، بيع وشراء؛ فقط لأنني أحببت أن أثبت لزوجتي وأم أبنائي أنَّ ابن الثورة البارّ لم يأتِ للسطو على قصوركم ومجدكم العريق، بل جاءكم مادًّا يديه بالحب والوُدّ.

- هه وها هي ثورتك اللعينة تثبت لنا الآن أنَّ الأمر كله محض عملية سطو حقيرة، وحقد طبقي وضيع على أولاد الذوات والطبقة الراقية.

- للتذكرة فقط أقول لمن نسى أوتناسى، هذا القصر العظيم الذي مُنحت أرضه هبة لجدكم الخالدي الكبير ليس من الباب العالي؛ ولكن من دماء المصريين وحقوقهم الطبيعية، وهو إنما عاد لدولة المصريين ولم يعد لأشخاص بعينهم،

obeikan.com

وبموجب قانون استثنائي وإكرامًا لواحد من أبناء هذا الشعب - الطيب ولتاريخه النضالي المشرف الطويل ضد الفساد والظلم والطغيان - تُركتم من قبل الحكومات المتتابعة تحيون في القصر خلال فترة حياتي فقط ليس أكثر ولا أقل.

كانت هذه الحقيقة قد نزلت كالصاعقة على رأس الجميع، وبخاصة بولا الخالدي التي بدت وكأنما هي على أعتاب الجنون، فيما أردف حسين قائلاً:

- والحق أنني وعلى ما كان بيني وبين نظام مبارك من خلاف وصل إلى حد سجني كما حدث في عهد سلفيه ناصر والسادات، إلا أنني ظللت بالنسبة لهم جميعًا الصديق اللدود، وهو ما شجعني على التقدم إلى الحكومة بالتماس؛ كي يُسمح لنا جميعًا بالبقاء في القصر من غير توريث حتى انتهاء حياة آخر فرد حي مقيم في القصر من عائلة الخالدي، وألا يكون الأمر قاصرًا على حياتي أنا فقط .

سادت موجة من الصمت الحذر بعد أن ألجمت الجميع تلك المفاجأة المؤلمة، ما دعا حسين إلى التريث قبل أن يفجر آخر ما في جعبته من مفاجآت، فقال وهو يُخْرِجُ ورقة مطوية من ثنايا جيب سترته الداخلي، ثم شرع يلوح بها في وجه زوجته بصفة خاصة:

- لقد قدمت عشرات الالتماسات وقوبلت كلها بالرفض اللهم إلا هذا الالتماس الذي وُوفِقَ عليه، أجل الحكومة مشكورة وافقت من حسن حظكم على بقائكم فترة حياتكم في القصر، ولكن من سوء حظكم أيضًا أنني تغيرت، أجل بسببكم تغيرت، ولن أظل ألعب في رواية حياتكم النكد دور البطل الشهم الذي يتحمل جلداتكم وطعناتكم إلى الأبد وهو ساكن بلا حراك.

سكت حسين القاياتي لفترة وقد قفزت الأعين من محاجرها ترقبًا لما سيبدر منه، والذي قال بعد فترة:

- هاكم الالتماس.

قالها وقد رفع الورقة المطوية لفوق، فردها أولاً، ثم شرع يمزقها شيئًا فشيئًا أمام ذهول وصدمة الجميع، وبعدها قال بأسًى جَمٍّ:

- من الأسف أنَّ بقاءكم في القصر الآن أصبح رهنًا لحياتي، بحسب القرار الحكومي القديم، أنصحكم ألاَّ تتعجلوا وتدعوا الله لي في سركم أن يطيل في عمري، لأنني زاهد في البقاء هنا، وأود أن أرحل إلى الأبد من هنا، ولكن واجبي الأخلاقي يُحَتِّمُ عَلَيَّ قبل تسليم القصر للدولة أن أمنحكم فترة ما أتمنى أن تكون كفيلة بتدبير شئونكم.

كانت بولا مطرقة ومنهارة لا تصدق نفسها، وهنالك دنا منها حسين وكأنما أراد أن يسر إليها بسر ما:

- تصورت في يوم ما أنكِ أميرة راقية من أميرات القصور العالية، القصور التي تتلألأ بالأنوار المبهرة، وتصدح من وراء أسوارها العالية الأهازيج والرقص والغناء، وتنبعث منها روائح الشواء والأطايب، والأزاهير الزكية؛ ولكن الأيام أثبتت لِيّ أنَّ الأحقاد الطبقية والكراهية العمياء ليس بالضرورة أن تكون ضد القصور ولكنها قد تخرج منها أيضًا، الحق أنني حاولت جاهدًا أن أظل محافظًا على حبكِ على الدوام، على الأقل من أجل أبنائنا، ولكنني انتهيت إلى حقيقة أنني لم أَقْوَ يومًا على الحفاظ على حبكِ، ولا على كراهيتكِ، بولا زوجتي العزيزة وأم أبنائي أنتِ طالق.

قالها ثم استدار يتلفت حواليه كعاشق ولهان يبحث عن حبيبة قلبه وتوأم روحه ونفسه، والتي كانت هائمة في تلك الأثناء في عالم غير العالم ليس بعيدًا عن القصر وحده فحسب وإنما بعيدًا عن الحياة بأسرها.

كان عرفان غانم جالسًا لحظتها وراء مكتبه في النيابة شاردًا، ولم يكن الشرود آنذاك حالة طارئة عليه بل بات الشرود صفة ملازمة له، يصحو وينام بها، فقد كانت صورة سما القاياتي لا

تفارقه البتة، وبالرغم من اقترانها برجل آخر غيره إلا أنه رَغْمًا عنه وبسبب صلة النسب التي ربطت قريبه بابنة أخيها ماجد القاياتي؛ كانت تَردُ إليه بعض أخبار القصر، فكان حزينًا ليس فقط من أجل نفسه وقلبه المكلوم، وعجزه عن الارتباط بالمرأة التي أحبها من كل قلبه بل كان حزنه عليها، وعلى المعاناة التي عاشتها لأشهر طويلة بداية من قضية الإتجار بالمخدرات التي خرجت منها بريئة، وانتهاءً بزواجها من الشاهد الوحيد في القضية حربي الطحان، والذي قدَّم دليل براءتها للعدالة. وربما راح يلتمس لها بعض العذر في نفسه وأنها إنما قبلت الزواج منه لا لشيء إلا لإحساسها بكونها قد أضحت أسيرة لمن أنقذ حياتها وسمعتها، ولكن ما بالها تسقط هكذا بسهولة في هوة التناقض وتغفل عن كل الفوارق التي تفصل بينها وبينه؛ فحربي - بحسب ما لديه من معلومات وتحريات المباحث عنه - إنسان بسيط بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وربما كان خليقًا بها أن تَرَدَّ إليه الجميل بشكل أو بآخر ولكن ليس إلى هذا الحد، فما أشبهها في ناظره بفتاة في ريعان شبابها ونضارتها قد حَلَقَت شعر رأسها تمامًا، وأسلمت نفسها لكاهن المعبد راهبة في المحراب إلى الأبد، وأنها سرعان ما ستستيقظ على وخزات الفوارق الهائلة بينها وبين حربي؛ ولسوف تندم ندمًا عظيمًا، هكذا راح يُحدِّثُ عرفان نفسه. ولكن سرعان ما لوى عنان الاسترسال في خواطره في هذا الاتجاه وقد راح يلوم

نفسه، وأنَّ حبه إياها لا يجب أن يجعله يمضي هكذا في سكة الحبيب الحاقد المُلوَّع، والذي سرعان ما تستشري في نفسه نيران الغضب والرغبة في الانتقام من ذلك الرجل الذي خطف منه حبيبته وأغلى شيء في حياته، تلك التي لا تبارح صورتها الرقيقة مخيلته البتة، ولكنه فجأة أفاق على صورتها الحية لا تلك التي يعمر بها ذهنه، كانت واقفة قبالته لاهثة وقد تهدلت ملابسها وهاش شعر رأسها للغاية، وبدت مرهقة بصورة جعلتها أقرب إلى الأشباح منها إلى الفتاة الجميلة الرقيقة التي يعرفها، فهبَّ قافزًا من وراء مكتبها وهو ينطق باسمها وهو غير مصدق نفسه:

- سما.

- خذني إليه، خذني إلى حبيبي ونور قلبي.

حاول عرفان أن يأخذ بيدها، وأن يجلسها، وأن يجعلها تتجرع شربة ماء من كوب أمامه حتى تهدأ ويفهم منها ماذا هناك بالضبط؟ ولكنها أبت، وعاودت الهتاف باسم حربي مرارًا وتكرارًا كالمغيبة:

- حربي، حربي، حربي.

- ...!

- خذني إليه، أنت الوحيد الذي يمكنه أن يأخذني إليه.

كانت الدهشة قد عقدت لسان عرفان تمامًا عن النطق بكلمة واحدة، وكانت عيناه ترسلان برسالة فورية أنه ما بال قَدَرِي يورطني بقسوة مع حبيبة أحببتها من كل قلبي تبغي حبيبًا آخر غيري، أي ألم هذا وأية طعنة نجلاء يَتَلَقَّاها قلبي التعس الآن، وعاوده إحساس الأثرة الفطري الذي يولد به الإنسان وينمو ويكبر، وراح يصم أذنيه عن كل كلمة حق يمكن أن تقال في مثل هذا الموقف، وأنَّ سما لا تطلب العون منه لإيصالها لا لمجرد حبيب وحسب؛ وإنما لزوج فَرَّقَت بينهما الظروف العصيبة وقسوة البشر، ولكم راح يحسد حربي في نفسه، وقد وَدَّ من كل قلبه أن لو كانت تلك اللوعة وهذه اللهفة من أجله هو لا من أجل هذا الشيء المتواضع الذي يدعى حربي الطحان. وأَمِنْ أجل هذه البَقَّة البغيضة يُرْفَضُ الشابُّ الوسيمُ - البهي الطلعة الثري ابن الأكابر - والذي تتمناه كثير من الفتيات الحسناوات، وينمن ويحلمن به على وسائدهن، وكاد عرفان الذي تغير وجهه وتكدر أن يعتذر لسما بأدب جم بحجة أنه لا يعرف شيئًا عن العنوان الأصلي لحربي، ولكنه رَقَّ لها قلبه فجأة بداعٍ من السماء، كانت تموت أمام عينيه، وتنظر إليه نظرة ما كأنما هي وصية يجب تنفيذها على الفور، وأنها لم تُخْلَقْ لأحدٍ غير حبيبها حربي، فقد صار دواؤها وصمام الهواء الذي إن نزع منها انقطعت أنفاسها وقضت نحبها في الحال. وهنالك ماذا ينتظر الحبيب من حبيبة تحب

غيره، فهيهات أن تكون له ولو كانت مستلقية في أحضانه ونائمة في فراشه، أم يسعده أن يراها جثة هامدة كي يُرضي غرور نفسه، ويُشفي غليله من غريم قلبه حربي الطحان، ولكن سرعان ما غلب الإيثار أثرته، وفاضت من عينيه الدموع، ودنا من سما أكثر مما ينبغي لا لكي يعانقها بشدة كما حَدَّثه شيطانه، وإنما ليمنحها الأمل بطوفان مشاعره النبيلة، ويَبُثُّ في أغوارها دبيب الحياة التي أوشكت على مفارقتها من جديد، وقال هامسًا لها وهو يمد أصابع يديه محاولاً فتح عينيها اللتين كانتا تنطفئان شيئًا فشيئًا:

- سوف أحاول أن أجده من أجلك.

●●●

obeikan.com

(٢٦)

لـم تكـن سـما في حالتهـا الطبيعيـة حتـى تـدرك إلـى أيـن اصطحبهـا عرفـان غـانم بسيارته الفارهـة علـى وجـه التحديـد، وأنَّ السيارة ظلت تنهب في الأرض مسـرعة لفتـرة طويلـة، ولكـن سـرعتها أخـذت تقـل شيئًا فشيئًا عندمـا لـوى عرفـان عنانهـا وأخـذ يمضـي في دروب وعـرة وطـرق رديئـة للغايـة وغيـر مُعبـدة، واضطـر إلـى إغـلاق نوافـذ السـيارة الأوتوماتيكيـة بعـد أن تسـللت الأتربـة الكثيفـة إلـى الداخـل، كمـا راحـت قطعـان مـن البعـوض والنامـوس والصبيـة الحفـاة العـراة المهوشـي الشـعور يهاجمـون السـيارة مـن كل ناحيـة، ويضربـون علـى الزجـاج بأياديهـم الملوثـة طلبًا للنقـود كـي يقتاتـوا بهـا، ويحاولـون انتـزاع مرايـا السـيارة والحلايـا التـي تزينهـا مـن الخـارج مـا أمكنهـم إلـى ذلـك سـبيلاً. وكانـت في الوقـت ذاتـه رائحـة كريهـة للغايـة قـد تسـللت غفلـة إلـى داخـل السـيارة، فـراح عرفـان يعتـذر لسـما الشـاردة وهـو يسـعل ويسـد طاقتـي أنفـه بظهـر سـبابته ويضغـط متعجـلاً بسـبابته الأخـرى جهـاز رش المعطـر، وسـرعان مـا تعبقـت السـيارة المكيفـة مـن الداخـل برائحـة زكيـة، وهنالـك اسـتوى عرفـان في جلسـته وقـال بحسـرة وهـو يديـر عينيـه يمينًـا ويسـارًا في كل أنحـاء تلـك المنطقـة العشـوائية المثيـرة للغثيـان:

- أكثر قضايا القتل والاغتصاب والمخدرات والسرقات والانحرافات العجيبة تأتي إلى سراي النيابة من مثل هذه الأماكن الموبوءة، وصدق والدك السياسي المحنك المستشار حسين القاياتي حين قال أنَّ الوحوش الكاسرة تخرج من هاهنا، التي لن ترحم أبدًا إذا افتَكَّتْ نفسها من القيود التي تكبلها، هيه، يقولون أنَّ سير الغرباء في مثل هذه المناطق الخطيرة بعد السابعة مساءً يعد شيئًا من قبيل الجنون، بل إنَّ وجودنا هنا الآن هو عين العته والجنون.

لم تسمع سما ما قاله عرفان والذي ظل يتحدث إليها طويلاً، والذي خُيِّلَ إليه أنه إنما يُكَلِّم سرابًا، وساوره الشك في نفسه لفترة وأنَّ سما قد أتت إليه من الأصل في مكتبه بالنيابة، وطلبت منه أن يمضي بها إلى حبيبها الحقيقي؛ فراح يدقق النظر فيها أكثر فأكثر، فبدت له كمَلاك وروح رقيقة شفافة أكثر من كونها مجرد إنسانة عادية من لحم ودم، وبالرغم من شَكِّه في وجوده معه في السيارة، وأنه محض واهم؛ إلا أنه ظل مسترسلاً في الحديث إليها، بل كاد يخرج عن سياق الموضوعية ويبوح لها بما يعتمل في نفسه نحوها، وأنه قد سئم الحياة التي وضعت كل هذه السدود بينه وبينها، بل من سخرية القدر أن يكون هو الوحيد المختار من بين كل رجال العالم لمثل هذه المهمة المستحيلة، والتي يأخذ

فيها الحبيب بيد حبيبته ليس إلى قلبه ولكن إلى قلب شخص آخر غيره، وأنه يبدو في نظر نفسه الآن كمجنون ذهب ليَئِدَ حبه الوحيد بيديه.

أما سما فقد كانت ذاهلة في واد آخر، ولم تعد تنتظر شيئًا في الحياة غير مجيء تلك اللحظة التي تقابل فيها حبيبها حربي الطحان، وترتمي في حضنه الدافئ إلى الأبد، كما لم تنتبه إلى تلك الأعين الحمراء الملتهبة التي تُحَدِّقُ فيها بصفة خاصة وتحاول افتراسها، لِمَ لا وفتاة جميلة وإن أضناها السهر والمرض لم تزل بعد على شيء من سحرها الأخاذ القديم، فالزهور تظل على اسمها وإن لم تظل على حالها، قد تأفل وتذبل في حين من الدهر ولكن تظل زهورًا زكية الرائحة على أية حال. وكان عرفان – الذي يسير بسيارته الفارهة في وسط هذه الغابة من أشباه البشر – يبطئ من سرعة السيارة بين الفينة والأخرى لئلا يصدم طفلاً عاريًا متسولاً قطع عليه الطريق فجأة، أو فتاة بائسة والهة راحت ترسل إليه القبلات من وراء زجاج السيارة، وكم من مرة عاند عرفان يديه وقد شرعت تتمرد عليه وتلوي عنان المقود بغية العودة بهذه البائسة، ولكيلا يسلمها لمصيرها المجهول في هذا المكان المعزول عن الكون بأسره، وهو يكاد يصرخ: «ويح قلبي ما باله يسطو على مهام العقل ويرسل بالتعليمات تباعًا رغبة منه في

انتـزاع الفتـاة لنفسـه» وكان عرفـان الـذي دار هـذا الخاطـر السـريع في خلده قلما انقسـم على نفسـه بمثل هـذه الصـورة الداعيـة للرثـاء، وهنالـك أوقف السـيارة على جانب الطريق الوعـر مع فرملة شـديدة وقد كـره أن يكون إنسـانًا متناقضًـا مـع نفسـه، مضطربًـا في سـلوكه، والتفـت ناحيـة سـما وكأنمـا يسـتميحها عـذرًا ألا تكلفـه فـوق طاقـة احتمالـه أكثـر مـن ذلـك، واكتفـى بالإشـارة مـن سـبابة يـده إلـى مكان بعيـد وهـو ينطـق بالـكاد:

- معـذرة لا يمكننـي الدخـول بالسـيارة أكثـر مـن ذلـك، هـذا هـو عنـوان حربـي بحسـب بطاقتـه الشـخصية، سـلي المـارة عـن بيـت حربـي الطحـان، لسـتُ متأكـدًا أنـكِ سـتجدينه، ولكنـي لـن أنصـرف قبـل أن أطمئـن عليـكِ.

قالهـا والدمـوع تختنـق في عينيـه، فيمـا لـم تنتظـر سـما أكثـر مـن ذلـك واندفعـت مترجلـة مـن السـيارة، وانطلقـت تعـدو بسـاقي اللهفـة إلـى بيـت حبيبهـا الـذي شـاء القـدر أن يكـون معـزولاً هـو الآخـر عـن ذات المـكان المعـزول عـن الدنيـا بأكملهـا، وحبسـت أنفاسـها لحظـة طـرق البـاب وهـي لا تصـدق أنهـا سـوف تـرى حبيـب قلبهـا بعـد ثـوانٍ معـدودات وربمـا لـن تجـده، ولكـن سـرعان مـا نحـت هـذا الخاطـر المزعـج مـن بالهـا؛ فقـد كان قلبهـا يـدق بشـدة علامـة الاقتـراب ممـن يحـب، وهـا هـو قلبـه يصدقهـا وتنحسـر فرجـة البـاب القـديم ذي

الصرير العال عن جسده الناحل العملاق، فارتمت في أعناقه صارخة:

- حربي، لكم طال اشتياقي إليك يا حبيبي.

- سما!

- أجل سما حبيبة قلبك وروحك وعقلك.

- هيه، تصورت أننا قد افترقنا إلى الأبد.

- ومن قال أنني كنت سأسمح بذلك، لقد حاربت العالم كله من أجلك، وربما حقيقة الموت نفسها؛ لأنه ينبغي أن أظل إلى جانبك ما حييت.

ثم اندفعت داخلة وهي تتلفت حواليها نشوانة ليس بالبيت الذي حمل في كل طياته مع البؤس القِدَمَ ونتانة الرائحة، وإنما لكونها قد أصبحت في بيت حبيبها، كان بيتًا صغيرًا مقفولاً كعلبة كالحة لا يدخلها من أي طاق نور الحياة المشع في الخارج، كما بدا مثل بيوت الرعب التي يسكنها الأشباح القبيحة الهيئة، فقال حربي وهو ما زال واقفًا في مكانه بالقرب من الباب الخارجي:

- أعيش هنا وحدي في هذا البيت المقزز، ألن نذهب إلى مكان ما؟

- ومن قال أننا في حاجة إلى الذهاب إلى مكان آخر، ليته كان في وسعك الآن رؤية قلبي وهو يقفز من الفرحة بين أضلعي، وكم صاحبته مغتبطة بهذا المنزل اللطيف.

- هـه ،أي لطف تعنين! إنه بيت بغيض بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

- أظن أنه ربما كان هكذا قبل مجيئي، أليس كذلك؟

لم يحر حربي جوابًا مباشرًا، مرت فترة غلب عليه فيها الشرود والتفكير العميق، ثم تكلم بسرعة مفرطة بشيء من العصبية التي ارتفعت وتيرتها شيئًا فشيئًا:

- سما، بنات الذوات مثلكِ لن يطيقوا هذا الماخور العفن، ومن المحال البقاء هنا لليلة واحدة، سليني أنا، بشرتك الرقيقة هذه لن تحتمل بعوضة الليل المتوحشة ولا براغيث الفراش، ومشاحنات الجيرة، وأعين الفضول الوقحة التي سوف تتلصص علينا من خصاص الباب، وغير بعيد أن يقتحم علينا البيت بعض المدمنين المخدرين وممن يريدون مشاركتنا في الفراش ولو بالقوة المسلحة، ومن الصعوبة بمكان أن يقوى ضرير مثلي على الدفاع عن عرضه وشرفه بسهولة...

- مهلاً مهلاً، كفى استرسالاً في هذه الخزعبلات.

- بل هي الحقيقة، أفلا ترين بعينيكِ الشقوق المتخللة جدران البيت المتصدعة من كل ناحية، وفجوة السقف التي تمرر جملاً لا مجرد شخص عادي، انظري بنفسكِ.

قال عبارته الأخيرة وهو يشير إلى فجوة في السقف، بينما لم تأبه سما لذلك بالمرة وقالت:

- أعدكِ أنني سوف أسد هذه الشقوق، وفرجة السقف ما أهون معالجتها ولسوف أصعد لأعلى وأرى بنفسي ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل.

ثم تلفتت حواليها وجرت هنا وهناك وهي تتعثر في زجاجات النبيذ الفارغة الملقاة في أرضية البيت الطينية، فحملت إحداها بدهشة وقالت:

- منذ متى وأنت تشرب هذه الأشياء اللعينة يا حربي.

- هه لا بُدَّ من هذه الأشياء اللعينة التي تنسي المرء مرارة الحياة وقسوتها المقيتة.

تنهدت سما آسفةً من أجله، وألقت بالزجاجة الفارغة جانبًا، ثم راحت تكمل بحثها عن وسيلة ما تعينها على الصعود إلى سطح البيت، ولمحت آنذاك حجرة جانبية صغيرة يبدو وكأنها قد أعدت كي تكون زريبة للحيوانات لا ليسكنها بشر أسوياء،

obeikan.com

فهرولت إليها عساها تجد بغيتها فيها وهو ما كان بالفعل، فقد كانت الحجرة وعلى عكس ما تصورت تمامًا تحتوي على سرير معدني صدئ متهالك للغاية، وكرسي خشبي غير متساوي الأرجل وخلفه مباشرة طويت سجادة كليم وأسندت إلى الحائط بطولها، وفي الناحية المقابلة بدا سُلَّمٌ خشبي قديم يصل ارتفاعه إلى حد قريب من فرجة في السقف، والتي يمكن من خلالها التسلل إلى سطح البيت، وحين استدارت إلى الوراء فجأة وجدت حربي يقف وراءها مباشرة بجسد عملاق رسمه الظل المُلْقَى على هيئته كشبح، فأصابها الهلع وصرخت صرخة قصيرة من المفاجأة:

- هل أنا مخيف إلى هذه الدرجة؟
- كلا يا حبيبي، ولكنها المفاجأة.
- هه يا لعنادك إن كانت هذه المفاجأة الهينة قد أربكتكِ هكذا، فماذا عساه سيكون حالك أمام هول المفاجآت ذات العيار الثقيل التي قد تقابلك هنا من حين لآخر.
- حربي لماذا تصر على إخافتي؟
- لأنني أحبك، وأعرف عن هذا المكان أكثر مما تتصورين، والحقيقة أنَّ بقاءنا هنا من رابع المستحيلات.

obeikan.com

بدت الحيرة ملازمة لوجه سما لفترة طويلة وبعدها قالت وقد غلبت على أمرها:

- ولكن إلى أين يمكننا أن نرحل وأمي تقف لنا بالمرصاد أينما كنا.

- أنا لا أتحدث عن العودة إلى قصر الخالدي بالضرورة، وعلى الأقل في هذا التوقيت، كنتِ تحدثينني عن مدخرات شخصية، وعملكِ الذي يُدِرُّ عليكِ دخلاً كبيرًا.

تنهدت سما تنهيدة طويلة وقد شرعت تلف وتدور حول نفسها كالفراشة ثم ألقت بنفسها في الفراش المعدني - الذي كاد يهوي بها من هول ارتجاجه إلى سابع أرض - وقد صدر عنه صريرًا مزعجًا، فانفجرت ضاحكة:

- يا لمفاجآتك المذهلة يا حربي، سرير رائع بحق.

- أنا أتحدث في وادٍ، والخارج ثمن في وادٍ آخر، أهذا وقته؟

- مادمتُ معك فكل هذه الأشياء التافهة لا تعنيني من قريب أو بعيد، فلما لا أمزح وأطير فرحًا وأنا أرى حبنا ينتصر رَغْمًا عن كل شيء.

- هراء، على أي شيء انتصر؟ على الذباب أم على قطعان

الذئاب البشرية التي تنتظر مجيء الليل في الخارج ثم تنقض على الفريسة الغافلة عن أشياء كثيرة.

وهنالك نهضت سما وهي ترنو إلى حبيبها العملاق رنوة عطف حانية، وجعلت تدنو منه وتقول برقة تشبه الهمس اللطيف:

- أُقَدِّرُ يا حبيبي قسوة الأيام عليك وبخاصة بعد أن افترقنا، لقد كنت أفكر فيك دومًا، وأحس في وحدتي وأنا حبيسة غرفتي بما أحسسته من آلاَم وعذابات جسام وأنت في وحدتك بعيدًا عَنِّي، ولكنني عاهدت الله أن أكون على الدوام تحت رجليك خادمة مطيعة لك، هيه ولن أوفيك حقك.

- أنا لا أريد خادمة لِيّ بل حبيبة أهجع إلى حضنها الدافئ كطفل صغير، وتدثرني بخصلات شعرها الناعمة الطويلة المسترسلة إلى ما لا نهاية؛ فتخفيني عن عالمي المقيت، وتصرف عَنِّي ضجيجه الهمجي المزعج؛ فأنام قرير العينين مطمئن البال والنفس.

غير أنها أفاقت من السنة التي أخذتها قليلاً إلى آفاق العالم الخلدي، وحيث سمعت هناك في أعمق أعماقها تلك الكلمات الرقيقة التي تُطَرِبُ النفس وتملؤها بأنغام الشوق والعاطفة اللا شعورية، والتي دفعتها دفعًا لكي تعانقه بحرارة، وتتمسح فيه

كقطة أليفة؛ فإذا به يتطلع إليها بعينيه اللتين لا تريان شيئًا وقال بعصبية مغايرة تمامًا للنبرة التي كانت تسمعها منذ لحظات في سريرة نفسها:

- سما لماذا تخلطين الجد بالهزل، أُحَدِّثُكِ عن كوارث قد تقع لنا وأنتِ تدعينني لممارسة الحب.

فانتفضت سما من غير وعي متراجعة إلى الوراء، وقالت بدهشة عارمة وهي خجلة كل الخجل:

- هل كل من عانقت زوجها وحبيبها عناق الوحشة والحب تكون راغبة في الفراش؟

- آسف، ولكن لِمَ تتهربين من الحقيقة، بقاؤنا هنا لن يكون أبدًا.

- حربي حبيبي، ألم أقل لكَ أنَّ أمي وعائلتي تقف لكلينا بالمرصاد.

- لتذهب أمك والعائلة إلى الجحيم، فماذا عن أبيك المستشار وعن مدخراتك وعملك و...

فقاطعته قائلة:

- الحياة اليوم لم تعد هي الحياة بالأمس القريب، أبي كما

تعلم ذهب بلا رجعة، وأمي ومحاميها الأَفَّاق وضعا أيديهما على كل شيء يخصني، وما جعلني أسارع في المجيء إليك رغبتي الجادة في تفويت الفرصة على بولا الخالدي وسمير زعفران اللذين يتوقان لتفريقنا عن بعضنا البعض إلى الأبد ولو بالاحتيال على القانون والتزوير و...

في هذه المرة قاطعها هو باستدارة مفاجئة من جسده العملاق، ثم مضى منصرفًا نحو الخارج وهو يشير لها بكلتي يديه بانفعال مكتوم أن كفى كفى، وفي ساحة البيت الخارجية الضيقة ارتمى جالسًا في الأريكة، وراح يدخن بعصبية سيجارة رديئة النوع بيد ترتعش، فرقَّ لحاله قلبها الطيب، فسارت نحوه وهي تقول كالمتأسفة:

- أعلم أنني أنا من وضعتك في هذا الظرف الصعب، وأنك تجد ما تأكله بالكاد، فأشر عليَّ ماذا يمكنني أن أفعل بالضبط؟

- ألا من سبيل لاستعادة مدخراتك؟

- لا.

- وماذا عن عملك؟

وهنالك تنهدت سما تنهيدة كلها أسًى وقالت:

obeikan.com

- لـم تعـد فكـرة العـودة إلـى عملـي تـروق لـي، بعـد الـذي حـدث كرهـت النـاس والحيـاة وكل شـيء إلاك يـا حبيبـي، لأنـه لـم يبـق لـي في هـذه الحيـاة غيـر حبـك.

- ولكن الحب لن يطعمنا ولن يكسينا.

- أعلم ذلك، كما أعلم أنَّ ظروفك الصحية لن تعيننا في الوقت الراهن على تلبية متطلبات الحياة، ولكن يمكنني أن أعمل في أي مجال آخر، فهل في وسعك أن تدبر لي عملاً لا يكون بعيدًا عن بيتنا هذا، وحتى يحدث ذلك هاك سلسلتي الذهبية يمكنك التصرف فيها حتى يفرجها الله من عنده.

قالت جملتها الأخيرة وهي تحل عقدة سلسلتها الذهبية من حول جِيدَهَا الأتلع، ثم تذكرت أمها وهي تدسها في يد حربي، والتي كان يضرب بها ساقه آنذاك ضربات غضب رتيبة، وكيف جردتها أمها الهانم من كل شيء في الحياة، إنسانيتها وحريتها وسيارتها وحُلِيَّهَا ومصاغها وأموالها التي كانت تدخرها في أحد المصارف، بل لعلها كانت ضالعة في تلك الأثناء مع محاميها الدنيء عديم الشرف في مواصلة خطتها الشيطانية للقضاء على هذا الحب الطاهر البريء، فهكذا حدثتها نفسها، وهي لا تدري أنَّ ثمة أشياء كثيرة جدًّا في القصر قد تغيرت تمامًا إلى النقيض في الآونة الأخيرة.

●●●

(٢٧)

في ساعة متأخرة من الليل استيقظت سما من النوم هلعة على أصوات صاخبة تأتي من ساحة المنزل الخارجية، فهبت تتحسس الطريق بقدميها في الحجرة المظلمة ناحية الساحة الخارجية، وكمنت جانبًا وراحت تختلس النظر دون أن تكشف عن نفسها، فلمحت زوجها يجلس في رفقة مجموعة من الرجال، كانوا جميعًا يحتسون الخمر ويُصدرون جلبة شديدة في أحاديثهم التي تراوحت بين الضحكات الثملة المزعجة وبين اللغط والمشاجرات الكلامية التي كانت لا تعرف لها سببًا، فأخذت من ركن خفي تشير بإيشارب في يدها لزوجها الثمل وهي في غاية الرعب، وقد تاه عنها تمامًا. إنه وهو الضرير لن يراها هكذا أبدًا ولو ظلت تشير إليه حتى الصباح، فتملكها الخوف الشديد من أن يشعر هؤلاء الرجال بوجودها وقد لعبت الخمر برءوسهم؛ فينتهزون غفلة زوجها السكران ويهجمون عليها مثل الوحوش الضارية غير الرحيمة بفريسة بائسة لا حول لها ولا قوة، فأسرعت بحذر شديد تسير على أطراف أصابع قدميها حتى لا يشعر بوجودها أحد في اتجاه السلم الخشبي المتآكل، وارتقته بذات الحرص حتى

بلغت الطاقة المؤدية إلى سطح البيت، ثم استوت واقفة ثم أخذت تبحث عن أي شيء تدافع به عن نفسها إن قُدِّرَ لها وواجهت مكروهًا ما في تلك الليلة العصيبة.

لم تجد سما شيئًا ترتكن عليه غير صفيحة معدنية صدئة كانت تنبعث منها رائحة كريهة، وحين أمسكت بها لتضعها في ناحية ما من السطوح الترابي غير المُسَوَّر؛ فوجئت بالفئران تقفز من داخلها فصرخت صرخة كتمتها بسرعة بيدها، وهي تلقي بالصفيحة بشكل لا إرادي بعيدًا فأحدثت قرقعة مدوية؛ فلطمت على خدها خشية من أن تكون قد لَفَتَتْ إليها الانتباه، فتصلبت فترة في مكانها حتى تَطْمَئِنَّ تمامًا إلى كون أنَّ أحدًا لم ينتبه إلى ما حدث، بل راحت تُطَمْئِنُ نفسها بنفسها وأنهم ربما في الأسفل غافلين حتى عن أنفسهم، وأنَّ أقصى ما يمكن أن يتصوروه أن هرة ضالة تعبث فوق سقف البيت، فعاودت الإمساك بالصفيحة وعدلتها على الوضع الذي يناسبها. ثم جلست إليها وهي ممسكة في قبضة يدها بحجر مدبب حاد كنصل سكين حام، وراحت تلقي بعينيها إلى مرمى الأفق، كانت البيوت الأخرى بعيدة إلى حد ما عن بيت حربي الطحان، كما كانت الأجواء في الخارج شبه معتمة، ولم يكن يُسمع غير أصوات الريح الليلي الممزوج بأصوات عواء الكلاب والهررة اللائي يمؤن مواءً مخيفًا، انقبض قلب سما وقد

راحت تعتب على حربي في نفسها، وكيف تجاسر على استضافة هؤلاء الرجال ذوي الوجوه المخيفة في وجود أنثى، وبكل ما تحمله كلمة أنثى من سحر وإثارة، وبخاصة أنها الليلة الأولى لها التي تنزل فيها في كنفه، هذا شيء أمَّا الشيء الآخر الذي آلمها نفسيًّا هو ذلك السؤال الذي راح يتردد في حناياها، وأَلَمْ يشتق إليها حربي كما تشتاق هي إليه بشدة، فكم من ليلة أمضتها مسهدة وهي بعيدة عنه تَعُدُّ الساعات والأيام، وتتوسل إلى اللّه أن يلم شملهما وألا يفرق بينهما إلى الأبد، وسرعان ما راحت تغفر له في نفسها، وتلتمس له بدلاً من العذر الواحد عشرات من الأعذار والأسباب. وكفى أن تشفع له مروءته وجسارته وتغفر له ما تقدم وما تأخر من الذنوب والخطايا، لِمَ لا وقد كان في مقدوره منذ البداية إن شاء حياة السلبية والخنوع للتهديدات أن يجنب نفسه كثيرًا من الأهوال والكوارث التي حَلَّت به ورآها رأى العين قبل أن تقع له، ولكنه آثر كفارس مغوار أن يصبه ما يصبه في سبيل العدالة وإمضاء روح القانون الإلهي والوضعي من أجل إنقاذ روح بريئة من الموت والعار المحققين، فأية تضحية قدمها، وأية عظمة تنطوي عليها هذه النفس، والتي وإن بدت عربيدة ثملة فلا لشيء غير أنَّ صاحبها قد غيرت طبيعته الظروف الصعبة التي لاقاها ولم يزل، فالحديد تصهره النيران، والجليد تذيبه الشموس، والماء يطفئ النار، والهواء يُبَخِّرُ الماء؛ فما بال الإنسان الضعيف المخلوق

من لحم ودم وقد لقي من الضغوط ما يفوق كل هذه الأشياء القادرة على القهر والطغيان. وما باله وقد عُذِّبَ بالنار والماء والحديد والهواء جميعًا ثم أنَّ مثواه في النهاية التراب، أفلا يُعذر مثل هذا الإنسان إن ضلت عنه نفسه وتشتت عقله، وراح يرتكب من الخطايا والآثام ما سرعان تنكرها النفس وينفيها العقل إن انتبه وأفاق من سطوة عذاباته، وحالئذٍ طفرت الدموع من عيني سما وبادرت كما اعتادت أن تلتمس له المزيد من الأعذار والمبررات، وتصر على موقفها منه وتقرر في نفسها المزيد من الصبر عليه إلى الأبد، غير أنها أفاقت فجأة على من يمسح برفق بيده على كتفها من الخلف؛ فالتفتت إلى الوراء منزعجة وكمن مستها صاعقة، ورفعت متحفزة ذراعها التي تحمل الحجر المسنون كالسكين إلى أقصى ارتفاع لها، وهمت من غير تفكير أو تريث تهوي بيدها مباشرة على رأس ذلك المفترس المجهول. كان المهاجم ذو وجه دميم للغاية ويشبه الخنزير في رائحته وقذارته البادية، كما كان يبدو شرسًا ومجرمًا إلى أبعد الحدود، والذي بكل سهولة استطاع أن يمسكها من ذراعها المشهرة ويجبرها على التخَلِّي عن حجرها المسنون، ودنا منها وهو يتلمَّظ بلسانه مثل كلب جائع وظمآن، ومن جيب سرواله الجينز الخلفي استلَّ مطواته القرن غزال بيد فيما أحكم كتم صوتها وأنفاسها بيده الأخرى، وهنالك أحست سما العاجزة عن المقاومة كم أضعفتها

الأيام التي خلت، تلك الأيام التي عاشتها مقهورة وحبيسة في حجرة تعذيب العبيد بقصر الخالدي، ولكنها لم تحتمل أن يمس أنوثتها العفيفة أي مخلوق على وجه البسيطة غير زوجها. ومن فورها عقرته في يده بأسنانها الحادة فصرخ الرجل صرخة ألم شديدة، وراح يسبها بأقذع الألفاظ والشتائم، وكأنما قد غاظه سلوكها هذا أكثر فأكثر وزاده إثارة وشوقًا لافتراسها؛ فاندفع كالمجنون ناحيتها وهو حريص للغاية من أي رد فعل عنيف قد يصدر من تلك الأنثى التي بدت في عينيه محض قطة جميلة ومتوحشة في آنٍ واحدٍ، وهنالك صرخت سما هاتفة باسم زوجها بأعلى صوت لها، وهي تجر نفسها جرًّا من براثن ذلك الذئب اللعين ناحية حافة السطح والذي كان يحاول أن يكتم أنفاسها بشتى الوسائل حتى لا يفضحه صراخها هذا. كان الرجل قويًّا للغاية وكانت هي والتي أضنتها الليالي أضعف من يمامة، ولكنها كانت تقاوم، وقلما أفلحت في التملص من هذا الشيطان الأشر، والذي تمكن منها بعد صراعٍ مضنٍ، وتَعَلَّق بجسدها وشرع يمزق في ملابسها، فكان قرارها الحازم أن تجبره على السقوط معها من فوق سطح البيت المرتفع، ولو كان الثمن هو أن تدفع حياتها ذاتها فداءً لعفتها. فمدت ساقها للأمام فجأة ناحية خارج حافة سطح المنزل فيما ظلت الأخرى داخل حيز السطح، فاختل توازن الرجل المتشبث بها بكل قوته وسقطا في الحال معًا من

obeikan.com

فوق السطح على أرض الطريق الخارجي، وربما كان من حسن حظ سما أنها سقطت فوق الرجل ولم تسقط مباشرة على أرض الطريق الترابية مثله، وهنالك صرخ الرجل صرخة رهيبة ثم بدا وكأنَّ أنفاسه قد انقطعت تمامًا، فاتسعت حدقتا عينيها للغاية، وكتمت صرخة ذعر رهيبة بيدها، وقد أخذت تحرك رأس الرجل يمينًا ويسارًا، غير أنه لم يستجب لها، وربما كان من حسن حظها أيضًا أنَّ الوقت كان فجرًا والناس نيام؛ وهو ما أعطاها الأمل في إمكانية التصرف والبحث عن مخرج من تلك المشكلة العويصة، فجرت مهرولة - وهي في غاية الانهيار - بكل ما أوتيت من قوة ناحية البيت، وراحت تطرق بابه الخشبي المتهالك طرقات متلاحقة ولكنَّ أحدًا لم يفتح لها، فأصابها الانهيار العصبي وهي تصرخ بصوت عال هستيري:

- حربي، حربي.

ثم لم تجد سبيلاً غير أن تتراجع إلى الوراء ثم تندفع للأمام بكل قوتها حتى ينفتح باب البيت قسرًا على مصراعيه، ولفرط وهنها لم تفلح سما في البداية في تحقيق مسعاها، غير أنَّ إصرارها الشديد جعل الباب يستجيب لها في نهاية المطاف وينفتح عنوة، وفي لمح البصر قفزت إلى داخل البيت فلم تجد أحدًا من أولئك السكارى - الذين أرقوا ليلتها - اللهم إلا حربي الذي كان نائمًا

على بطنه مفترشًا أرضية المدخل، وقد ألقيت زجاجات النبيذ الفارغة في كل مكان، فيما كانت لم تزل رائحة دخان الشيشة والسجائر المحشوة بالبانجو تعبق أنحاء المكان، فسعلت سما بشدة لأول وهلة، ثم أهوت بجسدها إلى جوار حربي الغائب عن الوعي من فرط الثمالة، وأخذت تهز مذعورة وهي تهتف به كي يستفيق من أجلها:

- حربي، حربي، أرجوك انهض، فثمة كارثة رهيبة في انتظارنا.

ولم تجد سما مفرًّا في خاتمة المطاف من المجيء بقارورة ممتلئة بالمياه، ثم سكبتها مسرعة فوق رأس حربي، والذي فتح نصف عين ونظر إليها بالكاد من بين أهداب عينيه المشعثة، وقال بلسان ثقيل:

- ماذا تريدين؟

- حربي، يبدو أنني قد قتلت رجلاً للتو.

قالتها مندفعة بلا وعي وهي تشير إلى الخارج، فأفاق حربي وأخذ ينهض وقال بارتباك ودهشة غير طبيعية:

- قتلتي رجلاً! وماذا دفعك إلى ذلك؟

- يبدو أنه أحد أفراد ثلتك السكارى، لم أقصد أن أقتله أبدًا، لقد تهجم عليَّ، هو اضطرني إلى ذلك، لقد كان يريد أن...

obeikan.com

ثم صمتت ولم تكمل كلامها، والذي وشت ببقيته بشكل فوري ملابسها الممزقة بصورة مريبة، فأمسكها حربي من ذراعيها بقسوة وهو يقول:

- ألم أقل لكِ أنَّ بقاءنا هنا لن نجني من ورائه غير الهم والغم.

قالها بعصبية بالغة، ثم اندفع خارجًا وهو يتعثر في ظلام عينيه وسكره البين، وفي أثره لحقت به سما والتي شق عليها أن تتركه بمفرده يتعامل مع مثل هذا الموقف البشع.

كان حامد ما يزال مسجيًّا بجسده الضخم على أرض الطريق، ومن باب البيت اندفع حربي خارجًا وهو يتعثر أثناء سيره، ولكنه تماسك حتى بلغ على هدي توجيهات سما له جثمان ذلك الرجل الساكن بلا حراك، وبسرعة ومن غير تفكير شرع حربي يسحبه من رجليه نحو باحة بيته فقالت سما:

- علام تنوى بالضبط؟

- لا أريد أن أسمع صوتك مطلقًا حتى نتخلص من هذه المصيبة التي أوقعتينا فيها.

فلاذت سما من فورها بالصمت، واكتفت بمساعدة زوجها جهد طاقتها والتي كانت قد خارت تمامًا، وبعد مجهود شاق أفلحا معًا في جر جثمان حامد إلى داخل البيت، فصرخ حربي في

o belkan.com

سما أن تبادر بسرعة بإغلاق الباب الخارجي بإحكام، وهو يقول لها وقد شرع يمرر أنامله المشققة على صفحة وجه ذلك القتيل كي يتعرف إليه:

- لقد عرفته، هذا حامد الخُشت بلا أدنى شك، يا للكارثة، ألم تجدي رجلاً غير هذا لتقتلينه.

- حربي، أنا لم أنتقِ رجلاً بمحض إرادتي لأقتله، هذا الحيوان السافل فوجئت به يريد انتهاك حرمتي وأنا كامنة فوق سطح البيت، فقد كنت خائفة جدًّا من هؤلاء السكارى الـ...

- كفى كفى، سوف أدفنه في حجرة نومنا، أسفل الفراش الذي تنامين فيه.

- لا، لا، أرجوك.

- ليس هناك وقت أيتها الغبية، فربما يأتي أهله الملاعين للسؤال عنه بعد قليل.

- ولكن لماذا ندفنه من الأصل فقد يكون حيًّا.

- قد يكون حيًّا وقد لا يكون، في كلتي الحالتين موت حامد الخُشت كارثة بكل المقاييس، وبقاؤه حيًّا كارثة أشد، فلا

أحد يقوى على انتقامه أبدًا.

- لتدعني أتحقق من الأمر بنفسي، ولنفر بجلدنا من هنا بدلاً من دفنه وهو لم يزل بعد على قيد الحياة.

- وإلى أين ستذهبين بي؟

- لستُ أدري.

- أمازلتي مصرة على عدم الاتصال بوالدك الثري حتى يدبر لنا أمورنا.

- حربي، حتى أبي جردتني أمي منه هو أيضًا، ولا أعلم عنه أي شيء حتى هذه اللحظة.

- إذن فلا تضيعي وقتي عبثًا.

- أرجوك.

وهنالك أمسكها حربي من ذراعها بقسوة مفرطة وهو يقول:

- هذا أو الإعدام شنقًا؛ لأنه ليس هناك هذه المرة من يشهد لكِ بالبراءة وبأنكِ كنتِ في حال دفاع عن الشرف.

وجمت سما في محلها طويلاً، فقد كانت عاجزة عن النطق تمامًا من هول الكوارث المتلاحقة، والتي نزلت على رأسها عليها

كالسيل المنهمر، فيما دفع حربي السرير المعدني جانبًا، وانتشل فأسًا كانت مركونة فيما يبدو منذ زمن طويل أسفل خوان الملابس الخشبي المتهالك، وبدأ يحفر في أرض الحجرة التي يغطيها التراب، وبعد فترة أمرها بحدة وقد تصبب عرقًا غزيرًا أن تصعد لفوق سطح البيت، فامتثلت سما لقراره من سكات ولم تحاول أن تناقشه في أي شيء، وارتقت مسرعة في درج السلم الخشبي وهي تنتحب بشدة. وظلت لفترة طويلة معتلية سطح البيت حتى هتف بها حربي أن تهبط، ظلت متخشبة في محلها ردحًا من الزمن، وهي لا تدرى ماذا كان ينبغي عليها أن تفعل فيما قد سلف وماذا ينبغي عليها أن تفعل فيما هو آت؟ غير أنَّ هتاف حربي - المتكرر الحاد لها - اضطرها للنزول من حيث صعدت، وهنالك وجدت ما لم يكن في الحسبان، كانت الحجرة قد عادت إلى ما كانت عليه قبل أن ينحي حربي السرير جانبًا، ويشرع في الحفر، ثم ألفته راقدًا في الفراش شبه عارٍ، وقد فتح ذراعيه لها عن آخرهما وقال باسمًا:

- لِمَ لا نمضي معًا وقتًا لطيفًا ينسينا كل ما كان من بضع دقائق فقط.

فنظرت سما إليه أولاً وهي ذاهلة، ثم إلى أسفل الفراش الذي ثوى تحته - في باطن الأرض - جثمان حامد الخُشت، والذي

لا يدري أحد أدفنه حربي حيًّا أم ميتًا، فانفجرت سما في نوبة عارمة من البكاء الحار وهي تقول فيما يشبه الهذيان:

- حربي، لست أدري كيف طاوعك قلبك المرهف أن تدفن إنسانًا وأنت لا تدري أكان حيًّا أم ميتًا؟

فباغتها حربي بالقول:

- بل لست أدري أنا كيف تطاوعين نفسك على قتل إنسان بريئ ولو كان ينوي بكِ شرًّا، ثم إنني فعلت ما فعلته من أجلك، لأنه قدري أن أكون دائمًا مُخلصك.

ومن غير وعي أسلمت جسدها إليه كتمثال من الحجر الصوان؛ ليفعل بها كل الأفاعيل السوية وغير السوية كذلك!

●●●

obeikan.com

(٢٨)

تبدلت حياة سما تبدلاً عجيبًا، ليس فقط في الآونة الأخيرة، بل ربما من يوم مولدها وأحداث حياتها في تقلب جَدّ غريب، وها هي ذي في آخر المطاف وهي التي لم تؤذِ نملة قط في حياتها قد أضحت قاتلة، حتى ولو قيل أنها لم تتعمد ذلك وأنها كانت تدافع عن عرضها إلا أنها في عرف القانون تسمى قاتلة، ولكم هزتها هذه الحقيقة المؤلمة من أعماقها بشدة، فتطلعت إلى السماء وكأنما ترثي حظها، وأنَّ اللّه هو خير الشاهدين على ما كان، وراحت تضرب كفًّا بكف عجبًا من أمرها، بل من أمر زوجها الذي أصبح أعجب من العجب نفسه. فلم يكن حربي في هذه الأيام هو من عرفته، ومن كانت تسمع صوته يتردد دائمًا في حناياها بكلمات الحب الرقيقة التي تسحرها وتُخَدِّرُ مشاعرها وتجعلها تهيم في آفاق سرمدية؛ فلقد أصبح مذبذبًا جدًّا وعصبيًّا بصورة غير محتملة، كما لم يعد رفيقًا معها أو مهتمًّا بمشاعرها وأحاسيسها، فجعلت تتساءل في نفسها هل انهزمت روح الفارس العظيم في داخله من هول ما لاقاه من صدمات الحياة القاسية، أم أنَّ إدمانه الخمر وتعاطيه المهلوسات ليل نهار وجلوسه إلى هذه

الثلة الفاسدة من شرار الناس هي التي غيرته هكذا؟ وسرعان ما راحت تجتر أمام عيني مخيلتها شريط الصور والذكريات التي مرت بها، ففي ظهيرة اليوم الذي دُفن فيه حامد الخُشت أسفل فراشها، استيقظ حربي من نومه وبدا وكأنه لا يعرف شيئًا عن كل ما جرى، فجعلت تقول له منهارة:

- لقد دفنت صاحبك الذي حاول الاعتداء عليَّ أسفل فراشي، ثم طلبتني إلى الفراش، ولا أدري كيف واتتك الجرأة لتطلب مني ذلك، وفي مثل هذا الوقت العصيب، ثم فعلت بي ما لا تقبله بغي حقيرة أن يفعل بها.

لحظتها لاذ حربي بالصمت الطويل وهو في غاية الدهشة وبدا كإنسان آخر، ثم قال بصوت غير مسموع:

- معذرة الخمر أذهبت عقلي وجعلت ليلي نهار، ونهاري ليل، في الحقيقة أنا كنت مغيبًا ولا أذكر أي شيء مما تقولينه، ولكن على أية حال يجب أن نرحل من هنا، وأتصور أنَّ البعض من أهلك الأثرياء لن يتخلوا عنكِ، الأستاذ شوكت مثلاً، مدام فاطيما أو أختك التي تعيش في انجلترا، أو حتى خالتك رمزية أتصور أنها طيبة القلب وتبدو غيرهم.

- كفى.

obeikan.com

- حبيبتي لِمَ لا نجرب، وقد ننجح، أم أنَّ حالنا الأسود هذا يرضيكِ؟

- قلت كفى.

- أوه، كفى كفى، على الأقل يجب أن يكون هناك من يتدخل من أجل أن تُفرج أمك الهانم المتسلطة عن مدخراتك الكثيرة.

- حربي، أنا لست ثرية كما تظن، مدخراتي محدودة، وأمي لن ترحمني إن ظهرت مرة أخرى، ولا أمل عندي على الإطلاق في أن تُفرج عن جنيه واحد من مدخراتي، أنا الآن في نظرها في عداد الأموات.

سكت حربي طويلاً، ثم قال بنبرة أسى بالغة وتنهيدة ساخنة تعلو في صدره:

- إذن يا هريرتي العزيزة لا سبيل أمامنا غير أن يذهب كلٌّ منا إلى حال سبيله.

فصرخت سما ملتاعة وهي تقول بنبرة عتاب لا مثيل لها:

- لا، ماذا تقول يا حربي، وهل هان عليك حبنا الكبير إلى هذه الدرجة.

- الواقع المرير هو الذي يتكلم لا أنا.

books4arab.com

- ومنذ متى وأنت تتكلم بلسان الواقع، لو أنك تتكلم بلسانه حقًّا ما كُنَّا لنلتقي أبدًا، وما كنت لأرى نور الحياة مرة أخرى ولظللت في عداد المجرمات المتاجرات في المخدرات، ولكن مآل رقبتي إلى المشنقة.

- هيه، معذرة يا حبيبتي، ولكن من المحال أن يمتلك أهلك قصرًا بمئات الملايين من الجنيهات ويكون هذا هو حالنا، أنا ضرير كما ترين وقضى عليَّ أن أكفل نفسي بالكاد، فلا تكوني...

- لن أكون حملاً ثقيلاً عليك صدقني ولسوف أتصرف.

- هل ستتصلين بأهلك، بوالدك المستشار؟

- لست أدري ما أنوي عمله بالضبط على الأقل حتى هذه اللحظة، ولكنني لن أدعك تحتاج إلى أي شيء، سوف أفعل المستحيل حتى تكون مطمئنًّا وكما كنت دائمًا، ولسوف أقاتل حتى يظل حبنا الكبير إلى الأبد، فقط عدني ألا تتغير، وأن تبقى حربي الطحان كما أنت، فارسي الشهم الشجاع الرقيق العفيف النفس والذي عرفته دومًا كذلك، وحتى من قبل أن ألتقيه.

هـزَّ حربـي رأسـه بالإيجـاب ثـم اسـتدار منصرفًـا، وفي الليـل قضـت أمسـية عصيبـة ككل ليلـة، وقـد اجتمعـت ثلـة السـوء ذاتهـا حـول زوجهـا، ولكنهـم في هـذه المـرة راحـوا يضربـون كفًّـا بكـف عجبًـا مـن أمـر اختفـاء صاحبهـم المريـب حامـد الخُشـت، فأحسـت مـن تلقـاء نفسـها بمـدى الحـرج الـذي أوقعـت فيـه زوجهـا، والـذي بـدا وكأنـه لا يعلـم عـن الموضـوع أي شـيء مـا دعـاه إلـى الارتبـاك والتلعثـم في حديثـه وهـو يدفـع بالكلمـات دفعًـا ثقيـلاً مـن أعماقـه، وأنـه كاد بالأمـس غيـر البعيـد يدفـع حياتـه ثمنًـا لشـهادته التـي أنجـت عنقهـا مـن حبـل المشـنقة. وهـا هـي الأيـام تلـف وتـدور ويقـف الموقـف ذاتـه إن لـم يكـن أكثـر سـوءًا، وأنَّ عائلـة حامـد الخُشـت المليئـة بالفتـوات وأربـاب السـجون كمـا علمـت تراهـا مـاذا سـتصنع إذا درت بمـا أصـاب ابنهـا، مـن المؤكـد أنهـا لـن ترحمهمـا أبـدًا، وهنالـك أحسـت كـم يمثـل ظهورهـا في حيـاة هـذا الشـاب البائـس مـن نقمـة لا تعدلهـا نقمـة في الوجـود، وأنهـا قـد أحالـت حياتـه إلـى جحيـم لا يُطـاق، فـلا تسـل عـن السـبب إن رأيـت مـن عاقـر الخمـر والمهلوسـات ونقـم علـى حياتـه، وقـد وضعـه بختـه السـيئ في سـبيل إنسـانة بائسـة، بـل نكـد وشـؤم في حقيقـة الأمـر، هكـذا قالـت سـما في نفسـها مـرارًا وتكـرارًا:

- أنـا امـرأة نحـس، شـؤم، أنـا محـض بومـة شـؤم، وحمـدًا للّه أنـه مـا زال يحتملنـي حتـى هـذه اللحظـة، ولـم يطردنـي مـن حياتـه إلـى الأبـد.

وهكذا ظل شريط الذكريات يمر أمام عينيها وكأنما هو في حالة عرض مستمر، وكان حربي نائمًا كعادته حتى بلوغ شمس النهار كبد السماء، كان يصحو من نومه بعد ليلة سكر وعربدة وهو في غاية الانفعال والغضب، وسيئ المزاج إلى أقصى حد يمكن وصفه، فلم تلبث سما أن وضعت طعام الإفطار أمامه حتى جذبها من أطراف ملابسها وهو يقول لها بحدة:

- النقود التي بعت بها سلسلتك الذهبية نفدت، ولم يعد معي ما أنفق به عليكِ أو حتى على...

فقالت مندهشة فقط لا معترضة:

- بكم بعتها؟ إنها غالية الثمن للغاية.

- سكرت وعربدت ولعبت القمار، وأنفقتها على الغوازي والساقطات و...

- مهلاً مهلاً يا حبيبي، لم أقصد شيئًا مما جال في خاطرك بالمرة.

أمضت سما وقتًا طويلاً وهي شاردة في البحث عن وسيلة ما تدبر بها النقود اللازمة للإنفاق على نفسها وعلى زوجها العاجز، وكانت من حين للآخر يقطع حبل شرودها الشرود في اتجاه آخر والحقيقة المؤلمة التي كانت تؤرقها دومًا، هل أنا قاتلة حقًّا؟ وهل

obeikan.com

من المعقول أن أقبل بالنوم في فراش يرقد تحته جثمان رجل آخر ولو كان ميتًا! وهي النكتة البذيئة التي أطلقها حربي أثناء نومهما ذات مرة وقد جعل يقول وهو يطلق قهقهة مدوي :

- هه، أنا الرجل الوحيد في العالم الذي قبل أن ينام بجوار زوجته وهو يعلم أن رجلاً آخر ينام ليس معهما فقط في الحجرة، بل تحت الفراش نفسه.

فنظرت إليه سما نظرة اشمئزاز كلها عتاب، فاعتدل في رقدته وأردف متسائلاً إليها:

- لماذا تنظرين إليَّ هذه النظرة البلهاء! أوَليست هذه هي الحقيقة، وأنني قبلت ما لا يقبله رجل من أجلك.

فأرخت سما عينيها رهبًا وقالت بدهشة منقطعة النظير:

- وكيف عرفت أنني أنظر إليك نظرة بلهاء؟

ضحك حربي طويلاً وقال:

- البلاهة صفة تتسم بها أية امرأة في الوجود، فقط رأيتك في داخلي وأنتِ تنظرين إليَّ كالبلهاء .

صدمت سما تلك العبارات الخالية من الذوق، وراحت تفرك جبينها بأصابع يدها وهي تنظر لحربي من تحت لتحت؛ وكأنما

obeikan.com

أرادت أن تتحقق من شيء ما بدا لها - مختلفًا في رجلها وغير الذي كانت متأكدة منه دومًا - وبعدها قالت بنبرة مغايرة:

- لولا أنني أعرفك جيدًا لقلت أنك تجاهد من أجل أن تجعلني أغير رأيي فيك.

- ألم أقل لكِ أنكِ بلهاء ككل نساء الأرض، وأما كفاكِ الكارثة التي أوقعتيها بنا، حامد الخُشت لم يقصد بكِ شرًّا كما تتوهمين، كان غائبًا عن الوعي، وكان في إمكانك الإفلات منه بسهولة وليس بقتله، فاضطررت كالأبله لدفنه، وأين في حجرة نومي!

- حسنًا إنك قد تذكرت.

- تذكرت قبل أن يفوت الأوان، تذكرت حتى أنبهك أنتِ إلى الملايين التي سوف تضيعينها علينا بغبائك، وأنه لا مفرَّ من مواجهة أمك، وأخذ نصيبك في القصر عنوة، القصر الذي قدر بمليار دولار أيتها الغبية.

- أقسم لك أنني لن يصيبني من وراء هذا القصر الملعون غير المزيد من عداء أمي والعائلة لا الثروة الطائلة كما تظن.

صمت حربي هنيهة غاص خلالها في التفكير العميق ثم قال:

- لديَّ وسائلي ورجالي الذين يمكنهم ترويض الهانم والدتك، وأخذ حقوقنا منها بالقوة.

- حربي اصمت، أتريدني أن أحارب أمي، أنت ثمل، وكلامك الآن سوف يزيد الأمر تعقيدًا.

- أنا كلامي يزيد الأمر تعقيدًا! هه فماذا تسمين أفعالك إذن؟ أنا من عقد الأمور أم أنتِ، أنا دائمًا من يحل العقد، أنا دائمًا من يخرجك من الفخاخ الرهيبة التي تسقطين فيها، ولولا بقاؤنا هنا بسبب عنادك، غبائك، ما آل حالنا إلى ما نحن فيه الآن، وما كنتِ الآن قاتلة.

- ألا تصدقني، أقسم لك أنه لا حيلة ليّ فيما جرى من صاحبك السكير العربيد، هل كنت أتركه مثلاً يلوث شرفي وشرفك، ثم إنني لم أقتله؛ أنا ألقيت بنفسي من فوق السطوح؛ كي أخلي نفسي منه لكنه تشبث بي وسقطنا معًا سقطة لا أتصور أبدًا أن تقتله بمثل هذه السهولة.

انقطع حبل الحديث الدائر لفترة وجيزة، بعدها اعتدل حربي في جلسته ولكن ليقول بهدوء هذه المرة:

- سما، أنا أصدق كل كلمة قولتيها ولكن الحكومة والقانون فاقدي البصر مثلي، يأخذون بالمقدمات من دون الأسباب

obeikan.com

والتفاصيل، ومع ذلك تبقى أمامنا فرصة ذهبية للنجاة من هذه المصائب التي تحدق بنا من كل ناحية.

ثم استدرك قائلاً:

ومن غير عنف أو شر، بل بالقانون.

اهتمت سما بما سيقوله حربي، وزاد فضولها وقد طال صمته أكثر مما ينبغي، والذي قال أخيرًا:

- أمك حجزت على كل مدخراتك بحكم من المحكمة التي نصبتها وصية عليكِ؛ بحجة وجود خلل في قواكِ العقلية، ثم بوصفها صاحبة القصر الآن فلا ريب أنها ستحرمك من حقك فيه في حال بيعه لأي مشترٍ.

- ...؟

- يمكنكِ طلب المعونة من نعيم الضو المحامي صديق والدك، ما رأيك؟

- أية معونة تقصد ؟.

- معونته ضد أمك المُزَوِّرَة، فمن جهة سوف تضطر المحكمة للإفراج عن مدخراتك؛ ومن جهة أخرى تحافظين على حقنا أقصد حقك الشرعي في القص.

obeikan.com

وهنالك شردت سما ولكن في اتجاه آخر تمامًا، وتساءلت إلى نفسها وهي في غاية الحيرة: ترى ماذا يكون موقفي الشرعي الآن لو كانت أمي قد نجحت بالفعل في استصدار حكم من المحكمة بخلعي من زوجي حربي ومن غير علمي وإرادتي؟

●●●

obeikan.com

(٢٩)

كم كانت الصدمة بالغة عندما علمت سما بما دار في القصر بعد رحيلها من خلال مكالمة هاتفية مع نعيم الضو، وكان نعيم متحرجًا من سما في بداية الأمر ثم قال لها بصراحة بالغة:

- لقد تورطت في قضية تشهير بعائلة الخالدي، وهي قضية على أكثر الاحتمالات تفاؤلاً سوف أكون مطالبًا بعدها بدفع تعويض مالي فوق طاقة احتمالي، وغاية ما أسعى إليه الآن التصالح، أو دفع تعويض بيني، أي بين أمك وبيني، تعويض أقوى على دفعه.

ظل نعيم يتفرع في الحديث معها يمينًا ويسارًا، ويسوق إليها الكثير من الأخبار غير السارة تارة، وتارة أخرى يخرج عن لب المواضيع كلها، وهنالك أحست سما بالحرج البالغ وقد لمحت من صديق عمر والدها نبرة اعتذار عن مساعدتها؛ فأنهت المكالمة من فورها، وقد نسيت تمامًا سؤاله عن أبيها وكيف حاله، وأين يمكنها أن تجده الآن؟ وبخاصة بعد ظهوره المفاجئ في القصر وقلبه المائدة على رأس الجميع، وحين نقلت حرفيًّا تفصيل ما دار بينها وبين نعيم الضو لزوجها؛ هاج حربي وماج وظل يصرخ كالمجنون في وجهها:

- ليرجع كل منا أدراجه، أنتِ تعودين إلى القصر وكفاكِ عنادًا، وأنا سوف أبقى هنا لألقى مصيري المجهول، فها قد فصلت من عملي، وساءت صحتي، واليوم أو غدًا أو بعد غدٍ على أقصى تقدير سوف يأتي أهل حامد الخُشت للتنقيب عنه في كل مكان، ومن المؤكد أنهم لن يعييهم الوصول إلى جثته، وسيصلون إلى حقيقة ما جرى بأسرع مما تتصورين، ولحظتها سوف أدفع أنا الثمن غاليًا عوضًا عنكِ، هيا هيا فيم انتظارك، ارجعي أدراجك وقَبِّلِي قدمي الهانم أمك وابقي في القصر ولأذهب أنا إلى الجحيم.

كان حربي يتحدث بسرعة بالغة وهو في غاية العصبية والانفعال؛ فارتج الأمر على سما التي خانتها رقتها هذه المرة وقالت:

- أي قصر تقصد أيها المجنون، القصر ذهب إلى الأبد، لم يعد لنا فيه ناقة أو جمل، المحامي أخبرني أنَّ القصر سوف تتسلمه الحكومة قريبًا جدًّا.

تَسَمَّر حربي في موضعه لحظات وقد نزلت هذه المفاجأة على رأسه كالداهية، وبعدها قال وقد أحس أن أبواب الدنيا كلها قد أُغلقت في وجهه:

obeikan.com

- وأنا بيتي لم يعد يحتملني أنا صاحبه، فهل سيحتملكِ أنتِ؟ ومن هو مقدر له أن يكون ثمرة لعلاقتنا اللعينة هذه في المستقبل؟

- لا تسبق الأحداث، لم يتخلق بعد في حشاياي شيء، كنت أشك فقط في أمري، لا تكن عجولاً.

- ليست هذه هي المشكلة، المشكلة هي أنتِ.

كانت سما مثل الغريقة التي تضرب بذراعيها - ضربًا عشوائيًّا - - صفحة المياه المضطربة كي تظل على قيد الحياة، وحربي كان حياتها التي بات من الصعب التخلِّي عنها أو الزهد فيها، أو هكذا خُيِّلَ لها، ولم تعد تدري أية قوة خارقة تشدها إليه هكذا؟ ومن المؤكد أنَّ كلمة الحب قد رنت كثيرًا في رأسها كلما جال مثل هذا السؤال في خاطرها، وأن يكون الحب - هو حقًّا ذلك الرباط الذي لا فكاك منه - هو الذي ربط قلبها بقلب حربي على هذا النحو العجيب، أم أنه إحساس الأسيرة نحو سيدها الذي أعتق رقبتها من الموت والعبودية معًا. ولكن هيهات أن تكون هذه هي الحقيقة المطلقة وقد كشف لها الواقع عوار هذا الحب، وأنَّ تصرفات حربي معها في الآونة الأخيرة بدت على عكس ما تتوهمه في نفسها بالمرة، بل لم تجد نفعًا للكثير من الأعذار والمبررات التي تسوقها من أجل الدفاع عنه في نفسها.

obeikan.com

فمن ذا يكون حربي الأمس الذي أبهرها؟ ومن ذا تراه حربي اليوم الذي يبدو كمخلوق آخر وغير الفارس الذي كانت تعشقه في نفسها عشقًا جمًّا! فراحت تتأمل في مُحَيَّاه طويلاً وهي تلقي في النهاية باللوم كل اللوم على نفسها لكونها قد نسيت العهد الذي قطعته على نفسها؛ وأن تعيد أولاً الرجل إلى حياته الطبيعية التي كانها من قبل، ثم لترى أي حربي هو؟ الحبيب أم الـ...وهنالك أصاب رأسها دوار سخيف، فارتمت جالسة في الأريكة منهكة القوى، وقد أمسكت برأسها التي كادت تنفجر انفجارًا لا مثيل له وقد علمت أنَّ مصابها ليس في رأسها أو صحتها المعتلة، وإنما في قلبها الذي بات حربي الطحان هو داؤه الأوحد، وسقمه الذي لا علاج له. فأخذها الذهول مأخذًا شديدًا من تطور العلاقة بينها وبين حبيبها في هذا الاتجاه السلبي المريع، وازدادت أفولاً مثل أقحوانة أشرفت على الموت، واضطربت صحتها النفسية وبدت تهذي بكلمات لم تكن لتفهمها هي نفسها؛ فركبها مع الغم الشديد الشرود المستمر في وسيلة ما تدبر لها ولزوجها المال والقوت، وكلما فكرت في اتجاه ما ألفته مسدودًا ومغلقًا بالضبة والمفتاح. ولكم وَدَّت من كل قلبها أن تجد والدها فتبثه أحزانها وشجونها، وتأخذ معونته ومشورته في أمر حياتها التي تعقدت تعقدًا غريبًا، ولكن أين تجد هذا الوالد الطيب الذي آثر أن يخرج من لعبة الحياة! صحيح أنه قد بلغها ما قام به من هدم المعبد

على رأسه ورأس الجميع، ولكن كيف تُحَمِّله وهو المريض العليل همومها ومشاكلها، إنها قد اختارت حياتها بمحض إراداتها، بل قاتلت وفعلت المستحيل من أجل استمرارها، فلتبق هذه الحياة إذن كما هي ومن غير إزعاج لأحد؛ ولو كان ثمن ذلك دهس ما تبقى لها في الحياة من كرامة وأمل.

تعودت «أم شرف» أن تطرق باب البيت من آن لآخر، وكثيرًا ما حاولت جَرَّ أطراف الحديث مع سما، ولكن سما كانت تصدها وتوصد الباب في وجهها دائمًا، ليس فقط بموجب تعليمات من حربي، وإنما بسبب شعورها أنَّ هذه السيدة السمراء البدينة فضولية أكثر مما ينبغي، وتتدخل فيما لا يعنيها، وكانت سما قد علمت من حربي أنَّ هذه السيدة تخدم في بيوت الأكابر حسب الطلب، ولديها الكثير من الأموال ولم تدرِ سما ما الذي دفعها لكي تفتح الباب لهذه السيدة المتطفلة حين طرقته، ولِمَ دعتها إلى الدخول في هذه المرة، بل لم تدرِ كنه تلك القوى الغيبية التي جعلتها تصغي إليها باهتمام بالغ وعلى غير العادة. في البداية راحت تعتذر لها لعدم وجود ما يمكن أن تضايفها به في البيت، وكانت «أم شرف» ثرثارة أكثر مما ينبغي، ولا تحتاج إلى من يوجه إليها الأسئلة فقد كانت تجيب على كل شيء قبل أن يولد السؤال ذاته في رأس السائل، وليلتها تكلمت كثيرًا وسما تنصت إليها وقد

تعلقت عيناها بالباب خشية من عودة حربي المفاجئة من الخارج، فقد اعتاد أن يمضي بعض الأمسيات القليلة عند بعض أقرانه من الصحاب، وذلك بعد سلسلة من التعليمات المشددة التي كان يتلوها عليها وهو يلقي بكوفيته الجوخ على كتفه، ثم يمضي متلمسًا سبيله بالعصاة الغليظة التي قلما فارقت يده. وكانت سما تودعه حتى الباب وهي ترجوه ألا يتأخر، وألا ينسى أمر فجوة السقف التي يمكن أن يتسلل منها شيطانًا مريدًا أو ذئبًا بشريًّا، وذات مرة تركها بمفردها وتأخر في الخارج أكثر مما ينبغي، فغلبها النوم وهي جالسة في الأريكة المتهالكة التي تتصدر ساحة مدخل البيت الضيقة، كانت تجلس وهي تثني رجليها تحت مقعدتها، ومن آنٍ للآخر كانت تستيقظ فزعة وقد تدحرجت رأسها على كتفيها، كانت الإضاءة في البيت خافتة للغاية، ولكنها كانت رغم ذلك ترى سحابة الدخان الكثيفة المتسللة من الخارج - في هيئة خيوط هلامية مع رائحة كريهة للغاية - وهي تغمر المكان الرديء كله من حولها، فقد تعوَّد الناس في المنطقة أن يجمعوا أكوام القمامة القذرة في أكداس مكدسة ثم يشعلون فيها النيران، فكانت تسعل بشدة وتنثال الدموع من عينيها مدرارًا، وقد لاحقتها ضحكات حربي التي مازلت عالقة بحنايا ذاكرتها وهو يقول لها:

- الحياة هنا صعبة، بل مستحيلة، وأهل الظرافة واللطافة في حينا اللطيف يقولون أنَّ عمال النظافة لو دخلوا منطقتنا لرفعوا السكان مع القمامة، هنا يا عزيزتي البعض يأكلون القمامة لا يرفعونها كما تأملين.

صمت قليلاً ثم قال بصوت تحشرجت نبرته فجأة وازداد خشونة بطريقة تبعث على الخوف:

- نكتة سخيفة أليس كذلك، ولكنها الحقيقة نحن محض قاذورات تمشي على الأرض.

كان صوته ما زال صداه يرن في حنايا مخيلتها وهي مرجرجة بين النوم والانتباه، ولكنها فجأة لمحت في ناحية ما في حلكة الظلام الذي تبدد لوهلة بسبب ضوء سيارة مارقة انعكس من الخارج، أثناء تلك الوهلة - التي فرغت فيما يشبه طرفة العين - بدت لها من بعيد شمطاء عجوز هائشة الشعر الأبيض، وهي تختلس إليها النظر بعينين سوداوين غائرتين في دوامات من أخاديد الزمن الطويل والتي شقت وجهها الأسمر، وجعلته مزقًا مزقًا، فصرخت سما صرخة مدوية، وأسرعت تشعل ضوء المكان الوئيد، فلم تر أثرًا لهذه السيدة. وحين عاد زوجها الثمل من الخارج وهو يتطوح كورقة ثمامة خفيفة في وقت متأخر من الليل، لمحها وهي واقفة ترتجف في زاوية الحائط، والتي أخبرته بدورها مرتعشة بما رأته

أو بما خُيِّلَ إليها أنها قد رأته في صحوها لا منامها، وهنالك ضحك حربي ضحكة مفتعلة بعد أن شرد قليلاً، ثم ضمها بشدة إلى صدره وهو يقول:

- دعكِ من التهيؤات، ودعينا نغرق في بحر القبلات.

ومثل قطة مرتعشة نامت في أحضانه، وهي تتوسل إليه أن يدع لها تلك الليلة فقط، وكي تحبه فيها على طريقتها هي وليس على طريقته هو، طريقته الجديدة الباعثة على الغثيان والتي لم تألفها منه قبل ذلك ، وقالت هامسة في صوان أذنه:

- لقد أمضيت وقتًا عصيبًا، أنا مروعة الآن وأبتغي الحب الحقيقي الذي منحتني إياه من قبل، ذلك الحب الذي يحرر المرء من خوفه، ويجعله ينام ملء عينيه وهو قرير النفس مطمئن البال؛ فأنا لست أكثر من هرة جزعة، هرة تبتغي حضنًا بل حصنًا دافئًا تهجع إليه، وتلوذ به، وكتف حبيبها المرتفع وصدره القوي الصلب كي يواري عنها العالم المربك بأسره، ويصد عنها غثاثات الناس وسخافة السخفاء. حربي هذا هو حبي لك، الحب الذي أضمرته لك في قلبي حتى قبل أن ألقاك، ثم ازداد وتطاول كجبل شاهق الارتفاع؛ سدَّ عين الأفق يوم حررتني من أسري، ورددت إلى جسدي الضامر روحي الضالة في دياجير الحياة، حربي لقد جعلتني

أحب كل شيء في الحياة، حتى القاذورات العفنة التي كنت تحدثني عنها أجدني لا أمقتها، أتسامح حيالها فليس ذنبها أن صارت هكذا، بل أجدني كَمَلَكٍ يرفل في ثياب بيض ويهيم في السموات العُلاَ وهو يبذل البشارات وينثر قطرات الحب من عليائه، قطرات لتطفئ نيران الأرض المستعرة لا لتشعلها.

كانت تتكلم هامسة وهي تكاد لا تسمع نفسها، فقد كانت تتلاشى شيئًا فشيئًا وراء أسوار عالم حبيبها البعيد، ولكنها أفاقت فجأة من سباتها على صوت كان يتسرب إلى مسمعيها من ناحية ما، كان الصوت مكتومًا حقًّا، ولكنه كان رهيبًا ومخيفًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكأنما هو فحيح لأفاعي شرسة تتقاتل فيما بين بعضها البعض!

جلست «أم شرف» تتحدث طويلاً وسما ما زالت شاردة فيما قضت به الليالي الخوالي أن يكون، وما كانت تسمعه من أصوات مريعة في هجعة الليل والناس نيام، وأخيرًا صرفت ذهنها إلى اتجاه آخر، وتجاسرت على مقاطعة أم شرف بعصبية غير معهودة منها:

- أم شرف ليس أمامي وقت طويل حتى تفرغين من ثرثرتك، حربي لا يطيق سيرتك، وأنا كل ما أطلبه منكِ مساعدتي في تدبير بعض النقود، البيت كما ترين خالٍ تمامًا على عروشه

obeikan.com

مـن كل متطلبـات الحيـاة، وبخاصـة أننـي أشـعر مـن آن لآخـر وكأنَّ شـيئًا مـا يتحـرك في حشـاياي.

- يا خير ما بشرتني به الليلة يا أم...

ضحكت أم شرف ضحكة طويلة ثم قالت:

- أكذب عليكِ يا حبيبتي إن قلتُ لكِ أنه في مقدوري مساعدتك، أنتِ تساعدين نفسك بنفسك.

- حاولـت أن أعـود إلـى عملـي الـذي أجيـده حـق الإجـادة ولكننـي فشـلت، ثـم أطرقـت خجلـة واسترسـلت قائلـة في نفسـها هـذه المـرة:

- أو أننـي خائفـة مـن مواجهـة مـن كنـت أقابلهـم مـن قبـل، وبراءتـي لـم تعـد تشـفع لـي حتـى عنـد أقـرب الأصدقـاء إلـي.

كانـت أم شـرف آنـذاك تجيـل نظراتهـا في كل جـزء مـن الفتـاة وقالـت وهـي تمسـح برفـق علـى شـعر رأسـها الناعـم السـبط:

- أنـتِ مـن هيئتـك الجميلـة الراقيـة تبديـن كواحـدة مـن بنـات الأصـول والأكابـر، فمـا الـذي طـوح مثلـك علـى هـذه الزريبـة القـذرة؟

- أم شـرف لا شـأن لـكِ بذلـك، الليلـة فقـط رضيـت باسـتقبالك مـرة أخـرى حتـى أسـمع منـك كلمـة واحـدة نعـم أم لا، أنـا أريـد العمـل معـكِ ليـس أكثـر فمـاذا تقولـين؟

هنالـك ابتلعـت أم شـرف لسـانها، وإن سـألتها بلسـان حالهـا العشـرات مـن الأسـئلة المفعمـة بالدهشـة والفضـول، وفي الصبـاح تـوارت سـما في ثيابهـا الثقيلـة، ولطخـت وجههـا الأبيـض تمامًـا بالهبـاب الأسـود الـذي تغطـي طبقـات منـه قاعـدة إحـدى حلـل المطبـخ الألمونيـوم المتفحمـة، ثـم مضـت في رفقـة أم شـرف واجمـة ومصارينهـا تتقطـع مـن الداخـل مـن فـرط خوفهـا مـن المجهـول، ثـم ركبـا معًـا سـيارة ميكروبـاص، والتـي أقلتهمـا حتـى بلغـا إحـدى المناطـق الراقيـة، ثـم انطلقتـا في اتجـاه إحـدى الفلـل الفاخـرة ودخلتهـا، وبعـد ذلـك أخـذت كل واحـدة منهمـا جانبًـا مـن المـكان تنظفـه وتأنقـه وترتبـه علـى أحسـن مـا يُـرام، وبالليـل عادتـا إلـى المنطقـة العشـوائية التـي خرجتـا منهـا. ولقـد كان الأمـر جـد عصيـب في البدايـة علـى سـما، ولكنهـا الحيـاة ومتطلباتهـا التـي لا تنتهـي، ولـم يبـالِ حربـي كثيـرًا بأمـر النقـود التـي تأتـي بهـا سـما مـن آنٍ لآخـر ولا مـن أي طريـق اكتسـبتها، وإنمـا كانـت كل مبالاتـه بكونهـا قليلـة ولا تفـي بالحاجـة الملحـة، وكثيـرًا مـا راح يعنفهـا ويتهمهـا أنهـا هـي مـن تسـببت فيمـا أصابـه، وأنـه لولاهـا مـا احتـاج لمعونـة مـن أحـد، فـإذا بهـا تتخلّـى عنـه وتلقـي إليـه بالفتـات

الـذي لا يكفـي لسـد رمـق نملـة علـى أكثـر تقديـر لا إنسـان فحـل عُتُلٍّ مثلـه. فبكـت سـما طويـلاً وهـي تقسـم لـه أنهـا بريئـة كل البـراءة مـن التقصيـر فيِ حقـه، وأنهـا فعلـت المسـتحيل كـي تجـد سـبيلاً أكثـر جـدوى تتكسـب منـه المـال ولكـن بـلا فائـدة، بـل عـاودت الاتصـال بصديـق والدهـا نعيـم الضـو بغيـة الاقتـراض منـه ولكنهـا وجدتـه فيِ رحلـة عمـل إلـى الخـارج، وهنالـك هـدأت ثـورة غضـب حربـي إلـى حـد مـا، فدنـت منـه قائلـة:

- أعقلهـا يـا حبيبـي بنفسـك، مـا الـذي يجبـر إنسـانة مثلـي علـى الخدمـة فيِ البيـوت متنكـرة إلا إذا كانـت أبـواب الدنيـا كلهـا قـد سـدت فيِ وجهـي، ثـم إننـي قبلـت مـا قبلتـه كـي أفيِ بدينـي ووعـدي لـك، وأنـك لا محالـة سـوف تعـود كمـا كنـت، بـل أفضـل ممـا كنـت، فقـط امنحنـي الوقـت والحـب.

- هيه، لقد أصبحت عصبيًّا أكثر مما ينبغي.

- ليـس بإرادتـك، بـل لعنـة اللّه علـى مـن كتبـوا عليـك وعلـيَّ هـذا المصيـر المؤلـم، ولكننـا حتمًـا سـوف نكافـح ونقاتـل حتـى ينتصـر حبنـا علـى كل مصاعـب الحيـاة.

كانـت سـما تتمنـى أن تكـون حياتهـا الآنيـة مجـرد سـحابة صيـف وتنصـرف إلـى حـال سـبيلها، ولـولا أنهـا تعتقـد ذلـك حقًّـا مـا أقدمـت

على بذل كل هذه التضحيات الجسام، وكانت كل ما ترجوه من حياتها أن تخرج منتصرة في النهاية على كل صعاب الحياة، وتفوز بفارسها وحبها الحقيقي الذي لم يمت بعد في داخلها، وما أن أتمت سما لف الطرحة السوداء حول رأسها ووجهها حتى استدارت خارجة في رفقة أم شرف، وركبتا السيارة الأجرة كعادتهن التي ألفتها كلتاهما في الأيام الماضية، فغفت قليلاً رَغْمًا عنها، وألفت أم شرف تأخذها من يدها إلى قصر الخالدي، فانتفضت هلعة وحاولت التملص من بين يدي أم شرف، والتي فوجئت بها تعبس في وجهها وتلطمها على خدها لطمة عنيفة وهي تصرخ قائلة:

- ما له هذا القصر لا يعجبك وتتمنعين عليه، العمل هو العمل، أسياد هذا القصر سوف يمنحوننا الكثير، فلا تضيعي عليَّ وعليكِ تلك الفرصة الذهبية.

وعلى مضض قدَّمت سما ساقًا وهي تؤخر الثانية، كانت مطرقة ولكنها لمحت القصر الكبير بعيني خيالها، ثم من طرف خفي راحت تجيل نظراتها باحثة عن حجرة العبيد التي حبستها فيها أمها بولا هانم الخالدي، وهيهات أن يعرف الجن الأزرق ذاته مكانها في هذا القصر المترامي الأطراف المجهول كمغارة على بابا، ثم هيهات أن يخرج من هذه الحجرة الأسطورية أحد، حتى الجن نفسه لا يستطيع! هكذا قالت سما في سريرتها، وحين

بدأت العمل وهي منكسة وجهها الملطخ بالهباب في الأرض فوجئت بمن تتطلع إليها طويلاً، ثم صفعتها صفعة قاتلة على خدها وهي تقول لها:

- يا قليلة الأدب والتربية.

فأفاقت سما من غفوتها شاهقة، وقد تركت صفعة أمها الوهمية آثارًا دامية على وجهها الملتهب، فتشبثت بكتف أم شرف كفأر مذعور وسألتها بنبرة مختنقة بالدموع والسيارة الميكروباص ترتج بشدة:

- ما وجهتنا اليوم يا أم شرف؟

- مصر الجديدة يا حبيبتي، ماذا دهاكِ؟

فتنفست الصعداء وهي تغمغم قائلة كالموتورة:

لا شيء، لا شيء.

وحين عادت في المساء خائرة القوى ارتمت بطولها على حصيرة أعواد الصفصاف الجافة، كانت تبدو كمن أشفى على الموت، وقد زاغت عيناها تمامًا وإن لم يمنعها ذلك من رؤية شبح العجوز الهائشة الشعر وهي تمرق بالقرب من جسدها المسجي على أرضية المكان! فأفاقت هلعة من سباتها العميق، ولم تكن

هذه هي المرة الأولى ولا الأخيرة التي شعرت فيها بوجود هذا الشبح الغريب، غير أنها في المرة الأخيرة أفاقت من نومها قرب ساعة السَّحَر على صوت عميق لامرأة عجوز تئن أنات مكتومة وكأنما تأتي من تحتها، ثم صرخت صرخة مدمدمة ارتجت لصداها أرض الوجود على رحبها رجات عنيفة، فجُنَّ جنون سما والتي قامت مهرولة تتحرى الأمر بنفسها في كل أنحاء البيت العتيق، وقد حبست أنفاسها في صدرها تمامًا، غير أنها لم تصل إلى شيء يفسر لها سر ذلك الصوت الرهيب الذي اعتادت على أن تسمعه ليلاً منذ فترة ليست بالقصيرة. وحين أفاق زوجها حربي من الخمر في عصر اليوم التالي، أخبرته بما جرى وأنها خائفة للغاية، فاكتفى بإشارة من سبابة يده إلى رأسها مباشرة، ثم غادرها إلى ثلة السوء التي استولت على لُبِّه تمامًا، ولم تكن لإشارته هذه غير معنى واحد؛ وهو أنَّ ما يدور ليس له مكان في عالم الواقع بل في خيالها فقط، وأنها ترى كابوسًا ما، أو أنها قد باتت لا محالة في سبيلها إلى الجنون إن لم تكن قد جنت بالفعل!

●●●

(٣٠)

لـم تكـن سـما في حالـة مزاجيـة مناسـبة تسـمح لهـا بتفسـير الأشـياء العجيبـة التـي تحـدث لهـا أو تلـك التـي تـدور مـن حولهـا، كانـت تبـدو كالمغيبـة التـي تُقْـدِمُ علـى أشـياء غريبـة وهـي لا تـدري لمـا أقدمـت عليهـا مـن الأصـل، كمـا كانـت تبـدو كالتائهـة، المخطوفـة، حتـى صوتـه الحانـي الملائكـي – الـذي كان يدور في أعماقها ويشـجيها ويدغـدغ مشـاعرها – لـم يعـد يسـري في أوصالهـا، كمـا كان الأمـر مـن قبـل، وكانـت الإجابـة اللاشـعورية الحاضـرة دائمًـا في سـويداء نفسـها لأي سـؤال يحمـل أمـارات الدهشـة مـن أمـر حبيبهـا حربـي الطحـان وتغيـره العجيـب؛ أنـه ضحيـة قـدره الـذي أوقعهـا حجـر عثـرة في سـبيله، ولكـن ألا مـن نهايـة لهـذا الواقـع الغبـي، وألا مـن بشـائر للعالـم الآخـر الـذي منـه أتـت وإليـه تنيـب. ذلـك العالـم اللبنـي الـذي جمعهـا دومًـا بهـذا الحبيـب العمـلاق، فـأي صـورة قبيحـة تلـك التـي غشـيت عالمهـا الحقيقـي، وأخفـت كثيـرًا مـن تفاصيلـه ومعالمـه الخلابـة، وسـحره الأخـاذ، وتراتيـل الملائكـة الخلديـة.

- رباه هل أكون حقًّا قد جننت وأصابت عقلي لوثة؟

ظل هذا السؤال دائرًا في ذهنها مع صوت السيارة الميكروباص المنطلقة بسرعة الريح على الطريق، وهنالك مالت أم شرف بشدة على أذنها وقالت هامسة فيها وهي تبتسم ابتسامة ما لم تعهدها منها سما من قبل:

- الباشا معجب.

- أي باشا، ومعجب بمن؟

- محسن بك الذي نحن في سبيلنا إلى منزله الآن.

- لقد كنا هناك بالأمس!

- ألم أقل لكِ أنه معجب ولهان، وهو على أتم استعداد لأن يدفع لنا الكثير.

أفاقت سما من أحاسيسها الداخلية التي شغلتها كثيرًا عن الانخراط في عالم الواقع الحقير، وقالت وقد أحست بشيء ما غير طبيعي يدبر في خفاء الدقائق اللاحقة إن لم تكن اللحظات، ولأمر ما أحست أنَّ حياتها كلها قد صارت محض حلم سخيف، وأنَّ ما قد بدر منها من أفعال في الآونة الأخيرة من المحال أن يكون لها أصل في عالم الواقع والمعقول، ولكنها آثرت أن تظل متماسكة ولو كانت رهن كابوس شيطاني مريب:

obeikan.com

- كلامك أقلقني جداً، وهل ما يدور في رأسي الآن حقًّا أم أنه محض خيال وكابوس سخيف.

- ساعتان فقط نحصل من خلالهما ما نحصل عليه في سنة بحالها، محسن بك كلمني بشأنك كثيرًا...

- هل جننتي، أنا امرأة متزوجة وابنة ناس، أولاد أكابر، لست فتاة ساقطة من الشارع حتى تتجرئين على التحدث معي هكذا.

- هه، وهل تعدين حربي السكير العربيد زوجًا يعمل له حساب؟

- اخرسي أيتها الحقيرة.

- بل كفاك أنتِ بلهًا، المحروس زوجك يعلم جيدً من هي «أم شرف» التي تدخل داره ليل نهار، وإلى أين تأخذ زوجته، أخبريني بالله عليكِ هل سألكِ مرة إلى أين نذهب معًا، ومن أين تأتين له بالمال وما لذَّ وطاب من الطعام!

- أنتِ مجنونة بكل تأكيد، زوجي أعمى ولا يستحق منك مثل هذه التهمة الشنعاء.

- أعمى! بل أنتِ العمياء المسكينة، ولا تدرين شيئًا عن حقيقة العالم الذي يدور من حولك.

- قوادة قذرة.

لم تنتظر سما أكثر من هذا في قلب السيارة التي بدت تبطئ من سرعتها لحظة اقترابها من إحدى إشارات المرور، وقفزت بصورة مفاجئة من داخلها مترجلة إلى الطريق وقد انفجر شلالاً من الدموع في عينيها، وراحت تركض بلا وعي، وهنالك أحست بمن تجذبها من كتفها وهي تقول لها بوجه تغيرت معالمه تماماً إلى الملامح الشيطانية البغيضة :

- اسمعي يا بنت أكابر الكلاب، لن أدعك تهدرين لي فرصة ذهبية مثل هذه، الرجل الآن في منزله يلهث مثل الكلب السعران، ولن يتردد في دفع المبلغ الذي نطلبه منه، الغبي متيم بكِ...

فقاطعتها وهي تقول كالمصروعة متسائلة بدهشة لا مثيل لها :

- كيف، كيف؟ وماذا رأى في هذا الحيوان وأنا أخفي وجهي وكل جسمي كما ترين؟

ضحكت أم شرف ضحكة خبيثة وهي تسحبها من ذراعها إلى طريق جانبي، وقد نكتت بشكل فجائي طرف نصل حام بالقرب من مصارينها وقالت كمحترفة إجرام متمرسة:

obeikan.com

- لقد رآكِ من خلال كاميرات فيلته السرية، وتطلع إليك أكثر فأكثر في خياله الجامح، وما أدراكِ بخيال الرجال إذا جمح، تتحول في نظرهم الدميمة الوجه النتنة الرائحة مثلكِ إلى ملكة جمال ساحرة، هيا معي من سكات.

أطلقت سما تأوهة ألم شديدة وهي تشعر بالنصل الحاد ينغرز ويتمدد شيئًا فشيئًا من خلال جلدها ويكاد يخترقه، وقالت مستغربة للغاية:

- أنتِ يا أم شرف!

- هه أنا أم شرف ولكنني لم أقل لكِ أبدًا أنني أم الشرف.

قالتها وهي تدفعها بالإكراه دفعًا في اتجاه سيارة تاكسي أوقفتها بإشارة من يدها أثناء ذلك، وقد استطردت قائلة لها فيما يشبه الهمس:

- الأمر يا بلهاء لن يستغرق منا غير ساعة واحدة لا أكثر، تروين خلالها ظمأ الباشا الحيوان، وأكون أنا أثناء ذلك قد أخذت كل ما خف وزنه وزاد ثمنه.

لم تدر سما بنفسها إلا وقد دفعت المرأة دفعة مفاجئة وقوية للغاية أردتها أرضًا، ثم أطلقت ساقيها للريح وسط ذهول ودهشة المارة، فيما كانت أم شرف قد تكومت كجوال مكتظ بالدهون

obeikan.com

علـى أرض الطريـق، وقـد راحـت تلاحـق سـما بنظـرات غاضبـة بشـعة كطلقـات الرصـاص، وهـي تسـبها ﭬ شـرفها بكلمـات فحشـاء وتتوعدهـا قائلـة:

- إن لـم يكـن اليـوم فغـدًا، فأنـتِ يـا ...لا تعلمـين مـن هـي أم شـرف، وسـلي الملعـون زوجك...الأعمـى هاهاهـا.

رجعـت سـما أدراجهـا إلـى البيـت القـديم الرابـض كالشـبح ﭬ الحـي الضائـع الهالـك، وهـى لا تـرى تفسـيرًا واحـدًا لحياتهـا الغريبـة، ومـا آل إليـه الحـال مـن أحـداث وأهـوال عجـاب لا يصدقهـا عقـل، كانـت سـما كمـن تجـري خـارج إطـار الزمـن والحيـاة حينًـا ثـم تجرفهـا - ﭬ حـين آخـر - أيـدي الواقـع العابثـة إلـى العالـم الملـوث الدميـم، وعلـى عكـس المتوقـع لـم يتوقـف ذهنهـا عـن التفكيـر ﭬ مفـر، مـلاذ، بـل أي مخـرج ينجيهـا وحبيبهـا مـن وطـأة هـذا العالـم القاسـي. وربمـا مـن بـين مـا دار ﭬ خلدهـا وهـي تطلـق سـاقيها للريـح فـارة بجلدهـا مـن همـزات ولمـزات الشـيطانة أم شـرف أنـه مـاذا يبقينـي ﭬ هـذا العالـم إن كنـت مـا زلـت فيـه حقًّـا؟ مـن المؤكـد أننـي لسـت أنـا التـي تلامـس قدماهـا أرض هـذا العالـم الآن، بـل كيـف أكـون فيـه حقًّـا وأنـا أسـبح الآن هائمـة ﭬ عالـم آخـر بعيـد، وتُـرى أي شـيء يمنعنـي مـن أن أدعـو حبيـب الـروح والفـؤاد إلـى مفارقـة هـذا العالـم الشـيطاني البغيـض؛ فمـا دامـت أجسـادنا قـد توحلـت ﭬ دياجيـر ظـلام هـذا العالـم فلمـاذا

لا نفر منه – بروحينا – إلى هناك حيث تكون الحياة حقًّا هي الحياة المبتغاة، وحيث يكون السكون الأبدي هو أجل ما يصغي إليه المرء. حقًّا قد يكون الموت هو الحل لكثير من قضايا الإنسان العالقة، ولكن من قال أنَّ القضايا الكبرى تموت بموت الإنسان، وقضية وجوده الحقيقي هي مصيره الأبدي، وهنالك أصابتها رعدة إيمانية جعلتها ترى ربها بعيني قلبها الدامعتين، وهي تتمتم قائلة في سويداء نفسها: «أيكون مآل المرء في نهاية المطاف الكفر من أجل الحب، والحب لا يقتله شيء في الحياة أكثر من الكفر نفسه، فإلى أي عبث أريم وطعنة الكفر الغاشم تهتك أستار الحب الوردية. لكن لا بُدَّ من دعوة هذا الحبيب الضال أي دعوة تنجي كلينا من أَتُون هذه الحياة الظلماء. كلانا ضلَّ عن سواء السبيل، وصار مجرمًا أكثر من كونه ضحية، لا بُدَّ من كسر القيود، ومواجهة ظلم الحياة وعسفها، نريد أن نحيى ليس أكثر، كما نريد للحب الحياة» كانت تلهث وهي تصر على أسنانها أن تكسر طوق العبودية لديكتاتور بغيض اسمه السلبية، وأيًّا كانت النتائج، ولأخذ هذا الحبيب المبتغي وأمضي ليس إلى عالم الوهم والخيال، ولكن إلى عالم الواقع المتمرد الدميم، ولن تهزمني سطوة أمي وغطرسة العائلة وخداع محاميهم الجهول، وليعد أبي، كما لن يسحقني حبي، وإن كان لا مهرب من الحب إلا إليه، فليذهب الحب إلى الجحيم ولتبق كرامة الإنسان مادام

حياً ، وهنالك ركنت بساعدها على الحائط الصخري للبيت من الخارج لاهثة وقد تصببت عرقًا غزيرًا وهي تتمتم:

- إذا لم يثر المرء على نفسه الشاردة التائهة في الفلاة فعلى أي شيء يثور، بل متى يثور ونفسه به تغور في غيابة جُبٍّ سحيق، ولماذا يتوهم الإنسان أنه لن يتغير إلا إذا تغير العالم كله من حوله، تغير الكون لن يبدل في المرء شيء إذا لم تكن نيته أن يتغير حقًّا، هيه، لنغير هذا الواقع الأسود بأي ثمن، تراك أين تكون الآن أيها الحبيب المشتهي، ولنرحل إلى الأبد من هذا المكان السخيف الجد سخيف المليء بوحوش الزمن الضارية و...

هنالك مزعت أستار أحلامها الوردية الجديدة الشديدة الواقعية هذه المرة ضحكة ماجنة للغاية كانت تنبعث من داخل البيت، ارتعشت قدماها تحتها، وتسللت داخلة مثل قطة مذعورة يكاد يقتلها فضولها وهي تعلم أنها في سبيلها لمواجهة شيطان غامض من شياطين الإنس، انتبه بغتة، وتطلع إليها طويلاً وهي واقفة بباب الحجرة تنزع نقابها عن وجهها الشاحب اللا مصدق وشاية الواقع المرير بنفسه، فازدرد ريقه وهو يقول بفزع حاول أن يواريه بنظرة تبدو فاجرة:

- سما.

- أي حيوان وأي شيطان أنت.

هنالك خرجت عن وعيها تمامًا وركبها الصراخ الجنوني المستمر، فقفز حربي في اتجاهها لكي يكتم صراخها، وقال وهو يلصق يده بفمها المفغور عن آخره:

- أي غرابة فيما رأيتي الآن، الرجال تتنابهم في بعض الأحايين وساوس شيطانية، أنا أحتاج إلى امرأة تلبي احتياجات الجسد لا الروح كما تفعلين أنتِ.

ولكن سما ظلت تصرخ صرخات جنونية لم تمنعها تمامًا يدي حربي المطوقتين لعنقها وفمها، وبسرعة طفقت المرأة البغي الراقدة وهي عريانة في الفراش تهرول إلى ملابسها الملقية أرضًا، وتستتر بها خشية من الفضيحة، وآنذاك من شق السقف العلوي أطلَّ فجأة وجه حامد الخُشت القبيح وليس من قبره أسفل سرير الزوجية كما توهمت سما طويلاً والذي قال:

- ما هذا الصريخ المزعج سوف تفضحوننا في الحي يا ولاد الأبالسة!

لم تكن سما تتصور أن تنهال عليها كل هذه السلسلة العجيبة من المفاجآت العبثية، وعلى هذا النحو الصادم وفي زمن أقل قدرًا من خروج النفس ورجوعه إلى القفص الصدري، فأي عقل هذا

يا ترى الذي يحتمل رؤية الأشياء كلها في آنٍ واحدٍ وقد تساقطت جُدرها وتكشفت أسرارها على هذا النحو المهول السرعة، وهل يعقل أن يكون هذا هو حبيبها وفارس أحلامها الذي ضحى من أجلها كثيرًا، ومن أجله ضحت هي الأخرى بما لا تطيق امرأة في الوجود تحمله، ثم أي وجه هذا الذي أطل من سقف الحجرة، أفلم يمت صاحب هذا الوجه بين يديها وبيدي حربي زوجها دُفِنَ، وهنالك أفاقتها من شرودها الغريب عبارة حربي وهو يقول لها بنبرة حادة صاحبتها على ذات الوتيرة نظرة افتراسية بشعة:

- لم أمقت في حياتي امرأة مثلما كنت أمقتك.

- أنت مبصر!

قالتها غير مصدقة نفسها بصوت مكتوم تسلل بالكاد من بين فراغات أصابعه الخشنة المندسة في طبقات فمها ولسانها وأسنانها:

- بل كنت أعمى وفتحت؟

ساعتئذٍ وشت نظراتها بكل ما يدور في نفسها من أسئلة وأحاسيس لا وصف لها،، فيما كانت يده الأخرى تنغرز شيئًا فشيئًا في لحم عنقها الأبيض الرقيق، فصرخت فيه المرأة الأخرى وهي تكمل ارتداء ملابسها:

- انتبه سوف تقتلها.

لم يبال حربي بما قالته البغي له، واكتفى بتسديد نظرة حارقة لعينيها اللتين راحتا وراء غمامة من عدم التصديق وعبارات لم تجسر على البوح بها:

- أي إنسان أحببت، بل أي مخادع أنت أسلمته قلبي بكل هذه البراءة الغافلة.

- لا تبالِ يا حبيبتي سوف ترقدين الآن تحت هذا الفراش، ولن تقتلك الغيرة بعد ذلك وزوجك في رفقة هذه البغي الشهية، لأنكِ سوف ترقدين الرقدة الأبدية ولتموتي حقًّا، فأنا لم أجنِ من وراء معرفتي لكِ غير الهم والنكد والعذاب.

- لقد عدت إليك وفي نفسي الكثير والكثير من الأحلام، لقد كسرت للتو طوق سلبيتي، عدت لنمضي معًا إلى حيث يمكننا أن نسترد كرامتنا المهدرة، الحياة ليست غفلاً من حساباتي كما كنت تتصور دومًا، الحياة أنا لها أو هكذا أصبحت، ولكنك صدمتني بكل هذا الحقائق العجيبة، فحامد الخُشت لم يمت ولم يدفن، وأنت لست ضريرًا كما كنت تزعم، ولست فارسًا عفيفًا طاهر النفس والبدن كما كنت أتصور دومًا.

- حسبكِ من قال؟ لقد دفعتني نخوتي وجسارتي لكي أدفع الثمن غاليًا، وأن أكن هذا الشيطان الذي رأيتيه للتو رأي العين.

- تضحيتك منذ البداية من أجلي بل من أجل الحقيقة المجردة، وإظهار براءة فتاة مظلومة مثلي كان ما أحراها أن تدفعك إلى مصاف الفرسان والملائكة العظام لا هذا الإنسان الساقط الضائع.

أفاقت سما من غيبوبة الموت فجأة على صورة المرأة العجوز الهائشة الشعر، والتي كانت تراها خلسة في الظلام من آنٍ لآخر، كانت تتصور في البداية أنها قد رأت شبحًا مرعبًا، وكانت تخافها بشدة، ولكن ها هي ذي تظهر لها في النور لحمًا ودمًا، وقد شرعت تتسلل مندفعة من ناحية ما وهي تصرخ، وقد حملت بين يديها الناشفتين المرتعشتين بندقية عثمانلي صدئة قديمة للغاية، وقد جعلت تسددها في وجه حربي الذي كان يخنق سما في تلك الأثناء بلا رحمة وكأنما ركبه جني زنيم، كانت سما لحظتها تموت، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي خرجت منها الروح، وتدلَّى منها على جانبي شفتيها الريق واللسان، وهنالك دست العجوز فوهة بندقيتها في جسد حربي مباشرة وهي تقول موجهة حديثها لسما بصوت يفور غضبًا:

- أخرجي أيتها الروح البريئة الطاهرة من هنا، أنتِ واهمة بلهاء، ارجعي أدراجك يا ابنة الأصول، مكانك ليس هنا مع هذا الشيطان الدنيء، مكانك هناك، هناك عند الحبيب الحقيقي، الحبيب الذي ليس كمثله شيء.

هنالك لم تجد المرأة العجوز سبيلاً غير إطلاق النار، فجرت سما مهرولة إلى الخارج وروحها في حلقومها، وهي لا تدري إلام آل إليه الحال بعد أن سقط حربي غارقًا في دمائه.

●●●

obeikan.com

(٣١)

مازال العالم السري يحتفظ في سراديب ماضيه بكثير من الحقائق المبهمة، والألغاز التي لا سبيل لحلها على الإطلاق، تلك هي المشكلة التي كُتِبَ علينا أن نعيشها ونحن لا ندري عنها شيئًا، وما السبيل لحلها، بل قيضت لنا الأقدار في بعض من الأحيان أن نرحل إلى مثاوينا الأخيرة ونحن نجهل الكثير من النتائج التي خلَّفها الواقع المظلم الذي كنا نحياه قبل قليل، وكانت عبارة ما قد قالتها سما من قبل لأبيها لحظة محنة وصراعه السياسي المرير وهتافاته المدمدمة: « أوقفوا غيلان عصر الانفتاح، أوصدوا الأبواب في وجوه الفاسدين والحاقدين والمتطرفين، سدوا الثغور العشوائية بأيدي الرحمة والحب قبل أن تخرج عليكم أجيالاً من الوحوش الضارية من هناك، حيث الوحوش التي اكتوت طويلاً، وفقدت كل معالم إنسانيتها وعقلها، إنها لو خرجت من عقالها فلن يطيقها أحد» يومذاك اُستُدْعِي والدها في مكتب رئيس أمن الدولة وأخبره بغضب النظام مما قاله، وأنه لا محالة قد ارتكس في تهمة التحريض على الثورة وقلب النظام، فقال حسين القاياتي: «الجياع لا يثورون ولكن الجوع والفقر هما اللذين يثوران بهم،

وعَمَّا قريب لسوف يتغير كل شيء، وسمها رسالة حب للرئيس أو سَمِّها ما شئت، وأخبره أنَّ صديقك الحق من صدقك لا من نافقك « ولعل العبارة التي قالتها سما لوالدها لحظتها، وقد هَمَّت تركب سيارتها وتنطلق بها إلى عملها؛ كانت قاسية حقًّا ولكنها كانت واقعية إلى أقصى درجة:

- الحياة ليست فيلمًا عربيًّا ينتهي بالضرورة بانتصار الحقيقة، الحياة يا أبتِ كثيرًا ما يغلفها الغموض ولا تنتهي بنا على النحو الذي نريده نحن بل الذي تريده هي.

- على الإنسان أن يسعى وليس عليه أن يدرك النجاح.

فقالت ضاحكة وهي ترسل إليه قبلة في الهواء:

- أتصور أنك أكثر من مجرد محرض على الثورة ضد مبارك كما قيل لك، بل أنت تدبر لثورة بالفعل.

ضحك حسين طويلاً وقال لها وهو يلوح لها من بعيد:

- توقع الشيء البديهي لا يعني ضلوعي في التدبير له.

شرد طويلاً وبدا وكأنه قد غاص في بحر من الأفكار والتأملات وهو يسعل بشدة، ثم أخذ يحث الخطى إلى عمله

obeikan.com

متحاملاً على نفسه وقد اعتلت صحته كثيرًا عن ذي قبل، فجعل يقول في نفسه وهو ينظر في اتجاه سيارة ابنته التي ابتعدت كثيرًا:

- أقسم لكِ يا ابنتي العزيزة أنَّ والدكِ لا يبتغي شيئًا في الحياة غير مصلحة هذا الوطن الحبيب وحسب، ولكم دعيت إلى كثير من ميادين الكفاح الصادقة والكاذبة كذلك، ولكنَّ أحدًا لم يدعني بعد إلى ميدان مصر حتى أُلَبِّي دعوته بالروح قبل الجسد، فمثلي لا يفكرون البتة في قلب نظام الحكم، ولكن في قلب نظام الفكر.

ظل غارقًا في شروده، فيما كانت سما تتقدم بسيارتها الصغيرة الجميلة صوب نقطة التفتيش الخاصة بإحدى الفنادق الكبرى، وعلى الطرف الآخر كانت تمرق من بعيد في اللحظة ذاتها سيارة ميكروباص أجرة، والتي اضطرت للإبطاء من سرعتها لوجود أحد الكمائن على مرمى البصر، وكان الشاب النحيل الأسمر الطويل القامة يقلب هاتفًا محمولاً بين يديه، وبالصدفة البحتة ضغط أحد أزرار الهاتف والذي لم يكن قد أتقن استخدامه بعد، ومن قبيل الصدفة لا أكثر كان الزرار الذي ضغطه هو الخاص بالتسجيل بواسطة كاميرا التصوير؛ ولهذا لم يدرِ أنه قد التقط أعجب مشهد في حياته وهو ذاهلاً عن الواقع تمامًا. فلقد كان ما يفكر فيه حقًّا هو أي مبرر سيسوقه لتبرئة

ساحته إذا سألته أمه العجوز البيضاء الشعر«هانم الصنجة» عن هذا الهاتف المحمول الباهظ الثمن، ومن أين جاء به، ولا شك أنها سوف تلقنه درسًا في الأخلاق والأدب، وتسترسل في حكاويها التي لا تنتهي عن أبيه الشريف العفيف النزيه طاهر النفس واليدين «عبد السلام الطحان» والذي كان يقبل الموت نفسه ولا يقبل البتة أن تخرج ذرة قمح واحدة من قادوس الطحين إلى غير أهلها: «فوهة القادوس عالية ومرتفعة جدًّا، والطحانون لن ينتبهوا إلى القدر الحقيقي من القمح الذي طحنته بيديك، ولن يروا غير الزكائب وهي ممتلئة بالطحين، ثم ينصرفوا وتجني أنت من وراء هذه العملية الكثير من النقود من القمح الذي استبقيته من هذا ومن ذاك» فهكذا كان يُقَال لأبيك من رفقاء السوء، ولكنه كان يأبى عليهم أن يورطونه في معصية الله، وفي سرقة الآخرين. أبوك لم يكن عبيط القرية كما أشاعوا عنه، بل كان الشرف كله، فلتكن أنت وأخوتك مثله، ولكن هيهات ثم هيهات أن تتوحد البصمة على أصابعنا، فكلنا يختلف عن الآخر، وأنا من المحال أن أكون عبيط القرية مرة أخرى، بل لم يكن سعيي للعمل كأمين مخزن لإحدى الشركات الكبرى إلا من باب البغض الشديد لشيء حقير اسمه الفقر والعوز، غيرنا يكسب الملايين وربما المليارات الآن، فلا بأس من أن يكسب العبد للّه حفنة من الجنيهات من هنا أو هناك بل من أي سبيل، وهل يضر البحر عدة قطرات تنقص

منـه. فهكـذا راح يبـرر حربـي فلسـفته ﴾ الحيـاة، وقبولـه الهدايـا والنقـود مـن البعـض والذيـن يمررونهـا لـه أسـفل المائـدة كمـا يقولـون؛ وذلـك ﴾ مقابـل بعـض الخدمـات الجليلـة التـي يقدمهـا إليهـم وهـو ﴾ غايـة الحـذر، و﴾ ذلـك اليـوم علـى وجـه التخصيـص، قبـل وبعـد أن قبـض الثمـن دخـول إحـدى السـيارات التـي تحمـل بـين مـا تحملـه بعـض المعـدات الكُهنـة المدسوسـة بـين أخـرى حديثـة تم اسـتيرادها مـن الخـارج للتـو، وكان المتلاعبـون وبعـد اسـتلام البضاعـة الأصليـة مـن الميـنـاء يسـتبدلون بعضهـا وهـم ﴾ منتصـف الطريـق بأخـرى غيـر مطابقـة للمواصفـات، ولقـد كان دور حربـي هـو أن يتسـلم تلـك البضاعـة فقـط، وأنَّ كل مـا عليـه عملـه إذا اُكتُشِـفَ أمـر هـذه اللعبـة الخسيسـة – ﴾ يـوم مـن الأيـام – أن يقـول أنـه ليـس خبيـرًا أو متخصصًـا حتـى يحكـم علـى الأشـياء، وأن الأمـر لا محالـة سـوف يعـود علـى المورد الأصلـي الـذي تلاعـب منـذ البدايـة لا أولئـك الذيـن حملـوا البضاعـة مـن الميـنـاء وأودعوهـا ﴾ مخـازن الشـركة، ولقـد قَبِـلَ حربـي الاشـتراك ﴾ هـذه اللعبـة الحقيـرة ﴾ مقابـل هاتـف محمـول وحفنـة مـن مئـات الجنيهـات.

﴾ البدايـة انصـرف حربـي غاضبًـا مـن هـذا المقابـل الزهيـد الـذي حصـل عليـه ﴾ مقابـل هـذه العمليـة الكبيـرة، وأخـذ يهـدد ويتوعـد أولئـك المتلاعبـين الذيـن سـطوا علـى جـزء مـن المعـدات

الحقيقـة الباهظـة الثمـن واسـتبدلوها سـرًّا بأخـرى كُهنـة لا قيمـة لهـا، ولكـن مـا حـدث بعـد ذلـك جعلـه يغيـر رأيـه تمامًـا؛ وذلـك حـين انتبـه فجـأة والسـيارة الميكروبـاص تقطـع الطريـق مـن أمـام الفنـدق الكبيـر علـى مـن يصـرخ في وجهـه ويمـد لـه يـده أن يسـلمه الهاتـف المحمـول بـأي ثمـن، وبـلا وعـي قفـز مـن السـيارة هاربًـا بكـل مـا أُوتِـيَ مـن سـرعة وهـو لا يصـدق أن تكـون عصابـة المتلاعبـين قـد أرسـلت في أثـره مـن يسـتردون منـه الهاتـف المحمـول. «ألا مـا أتفههـم إذا كانـت هـذه هـي نيتهـم حقًّـا، فكـم يسـاوي هـذا الهاتـف الحقيـر إلـى جانـب الآلاَف المؤلفـة مـن الجنيهـات التـي سـوف يكسـبونها مـن وراء جريمتهـم القـذرة» هكـذا راح حربـي يقـول في نفسـه وهـو يجـري فـارًّا في قلـب سـتارة الظـلام مـن رَجُلَـيّ الدراجـة الناريـة «سـيد أبلسـه» وتابعـه الـذي يرتدفـه، فهـذا هـو مـا دار في خلـده للوهلـة الأولـى وهـو لا يـدري أنَّ الأمـر أخطـر مـن ذلـك بكثيـر.

وصـل حربـي الطحـان إلـى بيتـه المتواضـع وهـو يلهـث ويرتجـف بشـدة، ولـم يبـال بالنـداءات المتكـررة مـن أمـه هـانم الصنجـة العجـوز ذات الشـعر الأبيـض الـذي لـم يكـن هائشًـا آنـذاك، فراحـت تضـرب كفًّـا بكـف، وتسـبه وتلعنـه وهـي تركـض بالـكاد في أثـره لحظـة صعـوده علـى السـلم الخشـبي المتهالـك إلـى سـطح المنـزل، كـان السـلم في حجـرة النـوم البسـيطة التـي نزلـت فيهـا الفتـاة سـما كزوجـة لـه بعـد

ذاك، والـذي ارتقـى في خفـة فهـد أرقـط مـتن السـطح البيـت وهـو في حالـة ذعـر لا مثيـل لهـا، فثمـة مـن يطلـق عليـه النـار ويطـارده مطـاردة الموت، وأمـه مـن آنٍ لآخـر تناديـه أن يبصرهـا بمـا جـرى لـه، ويفسـر لهـا سـر ارتباكـه الغريـب هـذا، ولكـن حربـي نظـر إليهـا بوجـه الشـبحي مـن فجـوة السـقف المطلـة علـى سـاحة البيـت العموميـة وهـو يهمـس إليهـا بحـدة:

- لا أريد أن أسمع صوتك أيتها الشمطاء.

- اخرس وتأدب في الكلام معي يا ولد.

- أف.

تركهـا ورجـع أدراجـه يسـتطلع مسـتترًا مـن وراء دولاب قـديم أمـر الرجلـين اللذيـن يطاردانـه بـلا هـوادة، وبعـد فتـرة مـن الزمـن كان قد اطمـأن إلـى كونـه قد أفلح في الفـرار منهمـا، فارتمـى جالسًـا علـى أرضيـة السـطح الترابيـة وهـو يذفـر بضيـق ويسـب ويلعـن حظـه الأسـود، وهنالـك انتبـه إلـى شـيء مـا وهـو يقلـب صدفـة في هاتفـه المحمـول الجديـد، فقـد فوجـئ بأنَّ كاميرا هاتفـه المحمـول قد التقطـت بمحـض الصدفـة كل تفاصيـل واقعـة مـا دار لسـما أثنـاء تقدمهـا بسـيارتها في اتجـاه الفنـدق الكبيـر. انتبـه حربـي للغايـة وراح يمقـق عينيـه في رَجُلَـيّ الدراجـة الناريـة اللذيـن كانـا يطاردانـه قبـل قليـل،

وكيف قذفا بلفافة ما كبيرة في الحقيبة الخلفية للسيارة لحظة اقترابهما من كمين للشرطة، فقد أرادا أن يتخلصا مضطرين من ذلك الشيء الخطير كما يبدو بأسرع وقت ممكن، وهنالك اهتزت الكاميرا بشدة حيث تعرضت سيارة الميكروباص التي كانت تقل حربي آنذاك لمطب سخيف، واضطر السائق إلى الإبطاء من سرعة السيارة، وهذه الفترة كانت بلا شك كفيلة لتلتقط الكاميرا تفصيليًّا لحظة تفتيش سما وهجوم الكلب البوليسي عليها. دقق حربي النظر في صورة تلك الفتاة التي كانت تنتحب وهي تكاد تسقط صريعة من فرط الدهشة وقد اقتيدت بين أيدي رجال الشرطة الذين ألقوا القبض عليها، فيما شرع البعض الآخر يحرز اللفافة الكائنة في مؤخرة السيارة، وفي تلك الأثناء ظهر سعدون رجل الدراجة النارية الآخر وهو يشير فجأة في اتجاه عدسة كاميرا الهاتف الخاص بحربي، فاعتدل قائد الدراجة النارية وغَيَّر مساره في اتجاه حربي مباشرة وهو يصرخ فيه كالمجنون أن يعطيه الهاتف المحمول، وهنالك أطلق حربي - الذي فهم على الفور ملابسات كل ما حدث تمامًا - صفارة ما من فمه علامة وقوعه على كنز ثمين للغاية، وراح يُقَبِّلُ هاتفه المحمول وهو يقول متهللاً ويكاد يفط وينط من فرط نشوته وسعادته:

- لقد كنت ساخطًا اليوم بسببك أيها المحمول، يا وجه السعد والهناء، ولكن لم أكن أعرف أنك تخفي لي مثل هذه المفاجأة الرائعة، فتاة من الأكابر ثرية جميلة، وقعت ضحية بالصدفة في يد عصابة خطيرة كما يبدو، من المؤكد أنَّ هذه اللفافة التي قذف بها رجل الدراجة النارية تطوي في داخلها مصيبة، هه، والفتاة البريئة سقطت في فخ رهيب، وأتصور أنه لا يوجد في الدنيا بأسرها من يعرف أنها بريئة غيري وبالدليل، فترى كم من المال ممكن أن يدفع أهلها في مقابل هذا الدليل القاطع كي يخرجونها من هذا الفخ السخيف، وربما من تحت يدي عشماوي نفسه.

ظل حربي يتقلب البقية الباقية من الليل في فراشه وهو يفكر في الوسيلة التي يهتدي بها إلى الفتاة، ثم يبدأ في خطة مساومتهم العبقرية، وطلب أكبر مبلغ من المال منهم وإلا فلتذهب فتاتهم البائسة إلى الجحيم، فلقد رَجَّحَ حربي منذ البداية أنها قضية جلب وحيازة واتجار في المخدرات، ولقد صدق حدسه فيما بعد حقًّا، ولكن كانت المقادير قد جرت بالأمور على عكس ما توقع وخطط تمامًا، ففي الصباح استيقظ حربي من نومه متهللاً محبورًا، لِمَ لا وقد بات كما يتصور على أعتاب الحصول على ثروة

هائلة من المال تُغَيِّرُ له حياته البئيسة الفقيرة رأسًا على عقب. فلقد كان يكره حياته المتواضعة أيما كراهية، ولم يكن مثل أبيه وأمه الشريفين العفيفين وبقية أخوته المناضلين المكافحين القانعين بما قسمه الله لهم، والذين سافروا طلبًا للرزق هنا وهناك، في حين ظل هو وحده يتعثر في دياجير ظلام حياته وفشله المستمر والتفاف قرناء السوء من حوله، وها قد آن الأوان لكي تتبدل معالم تلك الحياة البغيضة القاسية. وفيما هو يتمطى ويطلق تثاؤبة طويلة من فمه تشنج فجأة، وتوقف وكأنه صورة جامدة ماتت فيها الحياة، وذلك عندما مَدَّ يده خلسة أسفل وسادة رأسه فلم يجد هاتفه المحمول وحيث كان يضعه؛ فانتفض كمن لدغه عقرب، وقد صعقته المفاجأة تمامًا، وراح كالمجنون يفتش عنه في كل مكان ولكن بلا جدوى، وللوهلة الأولى تصور أنَّ العصابة التي كانت تطارده ربما تكون قد سطت على البيت أثناء نومه وأخذته، ولكنه سرعان ما استبعد هذه الفكرة، وقفز إلى الساحة الخارجية للبيت هاتفًا بأمه ولكنه لم يجدها، فاندفع خارجًا من البيت إلى الطريق وهو يتلفت كالمجنون حواليه هنا وهناك هاتفًا:

- أمي، هانم يا صنجه...

ولكنه فوجئ بالست «أم شرف» تندفع نحوه من اتجاه ما وهي تسأله بدهشة منقطعة النظير:

- ماذا فعلت يا حربي، أنت مطلوب من الحكومة؟

فأسقط في يدي حربي، وبان عليه الهم والغم والارتباك الشديد، والذي تصور لأول برهة أن يكون أمره قد اكتشف في مخزن الشركة التي يعمل بها، أو أن تكون عصابة المخدرات قد لفقت له قضية ما، فلفت رأسه ودارت كالنحلة وكاد يُغشى عليه، وبخاصة عندما حضرت سيارة الشرطة والتقطته من أمام بيته وهو مُتَسَمِّرًا أمام الباب كالممسوس، وفي قسم الشرطة فوجئ بأمه تهجم عليه ثائرة:

- عوضين زميلك في المخزن حكى لي كل شيء، انطق بالحقيقة يا مجرم يا عار أمك وأبيك أمام سعادة الباشا.

فابتسم ضابط الشرطة قائلاً وهو يقلب بين يديه في الهاتف المحمول الخاص بحربي الطحان:

- مهلاً يا حاجة هانم، ودعيني أتبين الأمر كله بنفسي، هممم يا حربي، أيهما أفضل لك، تتكلم هنا وبكل صراحة أم أمام النيابة؟

ففهم حربي على الفور أنَّ أمره في المخزن قد افتضح، وأنه قد يتهم في سرقة معدات الشركة ومهما ساق من حجج، وأنَّ من لعبوا تلك اللعبة الخطيرة من المحال ألا يكونوا قد أمنوا أنفسهم

جيدًا، بل تجدهم قد أعدوا في الوقت ذاته أيضًا كبش الفداء الغبي والذي يحمل وحده القضية كلها على رأسه، ثم ها هي ذي أمه قد دفعته بأسرع مما تصور لمواجهة ذلك المصير الأسود المحفوف بالسجن والمخاطر، ففكر سريعًا في وسيلة ما يلتف بها حول الأمر؛ كي يخرج سالمًا من معقل الشرطة، فوثب كالقرد قريبًا من مكتب الضابط وهو يقول له بصورة تمثيلية وإن كانت متقنة للغاية:

- الحاجة لا تفهم أي شيء يا باشا، الموضوع غير ذلك بالمرة صدقني، أمي قد شاخت وأصبحت تتصرف كما لو كانت قد فقدت عقلها تمامًا.

- تهذب أيها اللص النجس مع أمك في الحديث.

- يا باشا الحق لا يُغضب أحدًا، هلا أذنت لي قليلاً انظر، انظر واحكم بنفسك.

قالها وهو يشد الهاتف بطريقة ممجوجة من يد الضابط، وبسرعة راح يدير فيلم الفيديو وهو يقول:

- هناك ما هو أهم مما تقوله الحاجة، بل ما هو أهم لمستقبلك، مَلِّي نظرك جيدًا من هذا الفيلم، همهم إنها قضية العمر أليس كذلك يا باشا، قضية مخدرات من

العيـار الثقيـل.

وقـف ضابـط الشـرطة وقـد انتبـه غايـة انتبـاه إلـى شاشـة الهاتف المحمـول، فيمـا نظـر حربـي لأمـه مـن تحـت لتحـت، ثـم قـال وكأنـه يغيظهـا:

- هممـم هـل تأكـدت يـا باشـا أننـي أسـتحق مكافـأة كبيـرة لا هـذه المعاملـة السـيئة.

وفي تلـك الأثنـاء انصـرف الضابـط الـذي ظهـرت علـى وجهـه أمـارات الاهتمـام الشـديد مسـرعًا مـن حجـرة المكتـب، وهـو يأمـر حربـي وأمـه أن يبقيـا في مكانهمـا، ولكـن هـانم لـم تنتظـر طويـلاً بعد مغـادرة الضابـط، بـل اسـتدارت ناحيـة ولدهـا وأمسـكته مـن تلابيبـه بـكل غِـلٍّ وعصبيـة، وقـد راحـت تشـب علـى قدميهـا كـي تطولـه وتلطمـه علـى خديـه وهـي تقـول لـه:

- لا تتصـور أيهـا الكلـب الجبـان أنـك إن نجـوت مـن الحكومـة أنـك سـتنجو مـن ربـك وأمـك وروح أبيـك الطاهـرة، أنـا يـا لـص يـا خائـن أمانـة الله سـوف أربيـك مـن جديـد.

- مـاذا فعلـت يـا أمـي، الموضـوع أكبـر ممـا تتخيليـن، الموضـوع غيـر ذلـك بالمـرة، ولسـوف نـأكل مـن ورائـه الشـهد وبالحـلال، أقسـم لـكِ بالحـلال.

- أنت تعرف الحلال أنت يا أقذر خنزير في الدنيا!

قالتها وقد عاودت لطمه على صدغه المرة تلو المرة، فصرخ حربي في وجهها منفعلاً:

- أوه، لا تمسكيني هكذا.

قالها وهو يدفعها عنوة من يدها، ولكنها أمسكت نفسها عن السقوط أرضًا وقالت:

- أنسيت ابن من أنت؟ عبد السلام الطحان أشرف وأطهر رجل في الوجود، أيصل بك الحال في النهاية إلى حد خيانة الناس الذين استأمنوك على أموالهم ومخزنهم.

- كذب كذب.

- على أية حال عوضين سوف يحضر بعد قليل ويشهد عليك بكل شيء.

فضحك حربي ضحكة هازئة، وجلس في المقعد المجاور لمكتب ضابط القسم مباشرة، وراح يشعل ببرود جم سيجارة وهو يضع ساقًا على ساق، وينظر في الوقت ذاته إلى أمه قائلاً وقد تغيرت نظراته فجأة إلى الشراسة المطلقة:

- عوضين الجبان! لا أظن أنه سوف يأتي أبدًا، إنه يخدعك، وإن أتى فهو أجبن من أن ينطق بكلمة واحدة أمامي.

obeikan.com

- إذن فقد بددت أمانة الله يا كلب.

- هانم يا صنجه، يبدو أنكِ ثقيلة السمع حقًّا، أفلم تسمعي أنَّ الدنيا كلها قد بددت كل شيء حقًّا، رشاوي وسرقات واختلاسات وواسطة ومحسوبية، هه ثم تلومينني أنا على حفنة تافهة من الجنيهات، وليس هذا فحسب بل وتسعين جهد طاقتك للزج بي إلى السجن.

- حتى تتطهر من القذارة والرائحة النتنة التي تفوح منك، سُكْر ونساء وعربدة، وتبديد أمانة في نهاية المطاف.

- حِسِّي ولو لمرة واحدة بولدكِ البائس المسكين، ولا تكوني يا أمي قاسية عليَّ كالحياة.

- إحساس الأم الحقيقي بولدها بتطهيره من دنس الحياة لا تركه يغرق في فتنها وقاذوراتها، ثم لا تقل أمي بعد اليوم فأنا بريئة منك أمام الله إلى يوم القيامة.

في تلك الأثناء عاد الضابط وأمرهما بالانصراف فورًا من القسم، ولكن حربي ثار وهاج، وآلى على نفسه ألا ينصرف بحال من الأحوال من القسم إلا وقد أخذ هاتفه المحمول معه، ولكن الضابط نهره وهدد بإيداعه في الحجز إن لم ينصرف فورًا، وأنَّ الهاتف قد غدا حرزًا من أحراز القضية، كما صار تحت طائلة

النيابة حتى تقرر مصيره فيما بعد، فانصرف حربي غاضبًا وحزينًا، ولم يحمد الله أنَّ الحظ قد ساعده بانشغال الضابط بتلك القضية عن القضية الأساسية التي جاءت أمه بسببها إلى القسم وإبلاغها عنه وعن جريمة المخزن، ولكن مضى إلى حال سبيله وهو في غاية الخشية من أن تضيع منه - بضياع الدليل المادي الذي كان يملكه قبل قليل - فرصة مساومة الفتاة الضحية وأهلها الأكابر، وتضيع عليه الثروة التي كان يحلم بها. فعاد إلى البيت وهو يسب ويلعن، وينتظر عودة أمه على أَحَرِّ من الجمر حتى يشفي غليله منها، ويعنفها على تفويت هذه الفرصة الذهبية منه أيما تعنيف، والتي شق عليها في تلك الأثناء أن تتصرف من قسم الشرطة قبل أن تحسم القضية التي جاءت من أجلها، وراحت تلح على الضابط المنهمك في العمل أن يحرر محضرًا ويستدعي عوضين زميل ابنها في المخزن لأخذ أقواله، فقال لها الضابط بعدم اهتمام:

- ليس الآن يا حاجة، فلدينا الآن ما هو أهم، ولننتظر حتى تقدم الشركة البلاغ بنفسها.

وعلى قارعة الطريق ظلت منتظرة طويلاً حتى خيم الليل حضور عوضين إلى قسم الشرطة كما وعدها، ولكنه لم يحضر، فعادت حزينة كاسفة البال إلى البيت فوجدت عاصفة هوجاء في

انتظارها، فما أن هلت مقتربة من ناصية الشارع الذي تحيى فيه حتى وثب حربي كالصاعقة أمامها صارخًا:

- همم، هل أنت مرتاحة الآن بعد أن ضيعتي عليَّ ثروة طائلة.
- من الحرام.
- بل هي حلال مائة في المائة!

فباغتته قائلة:

- مثلك لا يعرف الحلال، من المؤكد أنك كنت تخطط لجريمة أخرى، اذهب قلبي وربي غاضبين عليك إلى الأبد.

لم يأبه حربي كثيراً بدعوة أمه الناقمة عليه، فانصرف حانقًا وضيق الدنيا يرتسم في عينيه ووجه الأسمر الرفيع، وفي ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن فارق ثلته الفاسدة، مضى عائدًا إلى بيته وهو يترنح من فرط السكر والعربدة، ولكنه في لحظة مشئومة فوجئ ببعض المسلحين يقطعون عليه الطريق، كان «سيد أبلسه» وآخرون قد رسموا دائرة كاملة في الطريق شبه المظلم حول حربي الذي وقف مذهولاً، والذي لم يدرِ كثيرًا بما قاله له سيد أبلسه:

obeikan.com

- أين الفيلم الذي قمت بتصويره يا ابن الـ...؟

- أي فيلم؟

- حذارِ أن تَدَّعِي الغباء معي؛ فأنت لا تدري ماذا وراء هذا الفيلم الغبي الذي قمت بتصويره بهاتفك المحمول.

- مَنْ يا ترى؟

قالها حربي بلسان ثالبلد .ئ؛ فباغته سيد أبلسه بلكمة هائلة في بطنه قائلاً:

- أسيادك وأسياد هذا البلد .

ثم انهال عليه سيد أبلسه ومن معه ضربًا قاتلاً يفضي إلى الموت الحتمي، فلم يغادروه إلا وقد تأكدوا تمامًا أنَّ حربي قد لقي حتفه، بل ربما تصور حربي الطحان نفسه لوهلة ما أنه قد مات حقًّا، وحين أفاق من غيبوبة الموت كان لا يدري كم من الوقت قد مضى عليه، وظن أنه قد بعث ولكن في العالم الآخر، ولم يصدق نفسه حين اصطحبه عرفان غانم إلى مكان ما ساحر وآمن حتى لا يقع مجددًا تحت طائلة انتقام العصابة، بل لم يدرِ أي أحاسيس تلك التي قادت إليه منذ البداية تلك الفتاة الحالمة سما القاياتي والمجيء إلى ذلك المكان المجهول. لقد كان مجيئها على هذا النحو مفاجأة لم يتوقعها أبدًا، ولكنه سريعًا ما كان قد اعتبر مجيئها

فرصة ذهبية يعيد بها كرة محاولاته الدءوبة للسعي وراء المكاسب الطائلة، فعقد العزم على التقاط هذه الفرصة التي سنحت له من لا شيء، وانتهازها إلى أقصى حد ممكن، وبخاصة أنَّ فتاة جميلة وثرية وغير تقليدية بالمرة تملك بدن إنسية وروح ملائكية قد أتته حتى أعتاب بيته كلقمة سائغة له، ومستسلمة ربما منذ صغرها لفكرة فارس الأحلام، أو لكونه الفارس الأريب الذي ضحى من أجل المبدأ والشرف والحق. بل جعلتها طبيعتها البريئة تتوهم أنَّ تضحيته من أجلها هي قبل كل شيء فعاشت معه قصة حب أسطورية في نفسها، وفي أعمق أعماق خيالها هي فحسب! ولقد كان الفتى البغيض يعلم بداهة بما يعتمل في نفسها، وأنها الحبيبة التي تفتقد إلى الحبيب، أو التي توهمت أنها قد وجدت ضالتها المنشودة في شخصه، وأنها كانت تسمع في أغوار نفسها أرق وأعذب الكلمات من حبيبها وفارس أحلامها الحقيقي ولكن بصوته هو، وإمعانًا منه في الخداع والتضليل وكسب مودتها وتعاطفها معه والذي جعلها أسيرة له ولجميل صنيعه في خاتمة المطاف. راح وهو الذي فقد الكثير من صحته وقدرته يرسم على ملامحه صورة ذلك البطل الهلامي الأسطوري الذي فقد بصره ومستقبله من غير مقابل، ولكنه لم ينجح البتة في رسم هذه الصورة، بل كان بشعًا ونذلاً حقيرًا وبخاصة يوم اتفق وثلته على إيهام الفتاة بأنها قاتلة، فلم يكن هجوم حامد الخُشت عليها إلا من قبيل ممارسة

obeikan.com

لعبة الضغط على الفتاة؛ حتى تُخرج فكرة الحب والمثالية إلى الأبد من روعها، وأن تستسلم لفكرة الدخول مع عائلتها الكبيرة في صراع من أجل تحقيق أكبر مكسب مادي، ذلك المكسب الذي كان سيعود على حربي وعصابته المجرمة بطبيعة الحال.

وهكذا مضى الفتى اللعين في مخططه القذر، ولم يرق قلبه يومًا لتلك الفتاة البريئة النقية والتي كانت تمضي الهُوَيْنَى على أرض الواقع بخطى ملائكية، وكأنها حقيبة تحمل أحزان العالم كله، بل زاد هذا الفارس المزعوم من تعاستها وأحزانها، وأراها بكل قسوة وهي الطيبة صاحبة القلب الرقيق والروح الشفافة من الغم والنكد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ فلقد غلبت عليه طبيعته الدنيئة؛ فلم يكابر وظهر على حقيقته وربما منذ أول لحظة قابلته فيها، وتصرف ككاره حقود وليس كمحب عطوف؛ فأوقع الشك كثيرًا في نفس الفتاة والتي ظلت تغالط أحاسيسها كثيرًا. وأنه بلا أدنى ريب هو فارس الأحلام، وصاحب التضحيات العظيمة، في زمن بلا فرسان، وبلا تضحيات، وعاش حربي في نظرها كبطل من الأبطال الشرفاء، وهو الذي لم يجهد نفسه كثيرًا في الادعاءات التمثيلية التي تختلف تمامًا مع طبيعته الشاذة الغريبة. وكواحد من الوحوش الضارية التي افتكت نفسها من كل القيود، وتمردت على كل الأصول، وراح يفترس بلا هوادة كل شيء

في سبيله، ويغتال براءة الملائكة الأطهار التي تجسدت له إنسية في شخص سما؛ فلم يوليها مجرد نظرة إنسانية، بل كان ملوثًا مثل الواقع الذي يمقت فكرة الحب، ولا يبالي بقدسية الحب، وترك الأمر كله لخيال الفتاة البائسة التي عاشت معه أجمل قصة حب في الوجود، دارت كل تفاصيلها في الخيال.

لم يبكِ حسين القاياتي في حياته قط مثلما بكى في تلك اللحظة الرهيبة، وقد راح يتأمل في حجرة العبيد الكائنة في مكان مجهول من قصر الخالدي، والتي كانت محكمة الإغلاق بصورة لا يصدقها عقل، وكان من رابع المستحيلات إيجاد أي منفذ فيها لنسمة هواء تمر منها أو إليها؛ الأمر الذي جعل المكان خانقًا وتفوح منه رائحة الموت غير المحتملة، وهنالك تطلع من خلال عيني خياله الدامعتين إلى فراشة من نور كانت تحلق بعيدًا في عنان السماء.

«تمت»

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع إلى الناشر

obeikan.com